لمثل هذا العلاج، فشل النجاح الكامل الذي كنت أتوخاه، وإمكانية التعبير بطريقة مختلفة. ببساطة. هذه النجاحات الجزئية تحتل أول مجموعة من الأسباب. بالإضافة ثانياً، إلى المفاجأة التي تأكدت لي من أنني كنت في أكثر الحالات، أتهم الأب بالانحراف، والمفهوم القائل بالتفشي غير المنتظر للهستيريا حيث كان يصادف في كل مرة مثل هذا السبب المحتم، علماً أن مثل هذا التعميم لأفعال شاذة ارتكبت بحق الأطفال يبدو غير معقول. . . اليقين، من أنه لا يوجد في اللاوعي (اللاشعور) أي أثر للحقيقة، بحيث يبدو من المستحيل التمييز بين الواحدة والأخرى، أي الحقيقة والوهم المستثمر عاطفياً. رابعاً، توصلت إلى التأكد بأنه حتى في الذهان الأكثر تطوراً، لا تظهر ذكرى لاواعية (لاشعورية)، كون حدث الطفولة لا يتكشف، حتى في الحالات الأكثر هذياناً».

وهكذا يبدو أن فرويد وصل إلى اكتشاف حقيقة مرة، لم يعد بإمكانه تجنبها، ظهرت أمامه بوضوح لتبين خطأ نظريته في صدمة الإغراء الجنسي. وكان من نتيجتها خيبة أمل كبيرة في إمكانية اكتشافه أسباب العصاب أو حتى معالجته علاجاً كاملاً. وتراه في تلك اللحظة يرتد إلى نظريات قديمة كان سبق أن عدل عنها: وهي أهمية الوراثة في الموضوع «لهذا السبب يبدو أن العامل الوراثي قد استعاد مكانته بعدما كنت أحاول جاهداً رفضه لمصلحة تفسير نفسي للعصاب»[1].

ويبدو أن فرويد كان في أحسن حالاته الفكرية، يستبعد ما يمكن أن يتبادر إلى الذهن من أنه كان في حالة يأس أو انهيار نفسي، فهو واع ومدرك لفشله، يتقبله كمن يتقبل فقدان أو خسارة موضوع عزيز عليه. ونحن ندرك أهمية هذا الحدث وكبر الآمال التي كان يراهن عليها في آخر الرسالة عندما يقول «أتابع رسالتي بتنوعات من كلمات هاملت: TO BE AN READINESS ـ الاحتفاظ بالرزانة ـ كل شيء يتوقف على ذلك. كان بالإمكان أن أشعر بيأس شديد: الشهرة الخالدة، الثروة المؤمنة، الاستقلال التام، الرحلات، اليقين من حماية أطفالي من كل الصعوبات التي كانت همّاً في شبابي. هذا ما كان حلمي الجميل. كل شيء كان يتوقف على نجاح أو فشل الهستيريا. وها أنا الآن مجبرٌ على أن أقف هادئاً، أستمر في رداءة الحياة، أقتّر

(1) ولادة التحليل، ص 191.

مصاريفي، ومكبلاً بالهموم».. ويستشهد بقول مأثور على غرار الخطيبة التي كانت تمني نفسها بالزواج السعيد بعد فشل الخطوبة «روبيكا اخلعي ثوبك، فشلت الخطوبة».

يسمي فرويد هذه المرحلة بالانهيار التام لنظريته. باستثناء ما كان قد بدأه في تفسير الأحلام: ولكن كما يقول نظرية الأحلام لا تغني عن جوع.

الواقع أن فرويد لم يفشل بمعنى الفشل، بل كانت مرحلة من تطوره التحليلي التي كان لا بد من المرور بها على غرار ما يحصل في التحليل النفسي، عندما يراهن محلل على موقف من المواقف ويتبين له عدم صحته، أو يتبدد لكي تظهر مكانه حقيقة أخرى كانت كامنة وراءه. التحليل عملية مستمرة بين الهدم والبناء،الهدم لكل السرابات النرجسية التي كانت تغلف الواقع وتظهره مغايراً لحقيقته، فالحداد والعزاء يرافقان فقدان كل غرض عزيز كان مستثمراً على الصعيد النرجسي، فهذه عملية مستمرة في التحليل، من حيث إن التحليل يبدو من أوله إلى نهايته أنه فقدان لهذا الموضوع رغم السراب المسيطر في البداية والذي يلوح إلى الحصول عليه واكتسابه عن طريق البدائل. وهذه عملية تسير على غير علم من الشخص، لأنها في الواقع تؤدي به إلى فقدان ما كان يرنو إليه أي بالمعنى الأصح إدراكه لنقصه، هذا النقص الأساسي الذي يحتل الفراغ كان يحتله الغرض الأولي، وكل التمثلات التي تأتي كبدائل لتحل مكان الموضوع الضائع، لا يعبىء الفراغ بقدر ما يشير إلى وجود نقصانه.

فالهستيريا كما صرّح فليس عنها كانت فرس الرهان التي علق عليها الآمال بالشهرة والمال ورغد العيش، ولكن هذه الفرس الضالة المنشودة لم تكن لفرويد إلا سبب الرغبة: الموضوع الصغير حسب المفهوم اللاكاني (Objet a) الذي يجدد الرغبة بعد أن يتلاشى. فكان إذاً لا بد بعد فشل الهستيريا من أن يكتشف الهوام، وهو الوجه الآخر، أي ما كان يربطه بالنظرية. الجانب الفكري الذي يؤسسه ويكونه من حيث إنه موطن رغبته. فهذا هو فضل الهستيريا كونها استطاعت أن تجبر من كان بموقف المعلم، أي فرويد، من أن يطرح السؤال عما يحرك مشاعره وأمنياته، ويكمن وراء تحقيق رغباته شرط أن لا يقع في شباكها على غرار بروبير، الذي تجاهل الدوافع التي تحركه، فأسقط عليها هواماته التي ارتدت إليه بشكل مرتجع بأمنيات وتحقيق آمال، أي باختصار ما كان يتجاهله في نفسه كان يأتيه من الواقع بشكل آخر.

والسؤال هنا ما الذي حدا بفرويد كي يتهم الأب بالشذوذ ويعتمد أحداث الاعتداء كحقيقة تاريخية حصلت؟ أجاب فرويد بعد مضي 30 سنة أنه كان لا يميز في

تلك الفترة تماماً ما بين الواقع والخيال، لأن نظرية الهوام لم تكن قد اكتملت بعد عنده.

فنظرية الهوام كانت قائمة إلى جانب نظرية الصدمة الإغوائية،وقد بدأت تخط طريقها قبل أربعة أشهر من اعترافه بفشل نظريته، وقد ظهر ذلك في رسالته المؤرخة في 25-5-1879، عندما اكتشف الهوام، وأعطى لأول مرة تعريفاً كاملاً عنه[1]:

«تتكون الهوامات من تركيبات لاواعية (لاشعورية)، تتمازج بها أشياء معاشة وأشياء مسموعة، حسب ميول مبيتة. وهذه الميول تهدف كي تحول دون اكتشاف الذكريات التي كانت سبباً في ولادة العوارض. تتكون الهوامات ضمن عملية انصهار وتشويه على غرار التحول الذي يصيب الجسم الكيميائي المركب مع آخر (. . .) جزء من مشهد مرئي يرتبط مع جزء مسموع لكي يكون هواماً، أما الجزء المتبقي فإنه يدخل في تركيبة هوام آخر. فهذه العملية تجعل من المستحيل اكتشاف المكونات الأصلية».

كان من نتائج اكتشاف الهوام أنه استعاض بهذه النظرية ما كان قد فقده من نظرية صدمة الإغراء؛ فلم يعد يهم ما حدث من أحداث هامة أو غير هامة، لأنها عرضة للتحريف، المهم كيف ارتبط الطفل بهذه الأحداث: أي الهوامات التي تكون قد نتجت عنها. فالمحور الأساسي في التحليل هو الهوام حيث تتواجد الذات على مسرحه دون أن تنكشف متمثلة بشكل مقنع، ومحققة في آن واحد رغبة (لاشعورية) لاواعية. وأصبح من الممكن التمييز ما بين الواقع النفسي، وما بين الواقع الخارجي، كون الأول متمثل بقانون ومنطق الهوام، وإن صح القول، يمثل موطن الرغبة. فعلاقة الإنسان بالإنسان أو بالأشياء هي علاقة هوامية كوسيط بينه بينها، يحقق رغبته عن طريقها، فتأخذ بالمناسبة صبغتها الواقعية. وهكذا تتكون الهوامات منذ ظهور الموضوع الذي تتعلق به الرغبة. أي منذ الفترة الأولى التي يحاول بها الرضيع استعادة الثدي بعد أن شعر بالجوع عندما يتوهم صورة الثدي المرئية، ولكن فرويد ركز على أن أول الهوامات يعود إلى المشهد الأول(*)[2].

وليس من غريب الصدف أن يكتشف فرويد الهوام في الفترة التي باشر فيها

---

(1) ولادة التحليل، ص 180.

(*) يستثنى الطفل من العلاقة الثنائية التي تجمع بين الأب والأم في فراش واحد، على اعتبار أنه من هذه العلاقة ولد، ولكن على حساب غيابه كمشارك.

تحليله لنفسه. فيبدو أن إلصاقه التهمة بالأب كسبب من مسببات الهستيريا لم يفقد قيمته على الصعيد النظري، حتى ولو لم يكن يحصل أن الأب قد اعتدى بالفعل على الابن، هذا لا يمنع من وجود مثل هذه الفكرة على الصعيد المخيالي، وهذا لا يفقدها قيمتها النفسية. لأن التصور في حد ذاته يعبر عن واقع نفسي يتحقق عبر الرغبة نفسها. وكان من النتيجة المنطقية لهذا التحول أن يكتشف فرويد خلال تحليله العقدة الأوديبية. فالطفل يتصور أن الاعتداء يأتي من الأب أو من الراشد، ولم تكن تأتي موافقة فرويد على هذا الواقع لولا أنه كان يشارك مرضاه مثل هذا التشويه، فليس بإمكانه اكتشاف صحة مثل هذه الرؤيا إذا لم يكن قد أدرك مسبقاً الاجتذاب الشبقي نحو والدته ـ واعتبار والده حاجزاً يحول دون ذلك.

ونستطيع أن نستقرئ بأن صدمة الإغراء هي في حد ذاتها هوام فرويد نفسه: أي ارتباطه الهوامي في النظرية. ونرى أنه عدل عن هذه الفكرة بمجرد ما انكشفت أمامه حقيقة مشاعره الطفلية: عندما كان يهيم في حب أمه، ويغار بالمناسبة من والده، وكان يصحب ذلك المحاولة التي يتحبب من خلالها إليها، لكي يغريها ويجتذبها نحوه. فإذاً لا بد من قلب هذه الحقيقة بأسلوب معاكس، فليس الطفل الذي يغري، إنما الراشد الذي يغريه، وبما أن الطفل يأخذ هواماته كواقع، أي لا يفرق ما بين الهوام والواقع، اذا ما كان هواماً اعتبره حدثاً واقعياً، أليس هذا هو موقع فرويد النظري عندما التبس عليه الأمر ما بين الحدث والهوام؟

ويتبين لنا فيما بعد أن هذا الالتباس يتبدد في الوقت نفسه الذي يكتشف فيه فرويد هوام عقدته الأوديبية. يقول فرويد في رسالته إلى فليس في 15 ـ 10 ـ 1879: أي (أقل من شهر من تاريخ رسالته حول الصدمة الإغرائية)[1]: «إنه لتمرين مفيد بأن يكون الإنسان صادقاً مع نفسه، لم يطرأ على فكري إلا فكرة واحدة لها قيمة شاملة. وجدت في نفسي كما يتواجد في كل مكان ومع كل كائن، مشاعر حب نحو والدتي، وغيرة نحو والدي. مشاعر حسب ما أعتقد معممة عند كل الأطفال... إذا كان هذا صحيحاً نفهم عندئذ، رغم كل الاعتبارات العقلانية التي تتعارض مع احتمال هذا القدر القاسي، الأثر العميق لأوديب الملك... ولكن الأسطورة الإغريقية أشارت إلى كبت اعترف به الجميع لأنهم جميعاً شعروا به. كل سامع، لا يزال يراوده، برغم

(1) ولادة التحليل النفسي: رسالة 15-10-1897.

أو خيال الأوديب يفجع أمام تحقق حلمه إذا ما نقل إلى الواقع، يرتعد بحسب مقدار الكبت الذي يفصل ما بين وضع طفولته ووضعه الحاضر».

إذا استطاع فرويد فصل الحدث عن الواقع لكي يعمل منه هواماً، وفي آن واحد نرى أنه وضع اللمسة الأولى على هوام المحرمات، لكي يعمم ذلك على كل أفراد البشر عبر أسطورة أوديب وشكسبير في قصة هاملت. لم يجرؤ فرويد على التعبير عن هذا الاكتشاف إلا في رسالة فليس المذكورة، قبل أن ينشرها في كتابه تفسير الأحلام.

انطلاقاً من هذا الاكتشاف انقشعت أمامه الحقائق المتتالية: أوديب ومشتقاته، عقدة الخصاء(1) ـ فيما بعد ـ كعامل أساسي في تحول الطفل من التعلق بالأم إلى الاتجاه الاجتماعي السوي؛ وكذلك تكشّفت أمامه الحياة الجنسية عند الطفل: جمع كل ذلك في كتاب ونشره سنة 1905، وكان له صدى عميق قي الأوساط الطبية والتربوية. على اعتبار أن هذه هي المرة الأولى التي يتجرأ كاتب على نزع قناع الطهارة والبراءة عن الطفولة. كل ما قاله فرويد كان معروفاً من الأمهات والمربيات، ولكن الفضيحة كانت تكمن في كشف النقاب ليس عن الطفل، إنما عن الراشد الذي كان يتواطأ لكبت مثل هذه الحقائق فلا يمكن أن يقبل بما هو ممكن عند الطفل إذا كان يجاهد كي يكبت ويرفض ذلك في نفسه حتى يتوقى صدمة لنرجسيته.

كان من نتاج هذه الحقبة كتابه «تفسير الأحلام» الذي صدر سنة 1900 ـ وكان فرويد قد أودعه كل نظرياته النفسية التي توصل إليها على أثر تحليله لنفسه. والكتاب من أوله لآخره جاء ليقول بأن الإنسان منقسم على ذاته بين وعي (شعور) ولاوعي (لاشعور)، وأن لهذا الأخير قوانينه، ولغته شبيهة باللغة التي نتكلم بها، وذلك رغم التباين الظاهر والغرابة التي ترتبط بصورة الحلم، فلا بد إذاً من خيط يربط بينهما. يجعلها إذا ما فسرت، تبدو أنها تعمل ضمن لغة منطقية تخضع لقانونها الخاص هو: التكثيف والنقلة. ونجد الشبه لذلك في اللغات المتداولة عبر: المجاز والكناية المرسلة (Métaphore, Métonymie)(1). والتداعي الحر، وهي الطريقة المتبعة في التحليل النفسي وتعتمد على هذا القانون؛ على اعتبار أنه مهما ظهر من تباين في نوعية الأفكار، فلا بد من وجود خيط يربط فيما بينها، وأن تواردها لا يتمتع بالحرية التي نتصورها لأنها تخضع لرقابة لاواعية (لاشعورية) تشير إليها. وهذه الطريقة استوحاها فرويد من ثلاثة مصادر.

(1) كاتب اسمه بورن، كتب مقالة يقول فيها: كيف يمكن أن تصبح كاتباً طريفاً في خلال ثلاثة أيام، ويجيب: ما عليك إلا أن تأخذ قلماً وورقة وتكتب كل ما يجول

بفكرك من دون تحفظ عن: حياتك، زوجتك، أصدقائك، رؤساؤك وأساتذتك، عن الحرب، عن الدين، إلخ. وستجد أن أفكاراً جديدة لم تعهدها من قبل تنكشف أمامك ويتبين لك في غضون ثلاثة أيام من الكتابة، أنك أصبحت كاتباً طريفاً. هذا الكاتب تأثر به فرويد منذ حداثة شبابه حيث كان يملك مجموعة كتبه، وكان يعتبره من أفضل الكتّاب.

(2) كان يعالج امرأة اسمها ايمي فون ن. وكان من عادته أن يقاطع مرضاه لكي يعطي تفسيراً، أو يوجه الحديث في غير الاتجاه الذي كان يسير عليه. وفي إحدى المرات اعترضت هذه المريضة لكي تلفت نظره: بأنه يزعجها بكثرة تساؤلاته، ويقطع عليها حبل أفكارها، وتتمنى عليه أن لا يقاطعها.

(3) تأثر بهولمز الذي قال إن تداعي الأفكار، رغم التباين فيما بينها، لابد من وجود خيط يربط بينها. وإن حدوثها ليس على سبيل الصدف.

فهم فرويد أن الحكمة تقتضي الإنصات وليس الكلام، وإسداء التفسيرات الإيحائية. وبدأ منذ ذلك الوقت يروّض نفسه على الإنصات أكثر من الكلام. إلى أن اكتشف القوانين المتحكمة في التداعي الحر: كسبيل وحيد لفسح المجال أمام اللاوعي (اللاشعور) لكي يفضي بالتعبير عن وجوده حيث تكمن الذات الحقيقية بنزواتها المكبوتة ورغباتها.

إذاً انتهى المطاف بفرويد، من غير أن يدري، بالانتقال من المنهجية الهستيرية التي تضع الهوام (العوارض، الأحلام) في مكان الصدارة إلى المنهجية التحليلية التي تتساءل عن الرغبة المحركة للحياة (لا حياة من دون رغبة وهذا ما نصادفه عيادياً، في حالات الاكتئاب حيث يبدو أن الإنسان مرتبط بها في تطلعاته النفسية، ارتباطه بجسده).

فالرغبة هي في مكان الصدارة، لها موضوعها كما سماها جاك لاكان (Objet a)[<]، وتدخل في تركيبة الهوام الذي انتهى إليه فرويد في اكتشافه وتحديده؛ والهوام يربط الذات بما يحركها من رغبات دون أن تكشف عن نفسها، على اعتبار أنها متمثلة بشكل مقنّع (a ◇ $). ويتبين لنا من خلال التحليل أن لهذا الهوام[<] وظيفة بنيوية في تحديد علاقته ما بين الذات المنقسمة وما بين موضوع الرغبة[<]. ($ ◇ a): هذا الموضوع كما يقول كلافرول[1] وهو الأول والملازم للرغبة؛ هو

---

(1) Clavreul: ordre médical.

$ تعني الذات المنفسحة في علاقتها مع موضوع الرغبة عبر ◇ ـ أي غير مباشرة.

الموضوع المفقود، الذي تمّحي ذكراه. فالقانون لا يقول فقط بأنه يجب ألا نستمتع بالموضوع المحرّم، بل وأن لا نرغبه، أي التعرف عليه أو الرغبة بالتعرف عليه. فالتحريم عندما حوّل الذات عن هذا الموضوع الأولي، أجبرها على التفتيش عن كل موضوع ممكن أن يأخذ مكانه كبديل.

وكل ما يأخذ مكان هذا الموضوع الأول للرغبة، من كلام، أو من أي طرف آخر، لا يستمد أهميته من الواقع، ولكن من مقدار ارتباطه بالهوام. وهذا ما كشف عنه فرويد عندما توصل إلى العقدة الأوديبية، واكتشف أن ارتباط الطفل بالأم أو الطفل بالأب، من جاذب إغرائي أو من إغواء معاكس، ليس إلا حدثاً يدخل في بنية الهوام، حيث إن الأم أو الأب يدخلان من خلال العقدة الأوديبية في إطار الموضوع الأول المحرم.

السؤال الذي يطرح نفسه هل كان بإمكان فرويد أن يكتشف التحليل النفسي دون أن يمر بهذه المسيرة الطويلة؟ سؤال يطرحه ولا يزال يطرحه المحللون دون أن يتوصلوا فيه إلى اتفاق على مبدأ، حول نقل التحليل وطرق تعليمه. فالتحليل النفسي يختلف عن بقية العلوم الإنسانية فهو ليس بمعرفة تنقل بواسطة الجامعات، والمعلمين المكلفين بذلك على غرار ما يحصل بالنسبة للطب، والفلسفة، والهندسة، فهناك فارق ما بين موضوع التحليل وما بين المعرفة. فالمعرفة بالموضوع لا تغيِّر شيئاً لأنها مفصولة عنه بخط فاصل، فمعرفة الطالب عن عقدة الخصاء، لا يخفف عنه خوفه من الخصاء، أو المعرفة التي تستهلك في المدارس الحديثة عن الحياة الجنسية وخفاياها لا تحمي المراهقين من العقد الجنسية، لأن لكل طفل نظريته الجنسية التي كانت قد تكونت قبل المعرفة المكتسبة، من حيث إن هذه الأخيرة لم يبق لها دور إلا تغطية حقيقته الداخلية، أي المعرفة المؤسسة.

وهكذا كان الشرط الأساسي لنقل التحليل، وتعليمه، من المحلل إلى الطالب لا يتم إلا عن طريق التحليل الخاص كي يكتشف بنفسه ما اكتشفه فرويد؛ ولا بد له في مثل هذه الحالة إلا أن يتمم الدورة التي قام بها والتي تتكرر في كل مرة يتوجه فيها بطلب الى الآخر الكبير[٧] الذي يحتل مكان المعلم أو السيد، يسأله من موقع المفترض العارف فحوى رغبته، عما يريد، عن الفارق الذي يميزه، وأمام صمت هذا الآخر، يرتد الطلب لكي تعاد صياغته بأسلوب نقوصي أكثر فأكثر، جاراً معه

الذكريات الدالة على ما يؤسس هذا الطلب كونه، ما قبل وما بعد الرغبة كي يتحول في آخر المطاف من رغبة في الاعتراف إلى طلب اعتراف بالرغبة.

موقف المحلل في هذه الحالة يختلف عن موقف الطبيب أو الجامعي، فهو لا يستعين بأية معرفة مسبقة، لأن كل مريض يحمل في نفسه معرفته التي تأبى أن تدخل في سلسلة المعارف لأنها تميزه، وتحدد هويته. خلافاً للطب الذي لا يدخل المريض إلى الحقل الطبي إلا إذا طابق معرفة دالة في المعجم الطبي ـ فيعرف عليه مثلاً بمرضه وليس باسمه ـ لأن المرض هو المهم وليس الإنسان الذي يقف وراءه. ومن هنا ندرك لماذا وقع الخيار على الهستيريا لكي تقلب المفاهيم العلائقية المتحكمة بعلاقة الطبيب بالمريض. لأنها فضلت استثناء ذاتها من العلاقة، فقدمت أعراضها على مذبح المعلم، لكي تستدرجه حتى يجد نفسه بعد أن يتبدد السراب، وجهاً لوجه أمام الطرف الثالث: حقيقتها الذاتية. ولا عجب إذا ما استثنيت الهستيريا من الدراسة الجامعية واعتبرها الأطباء الكمين الذي يجب أن يتفادوه، أو الشبح الذي يهدد المنهجية الطبية. وكان من ردة الفعل أن نعتت الهستيريا بشتى النعوت المحقرة: من كاذبة، إلى مشعوذة، الى مخادعة، إلى ممثلة، إلى متظاهرة، وكان من نصيبها دائماً أن ترمى في سلة مهملات الطب. تحاكي كل الأمراض دون أن تكون أحدها.

نستطيع القول إن فرويد لبى نداء الهستيريا واستجاب لاستغاثتها، واستطاع أن يفك رموزها عبر الدورة التي قام بها: على غرار ما حددها لاكان بالشكل الآتي:

1) S1 منهجية المعلم. تلخص حقبة علاقته، ببروك و هولمهلتز و شاركو.

2) S2 منهجية العلم المختبر ـ حقبة الكوكايين

3) التحليل النفسي الرغبة وموضوعها (a)

4) منهجية الهستيريا صدمة الإغراء الجنسي التي أدت الى اكتشاف انقسام الذات على نفسها. وفي كل مرة كان فرويد يقطع ربع دورة يفقد خلالها الموضوع البديل للغرض الأولي الضائع بحكم التحريم، فالمعرفة به لا تغنيه عن السؤال عما يسبب رغبته بها. لأن هذه الرغبة منذ البداية نقصان لوجود(*). وإن انتهى التحليل إلى الشكل الذي انتهى إليه فرويد، فليس ذلك إلا نموذجاً لما يمكن أن ينتهي إليه أي تحليل تعليمي، يتكلم من الموقف الهستيري المنقسم بذاته، المتحرر من المعرفة المسبقة،

(*) من هذا النقصان الذي يؤسس وجود الإنسان يبدأ السعي وراء هذا الموضوع الذي غاب عن هذا المكان: من هذا المنطلق حدد لاكان الرغبة بنقصان لوجود وموضوعها (a-1) وهو موضوع ضائع.

لأنها تفقد قيمتها كمرجع للتعريف عنه، فيتمسك باللغة مرجعه الوحيد، التي تعبر عنه لأنه يتكون ويتولَّد منها، فيحدد غرضه الضائع عبر البدائل التي تحل مكانه، ويفقده إلى غير رجعة بكل ما كان يحمله من أمنيات نرجسية، أي عبر التحليل تتم عملية الحداد عليه، كي يكتشف هذا النقص الأساسي مدخله الرئيسي إلى عالم الرموز حيث تتوالى الدوال الواحدة تلو الأخرى لتمثله باستمرار بالنسبة إلى دالٍ آخر(٢).

1 ـ جرح نرجسي، وشعور بالنقص تجاه الرجل مع رد فعل احتقار وازدراء للرجال بصورة عامة. ومن هذا المنطلق طوّر أدلر (Adler) تعميم نظريته في عقدة النقص، متنكراً بذلك لمفهوم عقدة الخصاء.

2 ـ غيرة، ليس لها ما يبررها على صعيد الواقع الخارجي، وقد تكون منقولة إلى موضوع آخر، ولكن هدفها هو تحويل الانتباه عن اشتهاء الذكر.

3 ـ عدوانية تجاه الأم أساساً، على اعتبار أنها أخرجتها إلى هذا العالم دون أن يتم تكاملها بذكر، على غرار الصبي. فقد ولدتها ناقصة، وهذا الشعور يولد إحباطاً يتعزز إذا ما تبين لها أن الأم تولي اهتماماً متزايداً لأخ أكبر أو أصغر منها.

مع هذا يشدد فرويد على احتمال رابع يفوق أهمية الاحتمالات الثلاثة. وهو أن هذه المعرفة تشكل عاملاً رادعاً لاستمرار العادة السرية. فالفتاة تتحمل بعجز ردات فعل العادة السرية. لأنها تعيد إلى ذهنها الفارق الشاسع بينها وبين الرجل. فترتد إلى نفسها بالشعور بالذنب والقهر. وتكافح ذلك بشتى الوسائل لكي تتوصل في النهاية إلى العلاقة الجنسية السوية. فالعادة السرية هي صفة من الصفات الذكورية؛ تتمسك الفتاة بهذا الموقف الذكري، وقد تستمر في هذه الممارسة، إلى أن تستغني عنها، وتستبدلها بعلاقة عشقية في سن المراهقة. فالإقلاع عن العادة السرية هو خطوة أساسية في اتجاه الأنوثة السوية. وهذا الاقلاع يتم بواسطة إدراكها لاستحالة محاكاتها للرجل، وأنها مهما فعلت، لا يمكن أن توازيه. فمن الأفضل أن تكف عن هذه المزاحمة، لأن نتيجتها محسومة سلفاً. ويخلص فرويد إلى القول بأن إدراك الفتاة للتباين التشريحي بينها وبين الرجل، يؤدي إلى إزاحة عقدة الذكورة، والكف عن العادة السرية، وتوجهها إلى الخط السليم نحو أنوثة سوية.

كل هذا يحصل في المرحلة الما قبل أوديبية. فانطلاقاً من معرفة التباين الجنسي بين الجنسين تدخل الفتاة في عقدة أوديب. فهي قد حكمت وحسمت بأنها لا تملك ذكراً، أي بأن الخصاء قديم فعلياً. أي جزء من تكوينها وليس كما يتهيأ لبعض النساء بأنها كانت تملكه وحرمت منه. وهو ما يسمى بالفالوس المخيالي.

أما الفتى فإدراكه لهذه الحقيقة يصبح بمثابة العامل الأساسي لإخراجه من العقدة الأوديبية؛ فتحت وطأة التهديد بالخصاء تتفجر العقدة الأوديبية، وتتطاير شظاياها في الهواء حسب تعبير فرويد. ولا يبقى منها سوى الختم الذي يترجم بالختان.

فالطفل قبل إدراكه للتباين الجنسي، يتوهم بأن كل المخلوقات تملك ذكراً مثل ذكره. والبشر جنس واحد، وما يعزز هذا الاعتقاد هو التوظيف النرجسي لهذا العضو نظراً لما يؤمن له من متعة كبيرة. إضافة إلى استثمار للأنا في حقل نشاط الفالوس. وهذه الأنا في تكونها الهش، هي نرجسية، وتخضع لمبدأ اللذة، أكثر مما تخضع لمبدأ الواقع. فلذلك عندما يتبين له أن الجنس الآخر ناقص، ولا يملك الذكر، يحاول أن يتنكر لمثل هذه الحقيقة، أو لا يعطيها أهمية كافية. ولكن دخوله في العقدة الأوديبية يضعه في موقف المنافسة مع الأب، الشيء الذي يعيد إلى ذهنه صورة الفتاة المحرومة من الذكر. فهو لا يتصور بأنها خلقت كذلك، بل إنها كانت تملك الذكر، ولكن لسبب من الأسباب نفذ بها الخصاء، وهذا الحدث يتعزز بأحداث وذكريات سابقة(*).

هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى تأتيه ذكريات من المرحلة الطفلية السابقة تدعم نظرية احتمال انفصال العضو عنه: الثدي عندما يسقط من فمه والغائط عندما ينفصل عن جسده . فالتشبه بين الغائط والذكر هو احتمال وارد. كما انفصل عنه الأول، يمكن للثاني أن يلقى نفس المصير. وهذا ما يفسر ارتداد بعض العصابيين إلى هذه المرحلة بعد أن يكونوا قد عجزوا عن تخطي عقدة الخصاء، فيتشبثون بالمرحلة الشرجية مع كل مظاهرها العيادية. ويؤدي ضريبة الخصاء بالتحكم بالبراز ما بين الحصر والعطاء، مع اضطرابات معوية متعددة. والذكرى الثانية هي الفطام: أي انفصال الثدي عنه، والاحباط الحاصل من ذلك، وهنا يحصل التشابه ما بين الذكر والثدي. ويولد في حال تعثر حل العقدة الأوديبية، الارتداد إلى المرحلة الفموية؛ ويتكون بذلك العصاب الأساسي الفموي حسب تعبير برغلر(**). إذاً كل هذه العوامل تعزز عند الطفل واقعية التهديد بالخصاء. فهو احتمال وارد، تؤكده الرؤية عند الطفلة التي حرمت من ذكرها، والتي قد تظن أنها فقدته اقتصاصاً لنفس الدواعي التي يعاني الطفل منها. فهو يشتهي الأم ويرغب في امتلاكها جسدياً، وبالمقابل يحب الأب، ولكنه يكرهه ويتمنى التخلص منه، لأنه يشكل حاجزاً يحول دون تحقيق هذه الرغبة.

(*) هذا ما يفسر ظاهرة معممة على أكثر المجتمعات في الطريقة التي يتعامل بها الرجال مع المرأة على أساس دوني بقيت أسبابه مكبوتة. أو الخوف منها وإقصاؤها عن الحياة الاجتماعية لأنها تذكرهم بعقدة الخصاء. الأساطير اليونانية جسدتها برأس ميدوس التي تحول كل رجل إلى جماد إن ما نظر إليها.

(**) Bergler, *La névrose de base*.

فهو يريد أن يحل محله. وبما أن الأب يعاكس رغبات الطفل في مجالات تربوية، ويحاول أن يضع حداً لنزواته تتكوّن لديه فكرة بأن الأب سيتصدى حتماً لمثل هذه الرغبة المحرمة دون أن يسميها(*)؛ وقد يكون فقدان الذكر هو القصاص الذي سيطاله نتيجة هذا الانتهاك. هنا تكمن عقدة الخصاء.

أمام هذا التهديد يصاب الطفل بارتباك شديد، وصدمة عنيفة، تضعه أمام خيارين: إما الحفاظ على استثماره النرجسي لذكره، وإما الاحتفاظ بتعلقه الشبقي للأم. وأمام هذا التأرجح ينتصر الرهان الأول إذا ما سارت الأمور سيراً طبيعياً، فيتخلى عن تعلقه الشبقي بالأم، ويحتفظ بذكره، وبما يمثل له من تجمع نرجسي. وهكذا يتماهى بالأب كنتيجة حتمية لحل عقدة الخصاء، ويدمج في ذاته سلطة الأب عبر تركيبة نفسية تمثل النواة الأولى للأنا الأعلى، ويصبح ما هو مانع خارجي مانعاً داخلياً، يؤمن استمرارية التحريم بارتكاب المحرمات وتناقلها من جيل إلى جيل. وكذلك يصبح الرقيب للأنا، يحاسبها على كل هفواتها أو حتى عن نواياها غير المعلنة، كما هو الحال في العصاب القهري، في مغبات النزوات المحرمة. وهكذا ينصرف الطفل عن تعلقه الشبقي بالأهل، فيجرد العلاقة من محتواها الجنسي. ويتسامى بها إلى مستوى المحبة والعطف والحنان. فيدمج هذه السلطات الأبوية في ذاته بعد أن يحولها عن غرضها الأولي، لكي تصبح تماهياً يؤمن له المودة المتبادلة، والعيش في وئام.

هذا هو المخرج الإيجابي لأوديب، أما عن المخرج السلبي يقول فرويد بأنه ينجم عن تشبث بالأم وابتعاد عن الأب، حيث يحاول التشبه بها، لكي يحصل من الأب الذكر التعويضي. وهذه تكون النواة لاضطرابات عصابية، وانحرافات جنسية مثلية. وفي كلا المخرجين: السلبي أو الإيجابي، تؤدي العملية إلى فقدان الذكر، ففي الإيجابي، يستغني عن وظيفة ذكره الجنسية، وهذا ما يسمى بالخصاء الرمزي (أي يحتفظ بذكره سالماً بعد أن يتم تعطيل وظيفته المحرمة)، فتكون العملية قد حولته عن المحرمات، ولا يبقى هناك مبرر لخوفه من التهديد بالخصاء، لأن هذا التهديد كان مرتبطاً أصلاً بتعلقه الشبقي المحرم بالأم. فانفصاله عن الأم، وتحويل الدوافع الليبيدية عنها، يؤمن له سلامة الذكر. وبعدها يدخل الطفل في حالة الكمود حتى البلوغ حيث

(*) ليس بالضرورة أن يسمى تحريم الام. هذا التحريم متواجد في اللاوعي(اللاشعور)، قد يطرق الباب ويلقى الجواب دون أن يصبح واعياً، لأن التحريم الاساسي للام انطلق منذ أن دخل الانسان في عالم اللغة: هنالك من يقول أن بناء اللغة والتحريم الأساسي ملازمان بعضهما البعض.

تعود التيارات الليبيدية إلى الظهور في اتجاهات مغايرة للسابق. أي تتحول عن غرضها الأساسي لكي تختار غرضاً جديداً خارجياً. ويقول فرويد: إن انحلال عقدة أوديب لا تتحمل الكبت، فهو يشدد على أنها تندثر كلياً، وتتطاير شظاياها في الهواء. وإذا ما حصل كبت معين فلأن العقدة الأوديبية لم تحل حلاً كاملاً. فتبقى في اللاشعور كي تظهر آثارها المرضية فيما بعد. وهكذا يتبين لنا في المخرج التالي أن تماهي الطفل بالأم يضعه في موقف سلبي تجاه الأب، فنتيجة هذا التماهي يفقد ذكره، ولكن مقابل تلقي ذكر الأب تعويضاً عنه على غرار ما يحصل للأم فهذا الموقف هو موقف إنكاري للتهديد بالخصاء من حيث إنه يحاول تجنبه عن طريق قلب الأدوار مع الاحتفاظ بالتعلق الشبقي بالأم، والتخلي عن الوظيفة الجنسية لذكره.

هذا ملخص ما قاله فرويد عن الأوديب، وعقدة الخصاء، والمرحلة القضيبية عند الطفل، فهذه العوامل الثلاثة مترابطة فيما بينها، وهي التي تميز المرحلة الجنسية عن المراحل السابقة (الشرجية والفموية). وخلافاً لما ورد عند المحللين اللاحقين بالنسبة إلى الأوديب المبكر، يؤكد فرويد أنه لا يحق لنا التكلم عن الصيغة الجنسية قبل دخول الطفل في المرحلة القضيبية؛ يعتقد بأن هنا قدرية لا يفلت المرء منها ولا بد من أن تفرض عليه الدخول في منافسة مع الأب، على غرار ما حصل لأوديب الملك قبل أن يبصر النور وتحدد مصيره مسبقاً. ولا يخفي بأن لهذا الأوديب صلة فيلوجنيتكية، تعود إلى تطور الإنسان البدائي منذ العائلة أو العشيرة الأولى. حيث كان الأب يتمتع بصلاحيات مطلقة، يملك النساء جميعاً، ويحرم على الأبناء الاستمتاع. الشيء الذي دفع هؤلاء إلى الثورة عليه، والتعاطف فيما بينهم للانقلاب عليه، وقتله(*).

ولكن حصيلة هذه الثورة كانت معاكسة لما كانوا ينتظرونه، فبدلاً من أن يستجيبوا، ويتقاسموا ما كان يحرمه الأب عليهم، امتنعوا عن هذه المكتسبات، وأصبحت تابو محرمات انطلاقاً من القانون الأول، أي الشريعة الأولى التي نصبوها مكان الأب المقتول، لكي تزيد من تحريمهم، وتكرس ذلك في قانون يخضع له كل الأبناء؛ من هذا المنطلق ربط فرويد ما بين الأديان الوثنية «الطوطم والتابو» (Totem et tabou) وما بين العقدة الأوديبية. وهو موضوع آخر تعرض لنظريات مختلفة ومتناقضة أحياناً.

(*) انظر كتاب Totem et Tabou.

نظرية لاكان في الأوديب وعقدة الخصاء

ينطلق لاكان من مسلمات بديهية لكي يتوصل إلى تصور معقد للذات اللاواعية (اللاشعورية)،وكيفية تكونها، والتعامل معها، سواء في الحقل النظري، أو في الحقل العيادي. فهذه الذات، إذا كانت المعبرة الوحيدة عن الحقيقة الكامنة في كل إنسان، يكون ابتعد كل البعد عن ديكارت الذي ركز الوجود حول الأنا الوجدانية، وعن النظريات البسيكولوجية التي جعلت من الأنا السبيل الوحيد للتعبير النفسي. وذلك انطلاقاً من اكتشاف فرويد،الذي اعتبر أن اللاشعور لا يخدعنا، ولا يقول إلا الحقيقة[1]، فالأنا قد تخدعنا عن أنفسنا، وتضللنا عن ماهية وحقيقة رغباتنا، نظراً للتماهيات المخيالية المتعددة التي تتلبسها، وتغيب عنا الرؤيا الصحيحة.

أولى هذه المسلمات: ما هي وسائل التحليل النفسي، وبماذا يتعامل المحلل مع المتحلل؟ وكيف بالإمكان فهم حصول التغيرات في البنية النفسية سواء كانت مرضية أو غير ذلك؟ الجواب عن ذلك، يقول لاكان: سهل، وبسيط، وبديهي. فالمحلل لا يملك إلا أداة واحدة لكي يتعامل مع مرضاه ويستنتج من خلالها، وهي اللغة، انطلاقاً من المبدأ الأساسي الذي اعتمده فرويد بدعوة المريض لنقل كل ما يدور في ذهنه حسب قانون التداعي الحر. فالتعامل هو لغوي فقط، والتأويل كذلك، وكل الأفكار، والتخيلات، والمشاعر، حتى الأحاسيس البدنية، هي تعابير لغوية والعارض الذي يتعاين لأجله المريض هو، في الأساس، عقدة لغوية، لأن حلها يأتي نتيجة للتأويلات التحليلية. والشيء المهم في الموضوع هو أن المريض عندما يبدأ بالكلام مع محلله يقول أكثر مما يعرف. وهذه المعرفة الإضافية تدخل حيز الإدراك عبر البنية اللغوية التي تكونه، أي من جراء سماعه لكلامه انطلاقاً من سماع الآخر له (أي المحلل).

وهنا يشير لاكان إلى أن ديناميكية التحليل تقوم على أساس العلاقة مع الآخر الكبير الذي يتجسد بوجود المحلل. وإذا أردنا أن نفهم ماهية اللاوعي(اللاشعور)، فما

(1) انظر حالة فتاة سحاقية.

علينا إلا أن نكشف عما يتحكم بعلاقة الذات بالآخر. وهي، كما يؤكد لاكان، علاقة لغوية منذ أن ارتبط الرضيع،كما بيّنا سابقاً، بطلباته من الأم. أي لا وجود لشيء ما خارج إطار اللغة، فكل التخيلات والأفكار هي تعابير لغوية يتداولها الإنسان في علاقاته مع الآخر لكي يعطي تعبيراً عن وجوده ورغباته. ولكن لهذه اللغة قوانين وقواعد لا يمكن تجاهلها أينما وجدت. الحاضر والماضي، والمستقبل، أو الأنا، والمخاطب (أي الأنا والأنت والهو)، والغائب. وهي ترتكز على عامودين: أفقي: تترابط المعاني فيما بينها بوصال مجازي. وعامودي تستخلص منه حسب الكناية. ومن هذا المنطلق وجد لاكان أن هناك تشابهاً كبيراً ما بين اللغة المتداولة واللاوعي (اللاشعور)؛ فما هو مجاز يصبح في اللاشعور تكثيفاً، وما هو كناية يصبح نقلة، وهذا ما أسهب فرويد في شرحه في كتابه تفسير الأحلام[1]. وتوصل لاكان إلى اعتبار اللاوعي (اللاشعور) «مركباً كاللغة»[*].

وليس التحليل النفسي إلا عملية لإخراج هذا اللاشعور من حيز الكبت إلى حيز الفعل عبر ديناميكية العلاقة المتمحورة حول التحويل (Transfert)، وذلك عبر تسلسل كلامي يحوي في طياته رغبات كانت إلى حد الآن في طي الكتمان، بل أكثر من ذلك، يعطي لمفهوم الذات، ولموقعية الأنا تصوراً بناءً فيه تجديد، وتحوُّلاً لصفتهما. فالإنسان لا يستطيع أن يعطي معنى لوجوده إلا عبر اللغة التي تعبر عنه، والتي تكونه. فهو تركيبة لغوية يتوخى من خلالها التعريف عن ذاته بكل رغباتها، وبالمقابل انتزاع رغبة الآخر بالاعتراف بها. وهذا ما يلخص العمل التحليلي، لأن الإنسان جاهل في أكثر الأحيان فيما يرغب، تائه في سراب التماهيات النرجسية التي تضلله نتيجة اختلاط الأمر عليه ما بين طلبه ورغبته.

غير أن الكلمات لا تتساوى فيما بينها، فهناك ما هو عابر لا يعني شيئاً بالنسبة للمتكلم، وهناك ما هو بارز يصعب قوله، ويؤدي في حال حصوله إلى مفترق تتوزع فيه معانٍ عديدة تعبِّر عن الذات نفسها. وهذا ما يميزه لاكان بتعبير «الدال»

---

(1) راجع الفصل السابع من كتاب «تفسير الأحلام»، ترجمة: مصطفى صفوان.

(*) structuré comme un langage أي اللاوعي مركب على شبيه اللغة.

(Signifiant) استعارة من علماء الألسنية. يفصله عن المدلول ـ $\frac{\text{دال}}{\text{مدلول}}$ ـ الدوالي ـ حائط لا يمكن اختراقه. بمعنى أن أي دال آخر لا يمكن أن يفي المدلول حقه من التعبير. فهذا الفارق بين الدال والمدلول مستمر دائماً رغم حلول الدوالي الأخرى، عبر السلسلة الدالة. ويعطي مثالاً على ذلك في مقالين: الأول «الرسالة المسروقة»[1]؛ والثاني[2]: وقد أوضحناها في الفصل السابق عن السفراء. فالدال بحسب تعريفه هو ممثل بالنسبة إلى المدلول... بغض النظر عن المعنى، فهو بارز ومستقل عن الجوانب الأخرى، ولا يرتبط إلا بالتعريف بالنسبة إلى دال آخر، كما هو الحال «لما يسمونه عادة السفراء »، فيقولون مثلاً: ممثل فرنسا. ماذا يفعل هؤلاء السفراء عندما يبحثون فيما بينهم؟ إن كل واحد لا يلعب دوراً بالنسبة للآخر إلا بما تقتضيه وظيفته كممثل صاف، لا يدخل في الاعتبار أي معنى خاص به. عندما يجتمع السفراء لحوار ما، فمن المفترض أن يمثلوا شيئاً ما، لا يأخذ بعين الاعتبار أية خصوصية لوجودهم، وهي بالطبيعي متقلبة، تتعدى حدود شخصه، لكي يقتصر دورهم على من يمثلوهم على فرنسا أو انكلترا أو اميركا، إلخ. هذا هو تعريف استقلالية الدال.

حتى في حوارهم فإنه من غير المسموح أن ينقل إلا ما تقتضيه وظيفته كدال صاف، فهو ليس ملتزماً بأن يأخذ بعين الاعتبار حضور الآخر، كونه رجلاً ظريفاً أم لا... وكلمة ممثل (Représentation) هي ما وردت عند فرويد، يجب أن يؤخذ بهذا المعنى. الدال يجب أن يتقيد بهذا النص، فهو بالطرف المتناقض للمعنى.

فالدال إذن هو التعبير المميز الذي يدخل في عملية الاتصال بالآخر، وهو ما يكون الذات في بنيتها. يعني أنها مركبة من سلسلة دلائل تتشابك فيما بينها، وليس لها وسيلة للتعبير إلا عن طريق الفعل اللغوي. لأن الكلام المعبر والمليء، هو الذي يأخذ صفة الفعل . هذا ما يتأكد لنا في العمل التحليلي، بالمقارنة مع الكلام الفارغ الذي لا يقدم ولا يؤخر، إنما إذا اقترب المريض من الكلام المعبر نراه يرتج في داخله ويهتز كل عضو في أحشائه، ويرتبك لسانه، حتى إذا ما تمكن من إفضائه نرى

(1) J. Lacan , Les Ecrits.

(2) J. Lacan, Séminaire II.

بعد ذلك أن ما تفوه به كان له أكبر الأثر في تغيير نوعي في بنيته، لأنه أعطى تعبيراً صادقاً عن رغبة كانت إلى الآن في حكم المكبوت.

والسؤال هنا: ما هو موقع الأنا المخاطبة، وهل تعبر فعلاً عن مكنون الذات؟ أم أنها تضللها ـ كما هو الحال عند العصابي ـ عما تصبو إليه؟ فعندما أقول مثلاً: أريد كذا وكذا، هل يعني حتماً ما أريد، أو أنني أبغي من وراء ذلك رغبة أخرى، تكون الأنا قد احتلت مكاناً في الحوار على غير علم منها لتضليل الآخر؟ فالأنا هذه لا تحتل دورها الفعلي والمليء، إلا عندما تتمكن من أن تنقل بصدق رغبة الذات. فالعلاقة بالتحليل ليست بين الأنا المخاطب التي تنقل الطلبات المموهة، وأنا المحلل؛ إنما بين الذات اللاواعية (اللاشعورية) عبر قولها، والذات اللاواعية (اللاشعورية) المفترض إدراكها عند المحلل. فهذا التخاطب لا يدخل في العلاقة شخصين فقط، كما هو مفترض، إنما أربعة لكل دوره. وهو موضوع يتطلب بحثاً خاصاً.

ورفعاً لكل التباس يجب التوضيح ما بين الأنا المخاطب، والأنا الفعلي (Ego) التي خصها علماء النفس بميزات خاصة أصبحت فيما بعد محوراً لعلم النفس الحديث.

كيف نشأت هذه الأنا، وكيف تكونت؟ هذا ما لم يشر إليه علماء النفس. واعتماد فرويد لمفهوم الأنا لم يكن إلا من باب المجاز لكي يسهل فهم نظريته النفسية(*).

فهذه الأنا ليس كما يتصور البعض عضواً يخلق مع الإنسان، ينمو، ويتطور، ثم ينضج لكي يصبح مميزاً، ومخاطباً للآخر. بل هي نتيجة تصور يتكون عبر مراحل الخبرات والصدف والأحداث التي يمر بها الطفل. فإذا أخذنا على سبيل المثال عداً حسابياً معيناً «عشرة»، فنحن بحاجة لمعرفة بداية العد الذي أوصلنا إلى هذا الرقم. فلا بد عندئذ من طرح العملية التي طرأت وبشكل أساسي لكي يتم الانتقال من الصفر إلى الواحد، ومنه إلى الثاني. أما فيما يلي فالعملية تصبح متشابهة.

فالطفل قبل أن يخلق، ينتقل من اللاوجود إلى الوجود. كان في نقطة الصفر وأصبح فيما بعد في الآحادي. لا يمكنه أن يميز الآخرين كأعداد متتالية إلا إذا تمكن من عد نفسه كواحد مميز. وهذا العد لا يتوصل إليه إلا من خلال إدراكه لنقصانه، أي ناقص واحد، وهي عملية ترميزية لوجوده. فالرمز يعني غياب الشيء.

(*) Freud 2. Cinq essais de psychanalyse.

إذن، ولكي يتمكن من ذلك، لا بد من دخول عالم الرموز الذي يسبح به منذ ولادته. فهو كائن يتنقل من كونه كتلة من لحم ودم إلى إنسان يشار إليه باسمه، ويخاطبه الآخر بكل أمنياته ورغباته، عبر الدوالي الرمزية التي يلتقطها لكي يتعامل بها في التعبير عن وجوده. فبفضل مخاطبة الآخر له، واعترافه به ينتقل من نقطة الصفر إلى العد الأحادي للتماهي الأولي، وهذا ما يفسره لاكان في مرحلة المرآة التي تعتبر أساسية في تكوين الأنا. وتتطلب إيضاحاً أكثر مما ذكرنا سابقاً.

مرحلة المرآة[1]: كيف تتكون الأنا المخاطبة؟ ومن أين مصدرها؟متى يصبح الإنسان في عداد الآخرين يحاورهم من منطلق الأنا؟ لا بد من عملية نفسية يمر بها لكي تصبح الأنا مصدر قوله وفعله. هذا ما يجيب عنه لاكان في مرحلة المرآة. أي اللقاء الأول ما بين الطفل والصورة التي تعكسها له المرآة. واللقاء له آثاره البعيدة المدى، سواء على الصعيد الجسدي أو النفسي. ويترتب عليه تحولات مستقبلية في بنائه النفسي.

فالأنا محورها الجسد، كما ورد عند فرويد، وهذا الجسد لا يمكن إدراكه إلا عبر التصور الذي تعكسه المرآة ورؤيته للآخرين أمثاله. ولهذا الاكتشاف قاعدة بيولوجية، بالإضافة إلى آثاره النفسية. فالحمامة مثلاً يقول لاكان: لا تبيض إلا عندما ترى حمامة على شاكلتها مهما كان نوعها وجنسها. وكذلك الأرامش أمثاله. الأرمش لا يتم نضوجه وينتقل من حالة الوحدة إلى الجماعة، إلا بعد رؤيته للأرامش أمثاله.

فالأنا المخاطبة لا تتكون نواتها إلا بعد مشاهدة الطفل لصورته في المرآة، فهو يتماهى بها. ويكون هذا التماهي هو الأول الذي ينقله من حالة التجزئة الجسدية التي كان يغرق بها إلى حالة التوحد والكمال الصوري للجسد. وأفضلية هذه الصورة كونها تسبق نموه ونضوجه الجسدي. فهو يحقق عبر هذه الصورة التي يلتقطها سبقاً زمنياً يحقق له حداً فاصلاً بين فوضى التجزئة التي كان يتخبط بها، واكتمال يصبو إلى الوصول إليه. هذه الصورة المتمثلة أمامه، تصبح الأنا التي يتماهى بها، أي في نفس الوقت كركيزة في داخله، يسقطها شكلاً في الخارج ويحدد مكانه في الفضاء بين معالم الأشياء التي يكتشفها، والآخرين أمثاله الذين ينافسوه. وهي تمكنه أيضاً من احتواء مخاوفه الناجمة عن إدراكه لواقعه السابق المجزأ. والدليل على ذلك هو ما يتبين لنا في الخبرة التحليلية عندما يتوصل التحليل إلى تحريك الدوافع العدوانية

(1) J. Lacan, Les Ecrits (Stade du miroir).

الذي يشير إليه باسم الغائب: وليد يريد أن يأكل، أو وليد مريض، وليد موجوع وهكذا ...

وهذه المرحلة تبدأ بالتماهي بالصورة، يشير بها إلى ذاته قبل أن ينقلها من الخارج إلى الداخل لكي تصبح الأنا المعتمدة في المخاطبة. فبدلاً من أن يقول: وليد مريض، يصبح قوله: أنا مريض. فإدراكه لهذه الصورة عبر اعتراف الآخر به، يؤدي إلى التماهي الأولي، ينقله من حالة التفتت والعجز إلى حالة التكامل والوحدة الكلية في الشكل(*).

وفي المرحلة الثالثة: بعد أن يدرك الطفل أن هذه الصورة صورته، يقوم بعملية السيطرة والتحكم بها: يداعبها، يغيبها ويحضرها حسب رغبته، وذلك ضمن شعور بالنشوة والنصر، مناقض تماماً لشعور اليأس والعجز الذي كان يسيطر عليه عندما كان في حالة التفتت. فهو يكون قد اقتحم هذه الصورة، والتقطها، وتحكم بها لكي يدمجها، ويعتمدها كمحور أولي للتعبير عن ذاته. لكن يجب أن لا يخفى علينا أن هذه العملية لا تتم إلا عبر النظر، أي عبر التصور المخيالي. فهي مرحلة يسيطر عليها الخيال من بدايتها. والأنا المتكونة تصبح مرهونة بهذا الخيال، مسلوبة به، لأنها حققت سبقاً وانتصاراً على واقع جسدي مفتت. والفارق بين الحالتين يستمر في كل تطلعاته المستقبلية، لأنها تعزز أنا مثالياً ومتكاملاً يصبو إلى تحقيقه انطلاقاً من نقص يلازمه مدى الحياة.

أولوية القضيب

يتبين لنا من مرحلة المرآة أن الطفل يتمكن من التماهي الأولي الذي يكون الأنا المخاطب، والذي يصبح وحدة قائمة بحد ذاتها، مرتكزها الجسد، فتحقق له الفصل بينه وبين الآخر، في نفس الوقت الذي يرى نفسه مرهونة به، لأن وجوده ضروري للاعتراف به، سيما وأن هذه الأنا ترتبط عبر الخيال في علاقة لغوية مع هذا الآخر في كل طلباتها.

وهذا التماهي الأولي يشكل نقطة الانطلاق لدخول المرحلة الأوديبية التي تشكل

(*) هذه المرحلة الثانية لا يمكن ان تتحقّق لو أزاحه الآخر الذي كان يتصوره لكي يحل محله. بداية علاقة الإنسان بالانا يقول لاكان انها علاقة ثنائية تتمحور حول قتل الآخر: أي صراع إما أنا وإما أنت. فهي إذن بارانويا لا يخرج منها الطفل كي يتصالح مع الآخر، قرينه، إلا بواسطة تدخل اللغة كطرف ثالث.

المنعطف الرئيسي في تحوله من إنسان مسلوب الإرادة، أسير الطلب، إلى إنسان راغب سوي في مجتمعه.

عقدة أوديب ليست أسطورة، فالإنسان يعيش تزامن الأحداث في حياته. وهي في الوقت نفسه ليست واقعاً، لأننا لم نر حتى الآن أحداثاً، تكرس هذا الواقع؛ بل هي قدر، لا بد أن يصيب كل من يصبح إنساناً وراغباً. العقدة الأوديبية هي مسيرة لاواعية (لاشعورية) تصيب الإنسان على غير علم منه. وحتى فرويد لم يكتشف عقدة الأوديب عنده إلا عن طريق استكشاف لاوعيه (لاشعوره) عبر الأحلام. هي إذا مسيرة تكون تنظيماً لمسيرة الرغبة التي تحرك الإنسان في منحاها القدري. يمر بها، ويطوي صفحتها لكي يولد آخر يختلف تماماً عما كان عليه في المرحلة الأوديبية . لها بدايتها ونهايتها، تعترض النمو الطبيعي لنشوء البشر، أي أنها تنقلهم من عالم الطبيعة حيث نشوء الحرية الكاملة لكل النزوات والشهوات والغرائز البدائية، إلى عالم الحضارة المرتكز على الكبت والتسامي بالنزوات بتحويلها عن أهدافها، وبفقدان الموضوع الجنسي الأساسي، والكف عن السعي وراء متعة جنسية إضافية. فالحضارة الإنسانية كانت ولا تزال وليدة هذا التحريم مما جعل الإنسان يفترق عن مسيرة الحيوان بالتفتيش عن سبل أخرى فكرية تحقق شيئاً مما فقده، وتعطي معنى لوجوده وللنقصان الحاصل عنده. وتمكنه من الارتقاء إلى مستوى جنسه، الذي يحدد به انتمائه.

فضل التحليل النفسي يعود إلى أنه كشف عن وجود هذه العقدة في اللاوعي (اللاشعور)، فأي خلل يطالها في تطورها لا بد أن يترك أثراً دائماً يترجم فيما بعد يسمى بالعصاب أو الانحراف. والتحليل كان يصبو منذ نشوئه إلى إعادة تصحيح هذا الخلل عبر عملية التحليل النفسي. وهذا ما كان محور اكتشافات فرويد في المرحلة الأولى .

وهذه العقدة الأوديبية كما سنرى هي مرحلة متممة للمراحل التي تكلمنا عليها، من حيث كان للنزوات دورها الأول في بزوغ الحاجة والطلب. فهي، كما قال فرويد، تنصهر، (أي النزوات) وتتخلى عن أغراضها الجزئية لتكتمل في نزوة جنسية موحدة تتمحور حول الفالوس ووظيفته. وهي ما تسمى بالمرحلة الفالوسية.

ولكن قبل أن ندخل في موضوع العقدة الأوديبية، يجب توضيح أهمية القضيب، وسبب تمحور العديد من مشتقات حياتنا النفسية والاجتماعية . فهنالك العديد من الرموز التي تشير إلى اهمية دور القضيب في أحلامنا، أو في حياتنا الاجتماعية،

انطلاقاً من التنافس على السلطة، والمال، إلى ما هنالك من طموحات مادية، وهوامات جنسية، وغيرها في مجالات عديدة بحكم الأساطير والأشكال الهندسية، والممتلكات، ووسائل القتال، والفن، والأدب، إلخ.

فمفهوم الفالوس في التحليل النفسي لا يمكن فصله عن الأب، ودوره العائلي، وموقعه الاجتماعي. فمجتمعنا هو مجتمع بطريركي، والتسلسل العائلي هو أيضاً تسلسل أبوي، حيث إن الامرأة تمحى من السجل العائلي لكي لا يبقى إلا اسم الأب.ويعود دور الأب إلى كونه يملك الموضوع الفالوسي دون غيره بالنسبة للطفل وعلاقته بالأم.

ولهذا الأب دور أساسي في تكون اللاوعي (اللاشعور)، وكما يقول لاكان، ليس مقصوراً على حضوره أو غيابه، أو هيبته وضعفه، إنما على اسمه. فاسم الأب مجاز، يشكل قاعدة في بنية السلسلة الدالة، يحوطه الكثير من الإبهام، كونه دخيلاً على علاقة الأم بالطفل، لا يدرك أهميته إلا من خلال تعريفها له. إذا ما كان هنالك شك حول الانتساب إلى الأب، فما من مرجع بيده سوى الأم[1]. فارتباط الأم بالطفل ارتباط عضوي، بيولوجي، لا يتناوله الشك أبداً[*].

إذن، ما هي أهمية الفالوس في البنية النفسية، وما هو الدور الأساسي لوظيفة اسم الأب، كونه، كما يسميه لاكان، مفترقاً بنيوياً له آثار بعيدة.

هذا ما سنأتي على شرحه انطلاقاً، كما بينا سابقاً، من اكتشافات فرويد، وصولاً إلى تأويلات لاكان لها.

المرحلة الفالوسية تشكِّل المنعطف الأساسي الذي يمهد للدخول في المرحلة الأوديبية، وتدخُّل اسم الأب وكما يسميه لاكان المجاز الأبوي (Métaphore paternelle)، يشكل بالمقابل، المدخل لعقدة الخصاء والمخرج منها في آن واحد باتجاه الارتقاء نحو تحديد جنسه، واعترافه بالجنس الآخر، ثم الزواج، والإنجاب، والتماهي بأبويته.

فحصيلة هذه العملية هي الخروج من المرحلة الأوديبية، واغلاق ملفها نهائياً إذا ما تمت بنجاح. أي كما يقول فرويد، عن الباخرة التي تغرق يبتلعها البحر مع كل محتوياتها، ولا يبقى شيء منها على سطح الماء. أي أن ما يحصل يندثر في حقل

---

(1) وحتى العلم البيولوجي الحديث غير قادر بشكل حاسم.

(*) إذا تناوب الانسان الشك يمكن ان يصنف باتجاه الأب، أمّا اليقين فهو دائماً إلى جانب الام.

اللاوعي (اللاشعور)، ويصبح في حكم التحول إلى تمثلات أخرى كالأنا الأعلى، ومثال الأنا والأنا المثالي، إلخ.

الفالوس يأخذ أهميته من أسباب بيولوجية من ناحية، ومن موقعه النفسي في العلاقة بالآخرين من ناحية ثانية. اكتشاف الطفل لذكره يأتي عبر الأحاسيس العصبية المتجمعة به، والتي تشعره إذا ما توصل إلى مرحلة النضوج، بلذة تفوق كل الملذات التي عرفها من المناطق الشبقية الأخرى. وهذا ما سماه فرويد بالعادة السرية الأولى[1]. ويكتسب عضو الذكر أهمية إضافية، من الموقع العلائقي مع الأم والأب والآخرين. فهو مميز لكونه طفلاً ذكراً، بصورة خاصة بالنسبة للأم. ويتولد عنده شعور بأن الاهتمام به، ناتج عن امتلاكه للعضو الذي يولد له أكبر الملذات. على غرار الثدي الذي يعتبر اهتمام الناس به ناجماً عما يملك من ثروة كبيرة. ويعمم الطفل، كما أوردنا سابقاً وجود هذا العضو على كل المخلوقات، فتحول الليبيدو عنده إليه، والاستثمار النرجسي الذي يوظفه، يقنعانه بما لا يملك الشك، بأنه لا يمكن أن يكون ناقصاً عند الغير.

الشيء نفسه صحيح بالنسبة للفتاة، فهي توظف بظرها اقتصادياً، ونرجسياً بالقيمة ذاتها. فمن هذا المنطلق قال فرويد: بأنه لا يوجد إلا ليبيدو فالوسية سواء بالنسبة للفتاة أو بالنسبة للفتى، والتمايز فيما يجعل الفتى يأخذ صفة الذكر، ويتماهى بجنسه، والفتاة صفة الأنثى، ولا يحصل إلا بعد المرور بعقدة الخصاء . ففي المرحلة الفالوسية لا يوجد ذكر وأنثى، فكلاهما يرضخان لأفضلية الفالوس وأسبقيته. وترجيح فرويد لهذا الموضوع وتعميمه، لم يتراجع عنه طيلة حياته. رغم كل الضغوطات والانتقادات والنظريات المغايرة التي تعرض لها من قبل تلامذته، وعلى رأسهم أرنست جونس. ويؤكد لاكان ذلك في قوله[2] «هذه الأرجحية لم يتراجع عنها فرويد أبداً .... يبقى الموضوع الفالوسي نتاجه الفكري، بالنسبة للاقتصاد الليبيدي، في موقع محوري، سواء للإمرأة أو للرجل. نجد انها بالفعل حالة أساسية، مميزة لكل ما تقدم به فرويد، وأصر عليه في نظرياته. فأرجحية الفالوس بقيت محورية دون أي تغيير،

(1) باعتبار أن ما يحصل في سن البلوغ ليس إلا العادة السرية الثانية، بعد أن تكون قد طويت في طي النسيان أو الكبت. ولكن الهوام الذي كان يحركها يستمر في المرحلة الثانية على غير علم منه.

(2) J. Lacan, Séminaire III, p. 351.

رغم كل التطورات التي حصلت لاحقاً في نظريته لكل المراحل المخططة للحياة النفسية».

فهذه النظرية[1] لم يتقبلها جونس، وبقيت موضع لغط في أوساط بعض المحللين. فهو يقول: إن الإنسان خلق رجلاً وإمرأة، وإن المرحلة الفالوسية ليست إلا موقعاً دفاعياً بمثابة العارض يعتمده الطفل في غياب إدراكه اللاواعي (اللاشعوري) لواقعه الجنسي. وتنطبق هذه النظرية بصورة خاصة على الطفلة. أما بالنسبة لعقدة الخصاء فقد اعتمد كلمة من مصدر يوناني (Aphanisis)، وهي تعني «زوال الرغبة الجنسية». وهذا الخوف من غياب الرغبة يتعدى في مفهومه الخوف الذي ينتاب الطفل من فقدان عضوه الذكري، سيما بالنسبة للفتاة، لأنه لا يوجد ما يبرر خوفها إذا كانت تعلم مسبقاً بأنها محرومة سلفاً من هذا العضو . وهذا بالإضافة إلى وجود العديد من الرجال الذين يلغون بشكل نهائي وظيفة عضوهم دون أن يلغوا رغباتهم الجنسية. فالخوف لا ينجم إذاً من فقدان الذكر، ولكن من فقدان الرغبة الجنسية عبر ذاتها. سنأتي على توضيح هذه المسألة عندما نتعرض لموضوع الأنوثة.

يجيب لاكان، بأن هذه المفاهيم الخاطئة ناجمة عن عدم فهم جونس لأبعاد النظرية الفرويدية لموضوع الفالوس. فالخوف من فقدان الرغبة الجنسية (Aphanisis) التي اعتمدها كمحور أساسي لتأويل عقدة الخصاء، ناجمة بالفعل عن اختلاط في التمييز ما بين الذكر (Pénis) والفالوس (Phallus). معالجته للموضوع أتت عن جهل بطبيعة الفالوس، ووظيفته، التي عممها فرويد على الذكر والأنثى. وجونس يرفض أرجحية الفالوس عند الأنثى، ولا يعتبرها محركة لعقدة الخصاء. ما تخشاه الفتاة ليس فقدان القضيب، إنما الخطر الذي يهددها في انفصالها عن موضوع الحب. وينتهي به الاستنتاج إلى القول بأن التطور الليبيدي يتمحور ليس حول الفالوس، كما يقول فرويد، إنما حول الـ (Aphanisis)، وهذا يعمم بالسواء على الرجل والمرأة.

ما خفي عن جونس، يقول لاكان، هو مرجعية الموضوع الفالوسي. لأن هذه المرجعية في عقدة الخصاء لا تمر عبر العضو الذكوري، إنما تعود إلى موقع الأب كوسيط بين الطفل وأمه، وبين الأم والطفل. فهو قد خفي عن أهمية نقصان الموضوع بسبب اختلاط الأمر عليه في التمييز ما بين الحرمان والخصاء. الطفل يدرك بأن الأم

(1) E. Jones, Œuvre complètes.

محرومة من الذكر، وهذا يمنعها من أن تتصرف كما لو كانت تملكه، (أي كما يقال في التعريف التحليلي بالأم الفالوسية). اختلاط الأمر على جونس جعله يحصر موضوع الخصاء في نظرية الحرمان دون الأخذ بعين الاعتبار مفهوم النقصان في العلاقة الفكرية التي تربط الأم بالطفل والتي يتوسطها الأب كمرجع أساسي.

يقول لاكان[10] موضحاً: «لا يمكن اختصار هذه العناصر بسهولة وبساطة كونها مخيالية فقط. فما نجده في الخيال تحت شعار الأم الفالوسية ليس متجانساً، تعرفون جميعاً، ان عقدة الخصاء متواجدة في الحالة الثلاثية للأوديب. هذه الحالة لم يحصل لها التوضيح الكامل من قبل فرويد. لكن بفضل فعل استمرارها الدائم، فهي قابلة لتوضيح لا يمكن بلوغه إلا إذا اعترفنا بأن الطرف الثالث المحوري بالنسبة إلى فرويد، والذي هو الأب، يمثل عضواً دالاً غير قابل للاختزال تجاه أي نوع من الخيال المشروط».

هناك فارق كبير ما بين الذكر والفالوس. فإذا كان الأول يشير إلى عضو تشريحي، فإن الثاني لا يعني إلا رمزه. فالقضيب هو عنصر دال. والموضوع الفالوسي قبل كل شيء هو موضوع من حيث إن طبيعته تكمن بكونه عنصراً دالاً يميز الحالة الأوديبية.

أولوية القضيب بقيت سائدة في كتابات فرويد، منذ أن لمَّح إليها في كتابه«ثلاث مقالات حول النظرية الجنسية» وأتبعها فيما بعد في مقاله «التنظيم التناسلي الطفلي»1923 . ففي هذا المقال أكد بأن «الصفة الأساسية لهذا التنظيم التناسلي عند الطفل في الوقت نفسه،التي تميز التنظيم الجنسي النهائي عند الراشد. حصيلة كل ذلك بالنسبة للجنسين،هو أن عضو الذكر فقط هو الذي يلعب دوراً أساسياً، فلا يوجد أولوية للتناسل إنما هذه الأولوية تعود إلى أفضلية الفالوس»[11].

هذه الأفضلية تستمد أهميتها من التباين الجنسي التشريحي، وما يحصل من نتائج بالغة الأهمية على صعيد خيال الطفل. الطفل يدرك نقصان الذكر عند الجنس الآخر، ولكن العملية تتعدى عملية المشاهدة والإدراك إلى عملية فكر يلعب فيها المتخيَّل الدور الأساسي. يقول فرويد: «عندما يفهم نقصان الذكر بأنه ناجم عن الخصاء، حينئذ يجد الطفل نفسه أمام مواجهة تهديد الخصاء في شخصه، كون التطورات

---

(1) J. Lacan, Les Ecrits, signification de phallus.

(2) التنظيم التناسلي الطفلي ـ فرويد، 1923.

المتتالية المعروفة تغنينا عن إعادة سردها. نتقدم بالقول فقط بأنه لا يمكن إعطاء الخصاء حقه من التعبير إلا بشرط إدخال أولوية الفالوس في الحساب».

يتبين لنا من قوله هذا، أن أولوية الفالوس تتعدى بمفهومها الحدود المرسومة في التباين التشريحي بين الجنسين. فالنقصان يدخل مفهوم الفالوس من باب المتخيل الذي يؤدي بالضرورة إلى ترميزه من خلال علاقته بالآخر كونه موضع هذا النقصان. أي أنه ينتقل من ملاحظة وجود هذا النقصان عند الجنس الآخر إلى مفهوم مخيالي يعمم على مجمل العلاقة. من هذا المنطلق تتحول الملاحظة التشريحية للفارق الجنسي إلى عملية نقصان لموضوع ما، يتناولها المخيال، لكي يمحورها حول الفالوس كموضوع أساسي لعملية الخصاء، وينقله من الداخل إلى الخارج على أن الخصاء هو تهديد يأتي من الخارج. كذلك الفتاة التي كانت تعتقد بأنها تملك القضيب، ينتابها خيال أن الآخر (الأم) التي تشكو من النقصان تعتبر أن الأب هو المسبب الأساسي في انتزاعه منها. كما أن الطفل الذكر يخيل إليه بأن الفتاة كانت تملك القضيب، ولكن لسبب ما انتزع منها بواسطة تدخل خارجي. ويتبين لنا هنا كيفية تكون الهوام انطلاقاً من هذا المعتقد المخيالي. ولكن مسألة تأصل الفالوس في المخيال تبقى مرهونة بعملية رمزية تتبعها نتيجة تدخل المجاز الأبوي. كونه يحمل في طياته ما يرمز إليه المخيال من نقصان سواء بالنسبة للفتاة، أو بالنسبة للفتى. ويصبح بالنتيجة المدخل مشروعاً للمرحلة الأوديبية.

المجاز الأبوي، بنظر لاكان، مرتبط ارتباطاً بنيوياً بالمرحلة الأوديبية، حيث يمثل المدخل والحل المرتجى في آن واحد. والتعبير الذي يعطيه للعقدة الأوديبية يصر على اعتباره متمماً لما ورد عند فرويد في تحليله المنطقي. من حيث إن هذا «الاستيلاء الخيالي» ينعقد مع المجال الرمزي الذي يخرجه من حقل الخيال إلى عالم الرمز عبر العلاقة الثلاثية. فنحن من دون تدخل المخيال والرمز، لا يمكن أن نفهم حقيقة طبيعة أولوية الفالوس والعقدة الأوديبية. واللغط الحاصل حول هذا الموضوع عند بعض المحللين، كان نتيجة اختلاط الأمر عليهم بين دور المخيال ودور الترميز في تحديد موقعية الفالوس في العلاقة الثلاثية.

الفالوس هو مفهوم له طبيعته ووظيفته، وكما يقول لاكان[1] لا يمكن اعتباره

(1) Ibid.

هواماً، لأنه لا يقتصر على حدود المتخيل، وليس كما اعتقده البعض موضوعاً جزئياً داخلياً سيئاً أو جيداً حسب نظرية أبراهام أوميلاني كلاين، ليس هو بظر الفتاة أو ذكر الفتى، رغم أنه يرمز إليهما. لأن الفالوس حسب تعريفه هو «دال من حيث إن الوظيفة الملزمة به في اقتصادية الذات الداخلية في التحليل، يمكن أن ترفع القناع عن خفايا الأسرار التي يحويها؛ لأن الدال مخصص للكشف عن مجمل تفاعلات المدلول كون الدال يحددها بحكم وجوده كدال".

فالدال القضيبي، كما سنرى هو محور بالنسبة لرغبة الآخر وتنفصل عنه عندما يتحقق له الإكفاء. فالرغبة هي ما بعد هذا الاكفاء، كون الرغبة دالاً لنقصان لا يمكن تحقيقه أو إشباعه فهي شرط مطلق لوضع حد للطلب. ويقول لاكان[1]: «هكذا فالرغبة ليست إشباع شهوة الحاجة في الإكفاء، ولا طلب الحب، ولكن الفارق الناجم من طرح الأولى للثانية، والتي تؤدي إلى ظاهرة الانشقاق نفسها». ويتضح لنا من خلال ذلك أن الدال الفالوسي يتحكم في العلاقة الجنسية لكونه محور طلب كل الأطراف باتجاه الآخر الكبير. ويلوح محورها في الأفق بقناع براق يجذب الطرفين معاً، ويتهيأ لكل واحد منهما أنه هو المحبوب لما هو عليه، غير أن هذا القناع البراق لا يخفي في الواقع إلا نقصاناً يطال الآخر الكبير نفسه. وإذا كان الطلب يدفع الرغبة في هذا الاتجاه، إلا أنه يتوقف عند طلب الحب. أما الرغبة فهي رغبة قضيبية يشير إليها الدال كناية عن نقصان وجود.

والسؤال الذي يطرح نفسه، كيف أن هذا الدال الفالوسي الذي يكتسب هذه الأرجحية في إعطاء الحق للرغبة،تصبح له الأولوية في تأسيس الرغبة، وفي انشقاق الذات على نفسها ما بين دال ومدلول؟ هذا ما لا نفهمه إلا عبر تدخل المجاز الأبوي.

المجاز الأبوي

لماذا المجاز الأبوي؟ تتكون العلاقة بين الطفل والأم، كما ذكرنا سابقاً، على قاعدة تبادل المراسيل. فالطفل يتلقى العناية الكاملة من الأم من إكفاء حاجته، ولكن ما بعد هذا الإكفاء فطلبه هو طلب حب كما ذكرنا . وبالمقابل يتلقى الطفل مرسالاً

---

(1) Signification de phallus.

من الأم، يؤوله بأن إكفاءه ينجم عن الاكتمال الحاصل عنده، كونه يؤدي غايته في تكامل هذه العلاقة، بحيث إن الأول يملأ نقصان الآخر. من هذه القاعدة يدخل الأب كعنصر ثالث، ليقلب المفاهيم، ويحول العلاقة بين الطفل والأم من ثنائية إلى ثلاثية. له دوره وتأثير على مسار نمو الطفل، وإدخاله في المرحلة الأوديبية. ودور هذا الأب لا يقتصر على وجوده، إذ من الممكن أن تحصل حالة الأوديب في حال غيابه، كما أن العكس صحيح. فوجود أب متشدد، وصارم، ومانع لكل شيء، قد يؤدي إلى إلغائه بحكم النفي الحاصل لوجوده، نظراً لانعدام اعترافه برغبة الطفل وباستقطاب الأم نحوه . وهذا ما يحصل في حالة الذهان.

يستنتج من هذه المقدمة أن العمل المؤثر في هذه المرحلة ليس وجود الأب أو غيابه الفعلي، إنما اسم الأب ووزنه في العلاقة مع الأم وعبرها بالنسبة للطفل. فغيابه في رغبة الأم يؤدي إلى إلغاء دوره، وبالنتيجة إلى عدم اكتمال المرحلة الأوديبية. أما حضوره فيخلق بالضرورة طرفاً ثالثاً في العلاقة، يصبح مرجعاً للطفل يستطلع منه مخرجاً بعد أن يضع حداً للعلاقة الثنائية. فمن هذا المنطلق عني لاكان[1] باسم الأب المجازي، كونه دالاً مرجعياً استبدالياً يشكل المفترق الذي تتوزع منه الدلالات الأخر في تكون الذات، وخروجها من حالة الاستلاب إلى حالة الارتغاب. هذا ما سنأتي على شرحه في المراحل الثلاثية التي تمهد المدخول في المرحلة الأوديبية وما ينتج عنها من عقدة الخصاء المؤسسة للرغبة انطلاقاً من تماهي الطفل بجنسه، وبزوغ الذات إلى عالم الوجود.

المرحلة الأولى: يخرج الطفل قبل الولادة من اللاوجود إلى عالم الوجود. وهذا ما عنيناه سابقاً بنقطة الصفر. أي من الموت إلى الحياة. والقدر يحتم أن ساعة الميلاد هي بداية العد العكسي نحو نقطة الصفر: البداية، عبر الحياة التي يفتش عبثاً عن معناها وغايتها ولا يكتشف في آخر المطاف أن نهايتها حتمية الموت حق قدر له منذ ولادته على غير علم منه.

وهو منذ ولادته ما فتىء يتعلق بموضوع حتى يفقده، ويفتش عن بديل عنه، ويتضح له في كل المراحل التي يمر بها بأن الموضوع البديل لا يحل مكان الموضوع المفقود، والفارق المتبقي بين الأول والثاني، هو البقية المتبقية التي تدفعه إلى

(1) J. Lacan, Séminaire III, La psychose, Seuil.

مسلك يقود إلى إنكار جنسه، بالتخنث (أي التماهي بالقضيب يتخفى وراء الألبسة النسائية).

ولكي نوضح هذه المرحلة الأولى من البنية النفسية، نجسدها بالرسم التالي:

المرحلة الأولى: العلاقة ما بين الأم ورغبتها اللاشعورية بالقضيب قبل ولادة الطفل:

الأم ـ ـ ـ ـ ـ الفالوس(نقصان) (البنية الحضارية المغايرة للخط الطبيعي).

الخط المتقطع يعني العلاقة اللاواعية (اللاشعورية) برغبتها بالقضيب.

بعد الولادة يتساءل الطفل: ما هي رغبة الأم، ما وراء حبها له، وعنايتها به؟ تصبح هذه العلاقة ثلاثية: الطفل الفالوس الأم

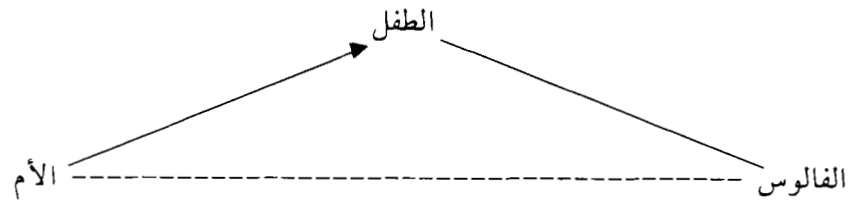

الطفل يتماهى برغبة الأم ـ والقضيب بموقع المنافس الذي يحاول عبثاً احتواءه عن طريق التماهي به.

المرحلة الثانية: الطفل يدرك بأن هذا الموضوع الذي تصبو إليه الأم يتعدى شخصه وحبها له. وأنه في حوزة طرف آخر، الأب، ومهما حاول أن يجذبها إليه فهو غير قادر على بلوغ اكتماله به. وهنا يدخل الأب بدوره الفعال الحاسم في اتجاهين: على صعيد الأم يحرمها من استكمال موضوع نقصها عبر الطفل، على اعتبار أن مرجعية رغبتها تعود إليه كونه الوحيد الذي يملك القضيب. وعلى صعيد الطفل يحرمه من موضوع رغبته، لأن توجهه إلى الأم كان نتيجة خطأ في تصوره. ولكي يخرج الطفل من هذا المأزق يحول توجهه من الأم إلى الأب. وهنا يكون مرسال الأب الموجه للطرفين معاً: حسب ما شدد عليه لاكان.

ـ إلى الطفل: أمك محرمة عليك ويستحيل عليك مضاجعتها.

ـ إلى الأم: مستحيل عليك إستعادة ابنك إلى أحشائك. تصبح العلاقة كالآتي:

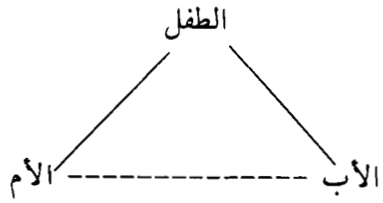

في هذا التحول يواجه الطفل لأول مرة قانون الأب (الآخر الكبير) في فرض سيطرته على رغبة الآخر (الأم).

وإذا ما رفض الطفل حرمان الأب للأم من القضيب، عندئذ يدخل في منافسة مع الغريم (أي الفالوس). وتطرح أمامه مسألة (To be or not to be) أن يكون الفالوس أو لا يكون. والجواب يأتيه من الأم بالتسليم، أو عدم التسليم، بقانون هذا الآخر، كونه موضع رغبتها أم لا. في هذه الحالة يكون الطفل قد دخل فعلاً مرحلة الأوديب.

المرحلة الثالثة: إذا ما تمت بشكلها الطبيعي، تكون قد حققت انحلال العقدة الأوديبية. تدخل الأب يبقى مشروطاً لكي يصبح فعالاً، بامتلاكه لموضوع الرغبة (الفالوس) ؛ فيتكرس بهذا الشرط التوجه نحو الزوجة، كونه يملك ما تصبو إليه. ووظيفته هنا تتعدى دور حرمانها من القضيب، كما هو الحال بالنسبة للأب المتسلط، إلى الوعد بإسعادها والحصول عليه. من هذا المنطلق يصبح الأب متميزاً عند الأم، ونقطة التحول في آن معاً بالنسبة إلى الطفل. كذلك الفتاة تتوجه إليه بغية الحصول على القضيب بعد خيبة أملها من الأم، والفتى يتوجه إليه بعد أن يكون قد رضخ لقانونه، فيتماهى به كي يصبح هذا التماهي منطلقاً لبزوغ مثال الأنا المتجسد بالأب وطموحاته.

هذه المرحلة تؤدي في النهاية إلى ولادة الذات اللاواعية، حيث أن عملية الأوديب تحصل على غير علم من صاحبها، كما هو الحال بالنسبة إلى أوديب الملك، الذي حدثتنا عنه الأسطورة ويمكن ترجمة ذلك بالتنظيم الأتي:

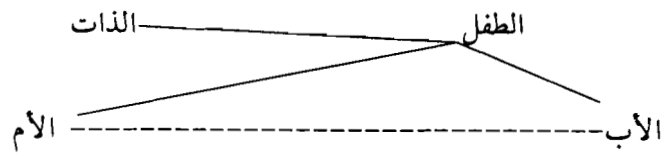

من هذا التنظيم المتمحور حول قانون الأب، واستجابة الأم له، استخلص لاكان (schéma)[*] التي من خلالها أوضح كيف يتكون اللاوعي (اللاشعور) بتبدل الأدوار الخارجية إلى تنظيم يخطط بنية الرغبة ضمن رموز ثابتة مهما كانت المواضيع التي تحل مكانها[1].

ويصبح، بمفعولها، القانون مؤسساً للرغبة، والعكس صحيح؛ وهو قانون داخلي يمكن الطفل من أن يصبح إنساناً راغباً، تتمهد له الطريق ليكون خلية عائلية تحت قانون العرف الاجتماعي المتمم له. وهذه العملية لا تستكمل إلا بفعل عقدة الخصاء.

عقدة الخصاء عند لاكان

إذا كان لعقدة الخصاء أهمية في تكوُّن الذات فإن ذلك يعود لعاملين أساسيين:

الموروث الأول: موقع الأب الاجتماعي، ودوره الموروث في التسلسل العائلي، من حيث إن المجاز الملتزم باسمه هو السائد في مجتمع أبوي للتعريف عن الفرد بالنسبة إلى المجموعة التي يتعايش معها. واسم الأب يحدد قانوناً يلتزم به على السواء كل من الذكر والأنثى في تناسلهما، سواء في خيارهما الجنسي ضمن عقد الزواج، أو بالالتزام المتوارث بالنسبة للتناسل الذي يتبعهما. وهذا القانون يعتمد بالدرجة الأولى على تحريم للإثم الأساسي في العلاقة الجنسية. أي أن الأم محرمة على السواء بالنسبة للفتى أو للفتاة. انطلاقاً من هذا التحريم تتوطد العلاقات الاجتماعية، والمصالح المتبادلة ضمن قانون سوي متعارف عليه دون أن يأتي الذكر عليه[**]؛ ودين يقترن به كل من يشهد النور على غير علم منه.

والثاني: هو الفالوس، كونه رمزاً يتعدى مفهوم العضو، ليشمل كل ما يرمز إليه من اشتهاء جنسي، أو سلطة، أو مال، أو أي موضوع آخر. ليضع حداً لمتعة مطلقة غير مشروطة. فالاستباحة تصبح تعدياً على عرف داخلي، ينظم تكوين الرغبة، ويدفعها في كل تحولاتها، انطلاقاً من استحالة العلاقة الجنسية المحرمة. الفالوس هو الموضوع الذي يستحوذ في لمعانه وبريقه الأنظار، ويؤسس الرغبة في تجاذب الأنثى

(*) schéma «l» سنأتي على شرحها فيما بعد.

(1) سنأتي على شرحها في فصل لاحق.

(**) يعتبر فرويد أن عقدة الخصاء إن لم يأت الذكر عليها في تاريخ الطفل فهي دائماً فعالة في الخلية العائلية الثلاثية، لأنها متوارثة وتتناقل عبر الاجيال. يستنتجها الطفل عبر محرمات الاب والقانون الذي يفرضه.

نحو الذكر، والذكر نحو الأنثى، ولكن في إطار نقصانه عند الفريقين، دون أن يتمكن أي منهما أن يجد البديل عنه في أي دال يستنبطه للتعبير عن ذاته.

عقدة الخصاء كانت في البداية توهماً خيالياً تطال الطفل في تطلعاته الجنسية، إلا انها، كما يقول لاكان،[1] ليست واقعية، ولكنها مرتبطة بالرغبة، ولا تقتصر إلا على العضو. وهذا يعني ان الرغبة تجتاز، من حسن الحظ، بعض المراحل، حيث إن القضيب يجب ان يدافع بالآتي: لا يمكن بقاؤه والحفاظ عليه، إلا بمقدار اجتيازه للتهديد بالخصاء.

ويبدو هنا أن لهذه الدمغة دوراً أساسياً في تكوين الرغبة، يتعدى كل التنظيرات حول مفاهيم الخصاء. فهذه الدمغة نجدها في كل مرحلة من مراحل نمو الفرد، سواء الختان، أو في سن المراهقة، أو في الطقوس المتبعة حسب تقاليد الشعوب وعاداتها. فهي دمغة تترك آثارها في كل مرحلة، لكي يحصد الإنسان، فيما بعد، نتائجها عبر تنظيم علاقاته الاجتماعية، والدين المترتب عليه سواء في كونه إبناً، أو اذا اصبح أباً فيما بعد تجاه أبنائه. وإذا كان للأب دوره الأساسي، كعامل في مسار الخصاء، إلا أن هذه العملية لا تتم إلا على صعيد الأم. وهذا يعود بالدرجة الأولى إلى دور القضيب كنقصان أول في حياة الأم تتمحور حوله رغبتها . فالفالوس صيغة مخيالية، يكتسب أهمية موضوعه من هذا النقصان بالذات. وهي نقطة التقاطع ما بين رغبة الأم ورغبة الطفل. وهذا ما سنأتي على شرحه في المراحل الثلاثية التي يجتازها الطفل، قبل أن يخرج منها كي يتعرف على جنسه أنثى كان أو ذكراً. المرحلة الأولى: تتميز بالتساؤل المبهم عند الطفل عن رغبة الأم. ويدرك بالضرورة سواء في تصرفاتها، أو من مدلول كلامها، أن موضوع رغبتها يتعدى الإكفاء الذي يمنحها إياه من خلال وجوده. وهذا الموضوع يأخذ بعداً مخيالياً كدال يمثل إطاراً لمثال فالوسي ينبع من نقصان أساسي يمكن أن يحقق إكفاءها. وهذه الرغبة تأخذ شكل الدال ككناية يتلقاها الطفل عبر المراسيل اللغوية التي يؤولها بحسب مدلولها غير المعلن. وأمام هذا الإدراك ليس عليه إلا أن يتماهى بموضوع رغبتها، ويحل مكانه، لكي يبلغ قمة الإكتفاء من إكتفاء الأم به.

---

(1) J. Lacan, Formation de L'inconscient, séminaire inédit.

فمن هذا المنطلق توصل لاكان إلى الاستنتاج بأن رغبة الطفل هي رغبة الأم(*). نشهد في هذه المرحلة أن أنا الطفل هي أنا تكرارية لمقولة الأم، أي أنه ملزم بها، ومتقيد بما تقوله، وبما تتمناه. فهي أنا مرتهن بموضوع رغبتها، وتحل مكانه، لكي تبلغ قمة الإكتفاء من إكتفاء الأم به. فهي أنا مرتهنة بموضوع كنايتها، يفقد خلالها الطفل كل عفوية لأنه أسير هذا التماهي بموضوع رغبتها، واستمراره في هذا المنحى يغيب عنه إدراكه لذاته، ويقيده بإرادة تسيره على غير علم منه، كما أنه يحد من نموه الذهني. وهذا ما يتبيّن على الصعيد العيادي، عند الأطفال المتخلفين نفسياً، والذهان المبكر. وهو بالضرورة مشروط بتطابق رغبة الأم على التماهي الطفلي بها. من حيث إن الإكفاء يصبح متبادلاً بين الطرفين. تدخل الأب يضع حداً لهذه العملية لكي يخرج الطفل من اللاذات إلى الذات. وهو ما ينقلنا إلى المرحلة الثانية.

المرحلة الثانية: في هذه المرحلة يتدخل الأب كمشرع ومحرم. وانطلاقاً من مكانته في نفسية الأم، والأهمية التي يكتسبها في نظر الطفل. يقتصر دوره على التصدي، والحزم تجاه الدوافع المحرمة. لكن لكي يبقى دوره فعالاً يجب أن يكون وقع كلامه مسموعاً من الأم، فيصبح مرسالاً داعماً لدورها. والطفل في هذه الحال يدرك عجزه وضآلة دوره، وأنه أصغر من أن يتماهى بموضوع رغبة الأم، لأن هذا الموضوع يتعداه امتلاك الفالوس؛ الشيء الذي لا يستطيع أن يحققه لها بمجرد التماهي به. لأن هذا الفالوس، موضوع متعة الأم، هو بحوزة الأب فعلياً. مهما حاول أن يمنحها فإنه يبقى مقصراً عما يمكن أن يمنحها إياه الأب(**). في هذه الحالة تتطور العلاقة الثلاثية. فبدل أن تكون المنافسة محصورة بالفالوس، تصبح المنافسة موجهة إلى مالك الفالوس (أي الأب) أو أي رجل آخر.

انطلاقاً من هذا التحريم في اتجاهين، كما ذكرنا سابقاً، يتزعزع موقف الطفل من رغبة الأم، ويدرك أن هذه الأخيرة تصبو إلى ما بعد الطفل، إلى الحصول على رضى الأب لأنه محط اهتمامها ومصدر متعتها. وهكذا يخرج الطفل من واقع اللاذات إلى موقع الذات باتجاه الأب.

(*) المعادلة التي بناها لاكان: هي أن الرغبة هي رغبة الآخر الكبير.

(**) سيما أن الطفل يشعر بعجزه لمعادلة الأب، سواء بصغر قامته أو إدراكه لصغر قضيبه.

المرحلة الثالثة: وهي المرحلة التي تتميز بتغير دور الأب، فبدلاً من أن يكون محرِّماً ورادعاً، يصبح عطوفاً متسامحاً ومعطاء. فأمام ما يتعرض له الطفل، كما ورد عند فرويد، ما بين الحفاظ على قضيبه، أو الحفاظ على رغبته المحرمة لأمه، يتوجه الطفل نحو الخيار الأول أي الحفاظ على قضيبه، والتخلي عن موضوع رغبة الام مما يكسبه رضى الأب، والعيش بوئام معه. لذلك يسقط موضوع التنافس وتصبح وحدة الحال تدعوه إلى التماهي به، على أمل أن يقع خياره مستقبلاً على امرأة غير أمه، تسعده، وتشاركه المتعة الجنسية.

ويقول لاكان: إن هذا التماهي ليس شاملاً، بل يقتصر على ميزة من ميزات الأب، التي تصبح بمثابة الخصلة الموحدة بينهما، والنواة المكونة لمثال الأنا.

لنفتح الآن، بعد هذا العرض، صفحة على الحقل العيادي، لنرى كيف أن هذه النظرية هي المحور الأساسي الذي يدور حوله كل علاج بالتحليل النفسي. النظرية هي ترجمة للنتاج العيادي، وليس العكس، فخلافاً لما هو الواقع العملي في حقل علم الفيزياء، والكيمياء والرياضيات (حيث إن العالم ينطلق من معرفة علمية مسبقة لكي يجري تطبيقها على الأرض)، فالتحليل النفسي ينطلق من العكس، من خبرة داخلية لمس خلالها المحلل عبر تجربته الخاصة، هو رغبته التي تخوله بحق خوض زمام العمل التحليلي مع طالب العلاج، انطلاقاً من أن أية معرفة مسبقة، كما هو الحال بالنسبة للعالم، لا تخدم في تذليل المقاومة وليس له سوى انفتاحه على مقولة اللاوعي (اللاشعور) الذي يمهد الطرق للاشعور الطرف الآخر كي يدلي بدلوه عما كان مجهولاً حتى الآن. وهذا يؤدي حكماً إلى طرح عقدة أوديب والخصاء عبر التحويل الحاصل على المحلل، أي لا بد من استقراء ذاتي عبر الخطاب.

نعود فنستعين بمقالة مصطفى صفوان، حول البنيوية في التحليل النفسي[1]، لأنه يستعرض في القسم الثاني، المخصص لموضوع الخصاء، ارتباط الإنسان بموضوع الأم، فهي محرمة، كما يقول فرويد. والعلاقة هي علاقة موضوعية تعتمد بالدرجة الأولى على تحريم موضوع الأم كرغبة لاواعية(لاشعورية) تطال كل من أخضع نفسه لعملية التحليل، إذا كان العمل التحليلي يقتضي إخراج ما كان لاواعياً إلى حيز الوعي بالنسبة لهذه الرغبة المحرمة. فما حالنا أمام الأشخاص الذين يعبرون عن رغبتهم

(1) Qu'est-ce que le structuralisme? p. 263, Ed. Seuil.

المحرمة بشكل واع؟ فهل يعني ذلك أن طريقة تحليلهم مختزلة؟ يجيب صفوان بأن الواقع التحليلي يبين، خلافاً لما ننتظر، أن مقاومة المتحلل المفترض هي تعزيز الحواجز بينه وبين موضوعه المحرم، وإبعاده حتى فقدانه. ويتبين من خلال العمل التحليلي أن الخوف ينتاب المتحلّل كلما شعر بأن هذه الحواجز تنهار، وأن المسافة التي تفصله عن موضوعه المحرم أصبحت مهددة بالزوال؛ وهذا ما يترجم عملياً بالكف عن الكلام، فهو لا يتحمل هذا الشلل، لأن رغبته كإنسان، تكمن في كونه متكلماً لا يتوقف عن الطلب. وإبعاد موضوعه عن إكفاء طلبه، هو طلب مزدوج يتعدى الأول لكي يصبح الكلام دالاً ليس عن وجود إنما عن نقصان لوجود، كمنطلق أساسي لكل انسان راغب . وخير شاهد على ذلك، العوائق التي يصطنعها لكي تحول بينه وبين موضوعه، سواء الحب العذري، حتى الاغنية العربية في كل توجهاتها تشير إلى غياب المحبوب، واستحالة الوصول إليه، كشرط أساسي لموضوع الحب نفسه. لأن النقصان هو أساسي في تكوين الرغبة. فالحرمان من الأم ومن كل المواضيع التي كان يتعلق بها الإنسان في طفولته،لا تولد الخوف، بل مفاجأته بأنها أصبحت على همة احتمال امتلاكها، هو الذي يولد عنده الخوف. وهذا ما يعبر عنه لاكان بأن الخوف يكمن عند المنعطف الذي يشعر به الشخص بأن «النقصان بدأ ينقصه». ويقول صفوان[1] «بأن غياب الأم، وحضورها لا يخيفان الطفل، بقدر ما يخيفه وجودها الدائم،الذي يملأ نقصانه، ويسكته عن كل طلب آخر. فمن هذا المنطلق ينجم الخوف من الخصاء، ليس الانفصال عن موضوع رغبته المحرمة، إنما في كل مرة يتعرض بها لتجربة تكمن بها الأم المحرمة».

في الحياة العاطفية نجد العديد من الرجال، ومن النساء يفشلون في إقامة علاقات دائمة ومستقرة، رغم كل التجارب المتكررة التي يرتبط من خلالها المعشوق بحب جارف، يتمثل بـ (موضوعه المفقود) (اي المرأة المثالية). ويتبين لنا من خلال التحليل أن الفشل هو غاية في حد ذاته، لأنه كلما اقترب من موضوعه كلما شعر بأنه أصبح أسيره، وليس من طلب آخر ينشده. والتجربة تتكرر باخراجات مختلفة، تغيب عنه الرؤيا عن حقيقة رغبته. فإذا كانت الأم متمثلة في هذا الموضوع، وكانت سبباً في التعلق به، فغاية ما ينشده هو التحرر منه، وفقدانه، حتى يمكن رغبته من الانطلاق من جديد.

---

(1) Ibid, p. 164.

يتبين لنا هنا أن ما يضلل العاشق هو ازدواجية الطلب بالرغبة، (أي تغيب عنه رغبته أمام وعد القلب بسعادة محققة، التي سريعاً ما تصبح وهماً إذا ما حصلت على موضوعها). فالتأزم الناجم ما بين الطلب والرغبة، يسقط ـ بحكم الضرورة ـ الأول لكي تبزغ الثانية في تكرار مزدوج. وغاية التحليل النفسي هو إزالة الالتباس ما بين الطلب والرغبة، باعتماد الكف عن الإجابة عن أي طلب من قبل المتحلل، لكي يمهد الطريق أمام طلب جديد يعيد إخراج الرغبة بشكل آخر، عبر السلسلة الدالة التي تكونه.

يقول صفوان: إنه بقدر ما تكون الرغبة المحرمة في الأم سائدة، بقدر ما يكون أسير رغبتها ومشلول الإرادة بكل ما يبقى من حرية الاختيار نحو حصول على بديل للموضوع المحرم، وذلك انطلاقاً من هوامات، حيث يتمثل برغبة على غير علم منه. وكلما اقترب من هذا الموضوع، كلما زاد تأزمه بحيث يتحول طلبه إلى عكس ما بدأ، أي بتحصين الحاجز الذي يفصل بينه وبين الإثم.

إذا كانت رغبته هي رغبة الأم، فليس ذلك إلا بدافع أن يحقق محبتها له، أي يكون محبوباً منها ومفضلاً في آن واحد. هذا ما ينعكس في علاقته العشقية، كونه لا يرى في موضوع حبه إلا صورة الأنا المثالي بشكل خارجي، يستلب لبه، ويتعلق به بقدر ما يشعر أنه سيفلت منه . النرجسية المستثمرة لهذه الصورة المرئية، تتحكم به، وتأسره، لأنها تخفي موضوعاً آخر وعجزه أمام اكتمال المحبوب الذي يتهيأ له أنه يملك ما ينقصه. فهذه العلاقة العشقية هي علاقة نرجسية تستمد جذورها من الصورة الأولية، التي بقيت طي الكبت عندما تهيأ للطفل أنه يكون موضوعاً متمماً للأم. فهو لا يتصور أن لا يكون محبوباً منها، الشيء الذي يعمل له طيلة طفولته الأولى عبر الإغواء والاجتذاب، والتماهي في موضوع رغبتها. لكن يبقى عنده السؤال الأهم: هو أن رغبة الأم لغز لا يعرف فحواه. وحتى الأم لا تعرف شيئاً عن هذه الرغبة، لأنها تنطلق عن رغبة لاواعية (لاشعورية) تتمحور حول نقصان أساسي؛ وهذا ما دعا لاكان للإشارة إليه بالقول: بأن إدراك الخصاء لا يحصل إلا عند موقع الأم:كونها محرومة من الفالوس. الشيء الذي يتطلب أولاً وآخراً اعترافاً بنقصانها. وهو اعتراف مزدوج، لأنه يفسح المجال لدخول الأب كوسيط، بين الطفل والأم، كونه يملك هذا الفالوس كمرجع أساسي لموضوع رغبة الأم. وهذه الوساطة هي التي تمهد للطفل الخروج من عقدة الخصاء، لأنها تفصله عن الصورة النرجسية المتكونة في موضوعية جسده.

مثال شهرزاد وشهريار الملك

خير شاهد على ذلك هو ما وجدته في إحدى حكايات ألف ليلة وليلة. فشهرزاد أشبه بالمحللة النفسية الأولى التي تعكس، من خلال سردها للحكايات على شهريار الملك، ما يمكن أن يدور بذهنه من هوامات حول المواضيع التي تشغل بال كل رجل بعلاقته بالامرأة. فحديث شهرزاد هو حديث مرتجع لما كان يمكن أن يسرده شهريار أو أي رجل يخوض تجربة تحليلية، انطلاقاً من تأزم يسود العلاقة ما بين الجنسين، حيث يتساءل الرجل أو الامرأة عن كيفية التعايش أمام نرجسية فالوسية تحتل المكانة الأولى. التحليل النفسي كما تظهره شهرزاد عبر حكاياتها، ليس إلا وسيطاً ما بين الإنسان القلق وما بين عالمه المجهول. إن المتكلم يتوسط ما بين الإنسان والحقيقة المطلقة، فهو يعبر عنها نصفياً(*) دون أن يدركها بشكل مطلق، وهذه الوساطة تأخذ شكل سلسلة الدال، حيث تتمثل الذات على غير علم منها؛ وهي تتكون منذ أن أبصر الإنسان النور عبر الأحداث والمراحل التي خطت تاريخ حياته، فانعكست بتصور فكري لوجود ولرغبات تكونه وتسيره.

نرى أن شهرزاد لم تترك موضوعاً إلا وطرقته: الجنس، الحب المستحيل، الثروة، النفوذ، السلطة، الموت، القدر، إلخ. من المواضيع التي لا يفتأ الإنسان يبحث عن إجابة عنها.

وإذا كانت الأساطير، والفولكلور، والحكايات، والأمثال الشعبية، تتناقل من جيل إلى جيل، فليس ذلك إلا لأنها لاقت إستجابة في نفوس هذه الشعوب لأنها تمثل جزءاً من حقيقة نفسية مبطنة، يتلاقى الجميع حولها.

تقص شهرزاد على شهريار الملك، في الليلة (606)، حكاية جودر عبد الصمد المغربي. والحكاية تدور حول الاستلاب، بالموضوع المقتصر على تلبية الحاجات، من طلب السلطة والمال والجنس.

تقول شهرزاد: إن جودر وهو الأصغر بالنسبة لأخويه: سالم وسليم، كان المفضل والمحبب من والديه وخاصة من أمه. وهذا ليس بالعجب إذا ما ألقينا نظرة على الأساطير، فإننا نجد دائماً أن الأصغر هو بطل الأسطورة، ويعود ذلك إلى المكانة التي يحتلها في صدر العائلة كمميز بالنسبة للبقية المتبقية من رغبة الأم. اضافة إلى انه الاكثر تعرضاً للاضطرابات النفسية إن لم ينجح لأنه بقي رهينة الاعتماد على إخوته.

(*) يقول لاكان ان علاقتنا مع الحقيقة هي نصف القول، نصف لكي يقاربها والنصف الآخر لوجودها كمرجعية أساسية لكل متكلم، لذلك تبقى علاقتنا مع الحقيقة جزئية وليست مطلقة.

بحيرة قارون المرصودة، وأعلمهم أن الشرط الأول هو القبض على أولاد القارون المختفين في سمكتين، والشرط الثاني هو أنه لا يمكن فك لغز الكنز إلا على يد جودر بن عمر.

وأردف عبد الصمد المغربي قائلاً: والآن يا جودر، بعد أن عرفت، وقع اختيار القدر عليك، فإما أن ترضى بالعرض، وإما أن ترفضه، فإذا قبلت فسيكون لك ربح ومال وفير ينهي فاقتك ويؤمن لك رفاهية مستمرة . وإن رفضت فسأنصرف عنك.

ولما سأله جودر عن الدور المترتب عليه، أجاب المغربي: بأن عليه أن يمر بتجربة عسيرة، فإن تخطاها واجتازها فسيكون الحظ حليفه، وإن وقع في شباك أوهامها، فإنه لا بد هالك.

والتجربة تقتضي بالآتي: يذهب المغربي وجودر إلى بقاع فاس في المغرب بقرب نهر، يقرأ عليه حتى ينشف، ويظهر عندئذ في قاعه باب من الذهب. ويبدأ دور جودر في قرع الباب، ويقول المغربي معرفاً: عليك أن تنتظر برهة، وبعدها تعيد الطرق بشدة، فتسمع صوتاً يقول: «من يطرق باب الرموز وهو لم يعرف أن يحل الرموز». فقل: «أنا جودر الصياد، ابن عمر» وهنا عليك أن تمر بسبعة امتحانات، كل امتحان يتبين لك أنه خطر مداهم، يهدد حياتك. ولكن إذا ما تمالكت أعصابك واجتزته، فسريعاً ما يتبدد، ويتبين لك أنه لم يكن إلا وهماً.

ـ الامتحان الأول: يأتي رجل حاملاً سيفاً ويقول: إن كنت جودر فمد عنقك حتى أقطع رأسك. فمد عنقك ولا تخف، فإنه متى رفع السيف وضربك، وقع بين يديك، وبعد لحظة تراه شخصاً من غير روح، وأنت لا تتألم. واعلم إن خالفته إنه لا محالة قاتلك.

ـ الامتحان الثاني: تدخل في دهليز، وتطرق باباً، فيخرج عليك فارس وبيده رمح، فافتح له صدرك. فإذا ما رماك بالرمح وقع أرضاً ولم تصب بأذى.

ـ الامتحان الثالث: يخرج عليك آدمي وبيده قوس ونشاب، فافتح له صدرك. فإن رماك، وقع أرضاً جثة هامدة، وأنت بخير.

ـ الامتحان الرابع: يخرج عليك سبع عظيم الخلقة، يهجم ويوهم بالتهامك، فلا تخف وامدد له يدك، فإن حاول عضك وقع في الحال.

ـ الامتحان الخامس: يسألك عبد أسود عن هويتك، فقل له: أنا جودر. فيقول إن كنت ذلك الرجل فافتح الباب السادس.

ـ الامتحان السادس: يخرج عليك ثعبانان، فامدد لهما يدك، وإذا ما عضا عليها، يتبددان.

ـ الامتحان السابع: وهو الأصعب والأهم، فإنك ستواجه امرأة بشكل أمك، وعليك أن تطلب منها أن تتعرى، وهي بالمقابل ستراودك عن نفسك. ثم تتوسل إليك كي لا تكشفها، وتستعمل كل الألفاظ التي يمكن أن تخدعك، فلا تصغ لها، وأبعدها عن ذهنك، ولا تدع نفسك تنخدع وتتأثر بألفاظها؛ فإذا ما أصرت، وخلعت حتى تتعرى تماماً، حينئذ تتبدد كالدخان الذي كان يمنع عنك الرؤيا، وتكون قد حللت الرموز، وأبطلت الأرصاد، وقد أمنت على نفسك. فادخل تجد الذهب أكواماً داخل الكنز، فلا تعتن بشيء، وإنما ترى مقصورة في صدر الكنز وعليها ستارة، فاكشف الستارة يظهر الكهين الشمردل راقداً على سرير من ذهب وعلى رأسه شيء مدور يلمع مثل القمر هي دائرة الفلك، ومقلد بالسيف، وفي إصبعه خاتم، وفي رقبته سلسلة فيها مكحلة، فهات الذخائر الأربع وإنك ستعود سالماً.

ماذا نرى في حكاية جودر؟ يتبين لنا أنها تقع في صلب عقدة الخصاء. هذا ما أرادت شهرزاد إسماعه للملك شهريار بأن رغبة الرجل لا يمكن أن تأخذ مفهوماً إنسانياً في طلب المعرفة والعلم والسلطة إلا بالتحرر من رغبة الأم المحرمة، عبر الدلالات التي تخط مسيرتها لكي تصل بها إلى موضوع مثال الأب.

عبد الصمد المغربي يمثل الحلقة المحورية التي تنجح في اجتياز الهوام من بين الأخوة الأربعة، وفاقهم بالنسبة لتركة الأب، وتعدى حدود المال والرزق لكي يتعثر أمام كتاب المعرفة، حيث الشرط الأساسي للحصول عليه، هو فك لغز الشمردل، والمطلوب أن يواجه المصاعب والمخاطر، حتى المراهنة على الحياة أمام الغاية القصوى.

جودر ليس إلا حلقة محورية في السلسلة الدالة، يمر عبره الاجتياز من الرغبة المرتهنة بالأم، إلى الاقرار بالاعتراف بنقصان الأم كشرط أساسي لبلوغ الهدف المنشود. فما يطلب منه تنفيذه هو من صلب هوام عبد الصمد، أي إنه دال يمثله عبر الدلائل التي تشير إلى موضوع الخصاء في شكله الخيالي(*). طرقه لباب الكنز هو

(*) فإن ما ظهر في دال، تبدد وتلاشى معه لكي يظهر في دال آخر وهكذا تكون المسيرة التحليلية. ينتقل المتحلل من التماهي بدال كان قد غطى رغبته بطلب. وان ما تلاشى يسقط الطلب لكي ينتقل إلى طلب آخر كان إلى حد الآن في حكم المكبوت وهكذا يتحرر بالتدريج من مواضيع الطلبات التي كانت تبعده عن ذاته.

طرقه لباب اللاوعي (اللاشعور). يضيع ويهلك من لا يعرف فك ألغازه[1]. العقد تتوالى الواحدة تلو الأخرى حتى تبلغ السبع. وهو رقم مقدس ورد في الأساطير والأديان: العجائب السبع ـ أيام الأسبوع السبعة ـ خلق الله الكون في سبعة أيام ـ السموات السبع، إلخ.

جودر الدال الأساسي الممثل لعبد الصمد، هو بمثابة ورقة المرور التي تحقق له اجتياز عقدة الخصاء. يضعه أمام احتمالين: إما أن يتراجع فيهلك، وإما أن يواجه فيتبدد الخوف وينجو. تمر المخاطر الواحدة تلو الأخرى انطلاقاً من قطع الرقبة، وهو حسب المدلول الفرويدي، إشارة إلى التهديد الذي يطال الطفل في خوفه من فقدان القضيب. إلى التهديد بالرمح وما يعني ذلك من تحد ومنافسة للأب في مفهومه القضيبي. إما أن يستسلم في علاقة تقضي على مفهوم رجوليته، وإما أن يتخطاه فيتبدد وهمه.

كذلك الأسد: صورة نكوصية لما يدور في خيال الطفل عن الأب البدائي الذي يفترس أطفاله، نتيجة إسقاط للمرحلة الفموية التي يمر بها، حيث يهيمن هوام إدماج كل ما هو محبب له عن طريق الفم. الأسد حيوان رمزي، مجاز تتقاطع حوله معان كثيرة، القوة، الشجاعة، التهديد، إلخ. والفك على غرار الذئب هو الأداة التي تهدده من الخارج. ونرى أن الأطفال ينتابهم خوف من هذه الحيوانات المفترسة دون أن يكون قد شاهدوها ولو مرة في حياتهم، أو أنهم كانوا مهددين من كونها موجودة.

ويعود هذا الخوف، كما يشير فرويد في «حالة هانس» إلى عملية إسقاطية تستهدف الأب كمنافس، وتبغي إخصاءه. الشيء الذي يرتد عليه بعكسه، وهو خوفه من إخصاء الأب له. والحيوانات المفترسة هي بمثابة الصور المستعارة بالنسبة للأب المهدد، والخطر الذي يستعمل الفك والأسنان كأداة خصائية(*)، سيما أن علاقة الطفل بالفم تحمل في طياتها النقيضين: الحب، وتدمير موضوع حب في آن واحد.

وكان فرويد قد أشار إلى هذا الموضوع بأن التماهي الأولي بالوالدين يرتكز على العلاقة الفموية، أي إدماجهم عن طريق الفم. الشيء الذي يرتد عليهم بخوف معاكس، يخاف على قضيبه بقدر ما يشتهي احتواء قضيب والده فموياً، هوام تكلمت

---

(1) وهذا ما تشير إليه الخبرة إلى أن التحليل الذاتي صعب بل مستحيل لما يحيط ذلك من إيهامات نرجسية تضيع صاحبها عن غايته.

(*) هنا يكمن تصور الأب المخيالي المرتبط أساساً بالمحرم والتهديد بالخصاء، أو بالأب المثالي، انظر المصطلحات اللاكانية في آخر الكتاب.

عنه ميلاني كلاين في الأوديب المبكر، كون الأم تحوي قضيب الأب في أحشائها، كذلك ما يتواجد عند العصابيين من مخاوف حول المضاجعة، والتي تؤدي إلى عجز جنسي. وما يكمن وراء هذه المخاوف من تصور لفرج مسنن يهدد القضيب بالخصاء إذا ما حصل الإيلاج.

الأسد هو الدال الفكي لما يمكن أن يدور في خيال جودر كتهديد بالخصاء، إعطاؤه اليد ليس إلا تضحية بموضوع أقل قيمة حفاظاً على الموضوع الأساسي؛ ويبدو هنا أنه بمجرد المواجهة والصمود يسقط الخوف وموضوعه في آن واحد. وهذا ما تشهد عليه الخبرة النفسية في الأحلام عندما يحلم أنه يسقط من أعلى، أو ملاحق من قبل حيوان مفترس، أو أن شخصاً يطارده وهو حامل آلة حادة (سكين ـ فأس ـ حربة)(*) فيستيقظ مرعوباً ليطمئن نفسه إلى أن ما حصل لم يكن إلا حلماً. وإذا ما تابع حلمه، فسريعاً ما يتبين له أن الخوف الذي كان يلازمه قد زال.

الإنسان يخاف من خلال كل البدائل على الغرض الثمين الذي يملكه، وهو موضوع استثمار نرجسي كبير. فالقضيب يحتل في طفولته، وخاصة المرحلة القضيبية، هذه الإمكانية الأولية، ويتماهى به (Ferenczi) إلى حد أن الخوف على قضيبه يتعمم بشكل خوف على نفسه. عندما يسقط التمثل في هذا الهوام، يسقط الموضوع المرتبط به، ويصبح لا شيء بنظره، على غرار ما شاهدنا في تطور جودر. لكن السلسلة الدالة، تستمر لتشير إلى أنه إذا ما انكشف في تمثله بدال، فإنه لا بد أن يتمثل في دال آخر بعد أن يتلاشى الأول، فكلاهما مرتبطان في نظام لغوي متمثل في الكناية والمجاز.

جودر يمثل حالة العصابي أمام موضوع الخصاء، حيث يتساءل باستمرار عما يطلبه الآخر منه. من خلال هذه الهوامات المهددة يبدو أن المراهنة تتأرجح ما بين الحياة، أو خطر مواجهة الحقيقة. إما أن يعيش مهدداً، محروماً من معرفة الحقيقة، وإما أن يواجهها، ويدفع الدين المترتب عليه، والذي اقترن به على غير علم منه؛ لأن الحكاية تقول: بأن اختياره لفك الرموز كان سابقاً لمعرفة دوره. فهو أمام مواجهة هذا الغائب المجهول الذي يقلق ضمير كل متكلم، والمتمثل بالآخر الكبير ـ ماذا يريد منه ـ والجواب يأتي بشكل مرتد بأن وراء كل تساؤلاته تكمن معرفة لا يمكن بعد الآن أن يتجاهلها،ولا يمكن في آن واحد العودة إلى الوراء بعدما قرر السير في طريق المعرفة. والحقيقة تكمن في سر الأم ـ نقصانها ـ في الموضوع الذي يستقطب

(*) وهو هوام يحتوي على رغبة جنسية مثلية تهدد مفهومه لرجوليته.

رغبتها والذي يتمظهر في الأفعى، وهو كما يبدو لنا في الأحلام وتتحدث عنه الأساطير بأنه نذير شؤم ينجم عن الخوف والشعور بالخطر، ماذا يخيف؟ سوى التقاطع الحاصل بين ما هو نقصان في الداخل ولقاء في الخارج. فالأفعى في الأحلام ليست إلا بمثابة القضيب الذي ينكر نقصانه عند الآخر كي يظهر متمثلاً أمامه، وعلى مرمى نظره. فنقصان النقصان، حسب نظرية لاكان، هو المولد الأساسي للخوف؛ فما يريده ليس الحصول على الموضوع إنما إثبات نقصانه. وخير دليل على ذلك هو حالة الهروب أمام الأفعى، أو الأفاعي، التي تظهر في الأحلام، لأنها تمثل ما هو طلبه؛ أما رغبته فتكمن في إظهار انفصالها، كونها قضيباً لوجود ناقص، وبصورة خاصة عند الأم. هذا ما يواجه جودر في المرحلة الأخيرة، حيث تتراءى له الأم بشكل مغر، تراوده عن نفسه، فإما أن يتجسد بالفالوس الذي يتمم نقصانها، وإما أن لا يكون، وعندئذ تنحل الألغاز وتبدو الحقيقة مجردة أمام واقع حرمان الأم من الفالوس، الشيء الذي يخوله بلوغ اسم الأب، وما يعني ذلك من رموز تفتح أمامه آفاق المعرفة، والعلم، والثروة، والسلطة. ويبدو لنا أن اسم الأب متاخم لموقف الأم، فتكشف الحقيقة لحرمانها مشروطة بوجود الآخر وراءها. وبمجرد إصرار جودر على كشف حرمانها للقضيب، تتبدد الأوهام، وتصبح الأم، صنيعة هذا الهوام، دخاناً يتبخر، ولغز يتفكك، لكي يظهر الأب الميت يورث حق ملكية أسراره لمن تخطى هذه التجربة المريرة بنجاح.

هذا ما حققه جودر لحساب عبد الصمد المغربي ضمن هوام الخصاء كاجتياز لا بد منه لكل من طرق باب الكنوز وعرف فك الرموز. وهو ما أرادت شهرزاد إسماعه للملك شهريار بأن علاقته مع المرأة لا تصبح سوية إلا إذا دفعت بتجربة الخصاء على أساس أنه لا يمكن أن يكون ذلك الفالوس الذي ينقص الأم؛ وأن معرفة حرمانها منه تمر عبر الأب كشرط أساسي لامتلاك الفالوس على قاعدة نقصانه. وهذا النقصان في الوجود هو الذي يجذب المرأة إلى الرجل والعكس صحيح. (سنوضحه فيما بعد).

يتبين لنا أن ترابط الهوامات الخصائية الواحدة تلو الأخرى في حكاية جودر مرهونة بموقع الأم كمدخل أساسي لحل عقدة الخصاء(*). والتجربة التحليلية لا تترك مجالاً للشك: الأم هي التي تدخل الطفل في النظام الرمزي،وما يتعلق منها في عملية الخصاء هو خسارته المتمثلة في الفالوس الذي كان يتوهم أنه بديله، والذي كان

(*) هذه المخاوف من الخصاء تدخل في حقل المخيال لأنه في الواقع لم يحصل أن أباً خصى ابنه. التحليل النفسي ينقل المتحلل من الخصاء المتخيل، مصدر العصاب، إلى الخصاء الرمزي.

يعتقد أنه يتمم لها وجودها. ولكن الحاصل أن هذا الوجود يبدو من خلال ضياع موضوعه، أنه نقصان يطال كلا الطرفين في آن معاً، نظراً إلى وجود قصر بيولوجي جسدي يحول دون المطابقة لما هو مطلوب من الآخر.

تتمحور علاقة الأم بالطفل حول موضوع متخيل ميزته أنه لا يوجد أي موضوع يطابقه في الواقع، مهما حاولت الأم حصر نقصانها في تكاملها مع الطفل.. كون هذا الأخير يدرك حتمية عدم المطابقة بين ما هو مطلوب وما يمكن أن يكون. الفرق يفتح أفق التخيل.

يعرف الطفل بحكم البديهية أن هناك نقصاً في وجود الأم، وأنه إذا كان موضع اهتمامها وعنايتها، فلا بد أن يكون جزءاً مما يتمم هذا النقص. ونظراً إلى أنها في موقع تلبي كل طلباته، ومصدر لاستمراره، يحاول، بشتى ما يتيسر له، أن يحول رغبته إلى موضوع رغبة الأم كي يتماهى به، وتصبح رغبته هي رغبة الأم نفسها. إلى أن يأتيه الجواب منافياً لما كان ينتظر؛ فالأم ليست حضوراً دائماً، فهي غياب وحضور في آن واحد، وعليه أن يكتفي به، الشيء الذي لا يحصل إلا إذا دخل نظام الترميز.

فهو أمام جدار يستحيل اختراقه وعبثاً يحاول أن يطلب منها هذا أو ذاك، إلا أن ما يحصل عليه لا يطابق ما هو محروم منه، أي موضوع رغبتها. والخبرة تبين أنه بقدر ما تحاول الأم وبشتى الوسائل، تحقيق طلباته، وحصر اهتمامها بتأمين حاجاته المادية، بقدر ما تشعره بالإحباط، لأن طلبه الأخير يتمحور حول الحصول على ما لا تملك، أي نقصانها أو حبها(*). إذا كان غيابها كاملاً فإن حضورها دائماً ناقص، مما يولد عنده حالة ارتباك وحيرة لا يمكنه الخروج منها إلا عن طريق الترميز، (أي الدال المرمز حضوراً لغياب يقتبسه، يؤسسه، ويكونه، ويمكنه من التحكم به في الاستعمال اللغوي) . ويقول صفوان: «أي عطاء مهما بلغ، وحتى لو كان الحب، لا يمكن أن يخفف من اعتماد الترميز».

فعلاقة الطفل بالأم، حتى لو كانت رغبته من رغبتها، ليست علاقة تكامل أو اتحاد. إنما يتوسطها نقصان يتواجد في كلا الطرفين مهما تعددت الأشكال، على غرار

(*) يقول لاكان عن الحب: أن يهب الحبيب ما لا يملك أي نقصانه.

ما عبّر عنه لاكان في تشبيهه في إناء الخردل ـ فإن وضعنا أحدهما مكان الآخر، نجد نفس الفراغ.

هذا ما يؤكد لنا أن العلاقة ليست مباشرة إنما يتوسطها الرمز الذي يشير إلى دلالة «الشيء» الغائب والذي من خلاله يدخل الطفل في نظام الترميز، ويصبح حلقة من السلسلة الدالة التي تكوّنه، وتكوّن تاريخية حياته بالإضافة إلى الأحداث التي تؤثر في مجرى سير الأمور. يدخل عالم اللغة . فبمجرد أن يتلقى منه الدال المشير إلى وجوده حتى نراه يتلاشى كي يتلقى دالاً آخر يمثله بالنسبة للدال السابق؛ وهكذا، كلما تطور ارتباطه باللغة كلما فقد السيطرة عما يمكن أن يقوله من جديد، بشكل أن هذا الجديد يأتي كتعبير لوجود آخر، يخلق انشطاراً في داخله بين ما هو معبر حاضر وما هو مغيب حسب الأجوبة التي يمكن أن يتلقاها من الآخر. يصبح الكلام عندئذ بالنسبة له ليس مجرد لفظ، أو نبرات صوت ضائعة، إنما دالات تعني في خلفيتها شيئاً غير ما يقوله مشيرة بذلك إلى دال يمثله في السلسلة الدالة المتواجدة عند الآخر (أي الأم في المناسبة). فالاتصال الكلامي يتمحور حول هذا النقصان المؤسس لانشطاره، والمتمثل في كبته لدال أساسي، لوجود لا يظهر إلا في حال النقصان بنظر الآخر(*). فمن دون هذا الدال لا يمكن للنقصان أن يأخذ حيز التعبير، إلى درجة أنه يصبح سبباً لهذا الانشطار (Spaltung). فأي موضوع واقعي كان ما كان، لا يمكن أن يؤدي حق وظيفته، لأن هذا الموضوع الواقعي المسمى أو المنظور، هو موضوع لأجل الطلب. ونقصان يستمد ظهوره من الأجزاء التي تنفصل وتسقط من الجسد، بحيث يصبح هذا الجزء الناقص دالاً يدخل في السلسلة الدالة لكي يضيع بها في تحولات مجازية ويصبح الجسد كتاباً مرجعياً لكل ما يرتبط بالملذات والنزوات، ترتسم عليه الدلائل المعبرة عنه وما يتصل به، بمثابة الآخر الكبير كونه مصدر النزوة في آن واحد.

ونلاحظ كما بينا سابقاً من خلال المراحل التي تكوّن الذات، أن كل مرحلة مدموغة بجزء جسدي ينفصل، يقتطع منه، ويصبح الدال هو التعبير عن الجزء الضائع. ففي حالة الفطام، ينفصل الثدي عن جسم الطفل، كعضو كان يعتبره جزءاً منه، فيتأسس من خلاله الطلب الفموي، حيث يتمحور حول المزيد من اللذة . كمنطلق

(*) عندما يرزق زوجان طفلاً: يأتي وجوده من نقصان سبقه وحتى لو لم يكن مطابقاً. كذلك لا يدرك الطفل اهمية الأهل إلا بعد ان يدرك احتمال موتهم. اي نقصانهم بالنسبة لوجوده والدال المؤسس هو الفالوس الناقص مرمز (φ -).

للرغبة في مناشدتها الآخر الكبير كحقل يلمح بالاستجابة لفقدان الشيء (موضوع اللذة). في سياق هذا التحليل يدخل البراز، كجزء يسقط منه وينفصل عنه، مقابل دال يتوجه إليه في طلب من الآخر له، ويدخل في السلسلة الدالة بحكم العلاقة المترابطة بين الطرفين. (هذا ما شرحناه مفصلاً في الفصل السابق).

أما الفالوس، وإن كان لا ينفصل عن صاحبه، على غرار الثدي والبراز، إلا أنه يخضع لحكم العرض والطلب. فالطفل يحاول استقراء رغبة الأم، ويتوهم أنه إذا كان يملك القضيب، فلا بد أن يصبح موضع طلب الآخر، وهذا ما يترجمه العصاب في هوام مقلق حول طلب هذا الآخر منه، ويدخل في السلسلة الدالة بحكم العلاقة المترابطة بين الطرفين . وهو هوام مشترك بين الرجل والمرأة. السؤال: ?che vuoi ماذا يريد؟

حول هذا الدال الفالوسي يتمحور الدين الأساسي، باعتبار أن الإثم المحرم هو حد لا يمكن تجاوزه. والفالوس يصبح في هذا الاتجاه ناقصاً مفقوداً يحدو مفهوم الخصاء. وفقدان هذا القضيب لا يعني في الواقع انفصاله عن بدنه، إنما يأتي في سياق التقاطع ما بين رغبة الأم وطلبه، استنتاجاً لما هو موضوع نقصان الأم. والخصاء الرمزي لا يطال إلا القضيب المتخيل(*). بالنسبة إلى الفتاة، يجب أن تدرك أنها لا تملك ما لم يكن ملكها سابقاً. وبالنسبة للفتى لا تعود حق ملكية القضيب، واستعماله إلا بشرط الاستغناء عن استمرار تماهيه به ومعادلته، مع العلم أنه إذا كان نقص عند الأم، فهذا لا يلغي وجوده كموضوع واقعي، تتمحور حوله المتعة الفالوسية مع باقي النساء.

إذن الرغبة الجنسية تتمحور حول النقصان لهذا الوجود، أي حول استحالة إمكانية أن يكون القضيب ويملكه في آن واحد كما يقول لاكان. فلا بد إذاً من دمغة الخصاء كشرط أساسي لتسوية الرغبة الجنسية في اتجاهها السليم، حيث ينحصر الدين

(*) يشير لاكان في سيمينير «من آخر كبير إلى الآخر الصغير»، أن طلب المزيد من المتعة وهو ما يرمزه في موضوع ألف، يتوجه إلى حقل الآخر الكبير كدال أول. وعندما يصطدم هذا الطلب برفض الآخر الكبير في حال المحرم ينقلب من صفة الإجابة إلى صفة النقصان اي مزيد من المتعة (+) إلى نقصان هذه المتعة (-). كذلك بالنسبة للفالوس: اذا كان باتجاه المحرم يصاب بالصد ويتحول ذلك في حقل طلب المتعة إلى نقصان كدال اول يؤسس دال ثان كبديل وهكذا. ولكن دائماً على أساس نقصان الاول.
تحوُّل هذه العملية من ناقص (-) إلى زائد (+) يؤدي إلى العصاب ويكون ناجماً عن عدم اكتمال الخصاء الرمزي: يكتبه لاكان بصيغة $\varphi-$، أي فالوس ناقص.

الأساسي ليس في دفع أجزاء من جسده (كما نرى في بعض الأمراض النفس جسدية)، أو بأي بديل مادي (عصاب الفشل)، أو معنوي (إحباط عاطفي) يستنفذ من مقدرات الإنسان العصابي، إنما في استحقاق الدين الحقيقي الذي يختزل في استحالة تتوقف عندها الطلبات لتبزغ الرغبة انطلاقاً من نقصان لوجود لا يمكن أن يحققه أي غرض سوى بقاء استمراريتها إلى الأزل (يسميها لاكان خلود الرغبة)(*).

المرحلة الفالوسية تتميز في مواجهة هذا النقصان، سواء عنده، أو عند الآخر الذي يشكل موضع طلبه. وعلى هذا الأساس يقول صفوان[1]: «تصبح وظيفة الأب الواقعي وظيفة ممهدة. فهي لا تعني مناهضة القانون للرغبة، بمعنى الحد الخارجي لها فقط بمجرد أن ينزع حتى يحقق لها انفتاح الأبواب نحو الانصهار أو التكامل. فالذات تدين للأب بالاعتراف بوجودها حيث تتكون الرغبة، ولا يعني ذلك الاعتراف بعضو الذكر، إما بما يهيمن على حياته الليبيدية في المرحلة الفالوسية حيث تتأرجح الذات بين الوجود واللاوجود»[2].

وتأتي التسوية الأوديبية في سياق وقف الانجراف الحاصل في اتجاه الطلب غير المحدود. فأي جزء من الجسد يصبح موضعاً لاتمام نقص الآخر إذا لم يتحدد الاعتراف بأن هذا النقص متبادل عند الطرفين (أي المحلل والمتحلل)، وأن موضوعه الأساسي هو الفالوس. فمن هذا المنطلق يرتبط الإنسان بسلسلة دالة يكون أساسها النقصان المبدئي كما ذكرنا، من حيث إن أي دال آخر يأتي لكي يعبر عنه يبقى مرهوناً بالفارق بين الطرفين. وأي تطابق مستحيل وهو ما تعبر عنه استحالة الرغبة عند العصابي، بحيث إن أي عطاء أو تضحية لا تدفع عنه الدين الفالوسي المتوجب دفعه في إدراك نقصانه.

ويشمل ذلك الذكر والأنثى، كل منهما في اتجاه تحقيق جنسه، والتماهي به. فاشتهاء القضيب عند الفتاة لا يعادل الخصاء، رغم أنها تشكل العقدة الأساسية في

(*) خلود الرغبة زاه في وصفه كعملية نفسية عند الصوفيين تؤدي في النهاية إلى الاتحاد في ذات الخالق اي تحقيق وحدة الوجود (صدر الدين الشيرازي عن طريق العرفان).
نجد تشابهاً عند الصوفيين ما بين العرفان كمعرفة تجهل نفسها ولا يستطيع أن يدركها إلا في الصعود باتجاه الخط الرباني وما بين اللاوعي كمعرفة موجودة ولكن طالها الكبت ولا يمكن للذات ان تدركها الا عن طريق التحليل النفسي.

(1) مصطفى صفوان: البنيوية في التحليل النفسي.

(2) مصطفى صفوان: المصدر نفسه.

صعيد المخيال. وقد يأخذ ذلك حيز التحليل الفعلي عبر المسرح التحويلي، أي يصبح التحويل في مرحلة من المراحل بمثابة استحضار وترميز لهذا المكبوت المخيالي. ولكن لا يتم ذلك إلا بعد فكفكة كل التماهيات المكونة للأنا المثالي النكوصي، حيث ينظر إلى ذاته من زاوية التباهي على غير علم منه، مما يدفعه في اتجاه خاطىء، وأنه غير منظور من الآخرين. فالتمظهر شيء أساسي، حتى ولو كان قناعاً، لأنه يمثل في ذاته التقاطع بين ما يتصور نظرة الآخر إليه، وبين ما كان سبباً للتماهي في هذه الصورة.

وهذه الصورة حتى ولو كانت قناعاً يريد أن يخدع الآخر به، إلا أنها تشير إلى حقيقة تكونها الناجم عن التناقض المعبر عنه. ولا يتكشف إسقاط القناعات الواحدة تلو الأخرى إلا عبر التعبير الكلامي، والتعبير الكلامي الصحيح هو ما يمكنه من الانتقال من حقل المخيال إلى حقل الترميز. وهكذا فعقدة الخصاء تحمل في طياتها كل التوهمات والمخاوف المتعددة، لأنها تهديد متخيل، والانتقال من الخصاء المتخيل إلى الخصاء الرمزي لا يحصل إلا ضمن إدراك حقيقة حول مفهوم الفالوس في التكوين النفسي:

ففي آخر المطاف يظهر للمرأة أنه إذا كانت مرجعية وجودها تعود إلى الفالوس فهي تملكه في تماهي جسدها (جمال الجسد وجاذبيته، تعدو إلى هذا التماهي الذي ينقص عند الرجل). ويظهر للرجل أنه إذا كان يملك القضيب فهو لا يمكن أن يكون ذلك الفالوس. أي نقيض المرأة.

فهذا التأرجح ما بين ملكية القضيب وكونه، هو ما يعاني منه العصابي في كل مرة تطرح رغبته الجنسية في حقل العرض والطلب. ويفترض أنه لا يمكن بلوغ النضوج الجنسي إلا في حل إشكالية التماهي القضيبي الذي يدفع الرجل إلى التردد أمام عرض المرأة؛ فإذا ما أعار نفسه كمادة استهلاكية، فإنه يحتفظ بكونه القضيب الذي ينقص في وجودها فيعيش في صراع المد والجزر لأنه يرفض إدراك حقيقة نقصانه ـ كذلك بالنسبة إلى المرأة فإما أن تلجأ إلى السلوك الاسترجالي، أو أنها تزيد من مظاهر أنوثتها كي تضلل الآخر عن كونها رافضة لحرمانها من الفالوس.

في كلتا الحالتين يتبين أن فشل الأوديب يتمحور حول موضوع الفالوس وليس حول العضو التشريحي "الذكر"، ومن يملكه فعلاً. وهنا تبدو ميزة لاكان عن فرويد. وهذا الاستنتاج يولد حقداً دفيناً تجاه الأم كونها تحمله في أحشائها، وتارة تجاه الأب كونه يحمله ولا يعطيه. والحقد الدفين تجاه الأب هو من أهم المراحل التحليلية

التي توقف عندها المحللون ويترتب عليها نتائج مهمة في علاقة الشخص مع أقرانه، نظراً إلى ارتباطه بالحقل المخيالي لأنه يواجه رغبة الآخر الكبير منه.

يوضح صفوان هذه المسألة مستعيناً بقول لساد: «أعطني قطعة من جسدك تمتعني للحظة، واختر ما يحلو لك أية قطعة من جسدي»[1]. هذا ما يفتح باب حقل الاستمتاع، حيث يصبح الجسد مسرحاً له وعرضة لطلبات الآخر المتجزىء. وأي جزء منه يدخل في تركيبة هوامية، يصبح موضوعاً استمتاعياً في طلب من الآخر، وينقلب في الحالة الخيالية، إلى موضوع خوف، ديناً يؤديه له، أو مصدراً ليبيدياً للانجاب. ويستشهد صفوان بالنظرية الجنسية عند الطفل حول الولادة، التي يؤدي مضمونها إلى إلغاء دور الأب والدين المترتب له، بتحويلها إلى دال يشهد على شهوة طبيعية جامحة تكرس دوره في العلاقة الحبية المرتبطة بها.

كراهية الأب هي كراهية دفينة، تعود إليه من هذا الحقل المخيالي البعيد، لتتكرس في المنافسة الأوديبية، وإذا كانت هذه المنافسة تعزز هذه الكراهية إلا أنها لا تعطيها بعداً وتبريراً إلا من خلال الفالوس، حيث إنه يمثل مصدراً للمتعة والسلطة. فهو موضوع يستقطب كل اقتصادية الليبيدو كما يقول صفوان، علماً بأنه لا يطابق أي موضوع، وعندما تدرك الذات أن هذا الموضوع ليس أي موضوع، وأنه لا يوجد، يلتغي الفارق ما بين امتلاكه وعدم امتلاكه. ويسقط الصراع إلى أقل درجة ممكنة. وفي هذه المناسبة تستنفذ المنافسة كل المواضيع البديلة لكي تصبح في النهاية منافسة ودية، تتعدى واقع الأب ولكن ليلتقي به حول مثال الأنا.

والحرية التي يتمتع بها، هي حرية الاختيار. فالرغبة تصبح مصدراً لإسعاده، ولسعيه عندما يشعر أنها ملك اختياره، وليس بحاجة إلى الآخر للسماح بها. وهذه المرحلة تتطابق عندما يتغير موقعه بالنسبة للفالوس. فبدلاً من التأرجح بين الحصول عليه أو التماهي به، يصبح موضوعاً ناقصاً يترك فراغاً ما بين رغبته وموضوعها. فانطلاقاً من هذا النقصان تصبح الرغبة أبدية، وتتجدد باستمرار مهما كان الموضوع الذي يحقق طلبها. وهذا ينطبق سواء على الامرأة، أو على الرجل. بالنسبة للأولى، حسب تعبير لاكان «لا تملك القضيب من دون أن تكونه». وبالنسبة للثاني «ليس هو القضيب من دون أن يملكه». وهذه المرحلة كما يزيد صفوان: بأنها أساسية، ولا تتم

(1) مصطفى صفوان: المصدر نفسه.

إلا إذا استطاع الإنسان أن يدرك بأن الأب قد استوعب نقصانه، وأنه ليس مصدر رغبته بذاته. وما يعزز ذلك هو الاحتجاج الذي نسمعه دائماً بأن الأهل قد جنوا عليه، فلم خلقوه وهو ناقص؟ هذا الاحتجاج يحمل في طياته التعبير عن الكره الدفين للأب. وبأن الدين المترتب عليه هو أكبر مما يمكن أن يسد عبر العطاء، وأنه في الواقع دين إدراك لحقيقة النقصان كشرط أساسي أن كون الفالوس موضوع هذا النقصان.

ويقول صفوان: «إن اجتياز هذه المرحلة، وحده، يمكن الإنسان من التنحي عن الوهم الذي كان يتمسك به حول قدرته الواهية، والتي إلى حد الآن كان يعيش الانفصال عنها بمثابة خصاء متخيل».

والسؤال هنا: إذا كانت هذه الكراهية للأب مرتبطة بوجوده، فما هي الحال في حال وفاته حسب أمنيته؟ الواقع بأن المسألة تطرح بجدية مأساوية إذا ما حصل أن وفاة الأب كانت تلبية لأمنية المنافسة؛ لأنها تترك الإبن فريسة دين كبير، فالقانون يستمر فعله رغم موت الأب.

ويشير فرويد إلى ذلك في كتابه الطوطم والتابو حول الأب البدائي، أن الأولاد الذين توافقوا على قتل الأب، اتفقوا فيما بعد على تحريم ما كان سبباً في قتل الأب، ونصبوا الطوطم بديلاً عنه يخشونه، ويهابون انتقامه، ويقدمون له الذبائح والعطايا لكي يكفوا شره، ويسكتوا غضبه. فالقانون مرتبط بموت الأب، وإن استمر ويستمر، فليس إلا لأنه مقترن باسم الأب، كما يسميه لاكان، كعامل أساسي في تكوين اللاوعي (اللاشعور). يستخلص فرويد من ذلك بأن القانون يبقى قانون الأب في تحريم الإثم وإن ارتبط تاريخنا بقتله، فصلة الذات به هي حلقة لاواعية (لاشعورية)، من حيث إن الرغبة التي انبنت على أساس الأوديب ما بعد حدود الوعي، فالعكس صحيح كما يقول صفوان.

من هذا المنطلق تصبح كراهية الأب بمثابة كراهية الرغبة لكل من وجد نفسه أمام خيار «ما بين الفالوس والموضوع».

استمرارية الأنا الأعلى «Surmoi» في تعسفه، وفي تحكمه، وفي تقييد حرية الأنا وتحميلها الشعور بالذنب، ليس إلا تراجع الذات عن تحديد رغبتها. فالشعور بالذنب ينجم عن تخلف جرأتها في الرغبة، سيما أن ما يضللها هو التباس الطلب في مكان الرغبة.

التهديد بالخصاء هو ما يعمل بالخفاء عند العصابي ضمن الكراهية المتبادلة التي

تفرضها المنافسة مع الأب، سواء كان ذلك، كما يتبين في هوامات الطفل، من أمنية في زواله، في تمزيقه أو في إخصائه، فإنه يرتبط في كل الأحول باستحالة بلوغ موضوع الرغبة وباستمرارية تشبثه بالأم. الأوديب ليس أسطورة إنما بنية نفسية ترتكز بالدرجة الأولى على اسم الأب، وعودة المكبوت عند كل عصابي لا بد أن تكون مقرونة بالمجاز الأبوي، كدعوة إلى إدراك حقيقة وبزوغ رغبة ما.

استلاب الذات في الأنا(*)

لا بد للذات أن تتمخض في ترجمة موضوعية، تشير، ولو بالتلميح إلى أمنيتها ورغبتها. وترابط الأنا بالذات هو تشابك لا يمكن فصله. وهذا ما يؤكده فرويد في قوله: إن جزءاً من الأنا يبقى لاواعياً (لاشعورياً)، وإن الأنا الأعلى يحمل بأحكامه القاسية واللوامة على الأنا، انطلاقاً من معرفة مسبقة باحتواء هذه الأخيرة لرغبات محرمة. وهذا ما يدعو إلى اعتماد فرويد، ولاكان فيما بعد، مبدأ الانشطار (Spaltung) ـ أي أن الأنا منشطرة على نفسها في قسمين: وعي (شعوري) ولاوعي (لاشعوري)، منذ أن بدأ الإنسان يتكلم ويحاول التعبير عن حاجاته في الألفاظ الكلامية. وأول ما يلاحظه الطفل، أن للكلمة مفعولاً سحرياً بحكم تأثيرها على الآخر. سواء كان هذا التأثير سلباً أو إيجاباً. في هذا الانشطار يكمن ضلال الأنا في موضوع رغبة الذات(*)، فهي تتوه في أوهام تخدم مصلحتها على حساب الكبت لرغبات الذات، ويلعب الخيال دوراً في متاهة الأنا، حيث يفتح أمامها حقلاً تضل به عن ذاتها، وتتوهم إمكانية تعدي حدودها، تغذيها نرجسية نابعة من واقع نفسي يرفض الالتزام بالواقع الخارجي، ويبدو ذلك واضحاً في التناقض الحاصل ما بين مقولة التعبير ومقولة المعبر. وهذا يعود إلى أن الشخص منذ أن يبدأ الكلام يقول أكثر مما يعرف، والفارق ما بين المعبر والتعبير يعود إلى الانقسام الذاتي، كون الرغبات اللاواعية (اللاشعورية) لا تهدأ في محاولة الوصول إلى إمكانية التعبير على رغم مقاومة الأنا لها، مما يجعل الإنسان في حيرة من أمره، يتساءل عما يريد دون الإمكانية في تحديد

(*) يميز لاكان ما بين الأنا والذات اللاواعية. على اعتبار أن الأولى تتكون من التماهيات المخيالية والثانية تكمن في اللاوعي لتعبر عن واقع الرغبة المكبوتة. لذلك يمكن للأولى أن تضلل الثانية بفعل هذه التماهيات سيما إذا كانت نرجسية.

موضوع رغبته سوى الاستمرار في ضلال يخدع نفسه عبر تماهيات أنا المتكلم «Je»، في «استناد مواقع» خيالية توهمه، دون أن تحقق فعلاً رغبته الذاتية. وهكذا يدخل عبر مقولته في جهل تام عن موضوع رغبته.

يلعب اسم الأب دوراً أساسياً، بل محورياً، في انشطار الأنا وتكون اللاوعي (اللاشعور). وهو مرتبط منذ البداية بدخول الطفل عالم اللغة، سيما أنه يجد منذ أن تلقن لغة الأم على أن مرجعية هذه، وعلى غير علم منها، تعود إلى رغبة مجهولة مرتبطة أصلاً بالأب سواء كان حاضراً أو غائباً، لأن الأم ليست جهازاً متكاملاً يكفي نفسه بنفسه؛ فكلامها ومخاطبتها لطفلها ينبعان من نقص يعود بمرجعيته إلى وجود الأب على اعتبار أنه يحتوي الموضوع المسبب لرغبتها. وقد يتساءل الطفل عن رغبة الأم، ويتهيأ له من خلال تصوره النرجسي لذاته، بأنه يمكن أن يلبي طلب نقصها، أو أنه بوجوده يعطيها هذا الاكتفاء، إلا أنه يفاجأ بخيبة أمل كبيرة، وإحباط شديد بأن موضوع الرغبة هو في الطرف الآخر المتمثل بالأب. وإن تساءل عن دور هذا الأخير، فإنه لا يجد جواباً سوى أنه مشرع ومعطاء في آن واحد، يرتبط به موضوع رغبته سواء في الاعتراف به أو التعريف عنه أمام الغير.

فدور الأب يصبح دالاً محورياً يدخل في طلب تكوينه الذاتي كجهاز يؤسسه، مرتبط أصلاً عبر السلسلة الدالة في الكبت الأساسي (Refoulement originaire) الأولي المكون للاوعي (للاشعور). فالمدخل إلى ذلك، كما يقول لاكان، هو دخول الطفل في عالم اللغة، فهو لا يعرف ما يقول ضمن ما يلفظ، لأنه يقول دائماً أكثر مما يحدده اللفظ. وهو «شيء آخر» عما عناه في لفظه. وهذا «الشيء الآخر» الذي يرشح هو الأساس للاوعي (للاشعور) كونه يفلت من المتكلم، لأنه أصلاً كان منفصلاً عنه.

«فاللغة كما يقول لاكان هي شرط اللاوعي (اللاشعور)، فاللاوعي (اللاشعور) هو الحصيلة المنطقية للغة: لا يوجد بالفعل لاوعي (لاشعور) من دون لغة»[1].

فانشطار الأنا إذاً متاخم لولادة اللغة عند الطفل ولولادة الذات من اللغة، وهو بمثابة البداية التي تحدد الذاتية (Subjectif)، وذلك ضمن نظم تتكون عبر الدوالي لأن الدال رقم واحد يسقط في حكم الكبت، إذا ما تبعه اللاوعي (اللاشعور) (دال 2). وهو بمثابة المكبوت المؤسس لما يرتبط به من دوال أخرى ـ أي انطلاقاً من الدال

(1) Préface J. Lacan à Anika Rifflet - Lemaire, p. 14.

رقم اثنين المجاز الأبوي المرجع الأساسي لنقصان الأم المتمثل في رغبتها في الفالوس (الدال رقم واحد). وهكذا يصبح الخط الفاصل بين دال اثنين ودال واحد (د2 ـــ د1) د1 خط تماس في نفس الوقت الذي يعبر عن استحالة خرقه، أو بالأحرى جمعهما.

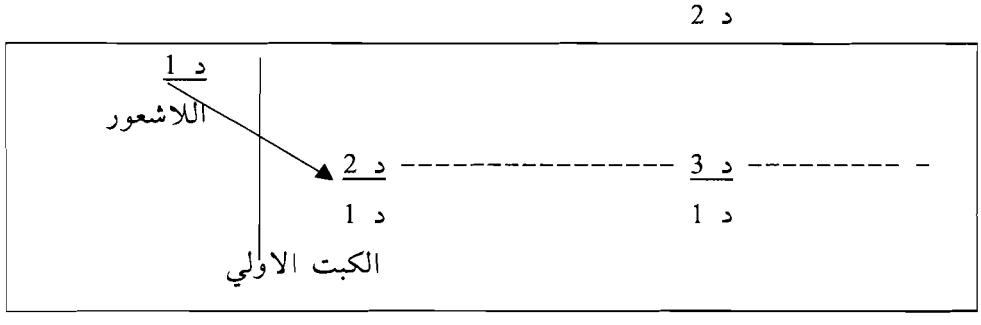

وهكذا يجد الطفل أن الصورة الأولية للتماهي الفالوسي التي نصبتها النرجسية في علاقته البدائية مع الأم مرتهنة بالمجاز الأبوي، كنقصان أساسي يدخل في تكوين اللاوعي (اللاشعور). وكل تسمية للأشياء تعبر عن رغبته تنبع من نقصان لهذا الوجود الذي أصبح في حكم المنفصل عنه، يؤسسه ويكونه. فهو مرهون به في كل تطلعاته على غير علم منه.

أي من خلال هذا الانشطار في الذات الناجم عن دخول اللغة، تتكون النواة الأولى للمكبوت الأساسي ومنه اللاوعي.

ويجب أن لا يغيب عن ذهننا بأن هذا الدال الأول، الفالوس (القضيب)مرتبط أصلاً برغبة الأم، كما ذكرنا سابقاً، وأن رغبة الطفل هي من رغبة الآخر، أي أن الفالوس (القضيب) كدال أولي هو أساس العلاقة بين الطفل والأم. وما دخول الأب على الخط إلا عملية قيصرية لإحباط هذه المعادلة: طفل= قضيب، لكي يجعل من النقصان عند الأم إلزاماً عند الطفل ويسقط من حسابه استمرارية هذا التكامل، فيصبح القضيب بمثابة نقصان مطعماً بدمغة الخصاء في تكوين اللاوعي (اللاشعور).

وكل هذه الدوالي التي تشير إلى رغبة الأم، تدخل في إطار التماهيات الأولية المكونة الدوالي الأساسي، أي بمثابة حجر الزاوية لبزوغ النواة الأولى للاوعي (اللاشعور).

وهذا ما أشار إليه فرويد في مقاله عن الكبت سنة 1915، عندما فنده في ثلاث عمليات:

1 ـ الكبت الأساسي.

2 ـ الكبت الثانوي المتعارف عليه، وهو ينجم عن الأول.

3 ـ وعودة المكبوت، وهي التركيبات المكونة في المحتوى اللاواعي (اللاشعوري) وهو ما يطالعنا به العمل العيادي في الظواهر التي تفاجئ وجداننا سواء أتت في الأحلام (الباب الملوكي)، أم في الأعراض، أم في النكات، وفي هفوات اللسان، والأفعال المغلوطة.

والملاحظ هنا أن الكبت الأساسي مرتبط أصلاً برغبة الأم وما يماثلها من تمثلات تعبر عنها. وهي نقطة استقطاب لكل نشاطاتنا الفكرية لأنها تجتذب كل الدلالات المتفرعة عنها، ودور المجاز الأبوي هو الوصلة الرمزية التي تخرج الطفل من هذا الارتهان الذاتي، وتجعل العودة مستحيلة، وتمهد له الطريق للخروج من وهم المتخيل لولوج عالم الترميز.

لا يعني ذلك أن العمل التحليلي عندما يبلغ نهايته، يلغي اللاوعي (اللاشعور) أي يستخرجه كمن يستأصل جسماً غريباً. فاللاوعي (اللاشعور) حسب تكوينه لا يُلغى، إنما يحل محل الأنا في تكوينها الجديد... فالمكتسب هو معرفة جديدة لمعرفة سابقة كانت إلى حد الآن في حكم المكبوت- وإدراكها لا بد أن يولد تغيرات في بنية الأنا.

ويبدو هنا حسب التعريف اللاكاني بأن الذات لا تسبب اللغة، إنما اللغة هي السبب في تكوين الذات. فأي تصور لذاتنا، فبأي شكل نريده أو نتمناه ليس إلا تصوراً لغوياً. هي كناية عن سلسلة لغوية لدوالي متشابكة فيما بينها ضمن النظام اللغوي المتمحور حول الاستعارة والكناية، لأن أي دال لا يجد معناه إلا إذا ارتبط بالدال الذي سبقه وبالدال الذي لحقه. وهكذا بمجرد أن تجد الذات تعريفاً عن وجودها في دال معين، نراها تغيب لكي تظهر في دال آخر وهكذا. مما يؤشر إلى تقدم العمل التحليلي.

سنحاول الآن توضيح صورة البنية الذاتية حسب ما ورد في الـ (Schéma L) عند لاكان، وهي كناية عن تصور يظهر به وهمية الأنا، لأنها منذ البداية تركيبة مخيالية

ناجمة عن مجموعة التماهيات الثانوية والتي تضللنا عن رغبتنا الحقيقية إذا ما تجاهلنا ارتهانها الأساسي باللاواعي (اللاشعوري).

مرحلة المرآة التي أتينا على ذكرها سالفاً تشكل النواة الأساسية التي تتكون منها الأنا ـ من اكتشافها يدرك الطفل بأنه موضوع منفصل عن أمه. في البداية كان يعيش في حالة اندماجية في جزء من جسد الأم ـ (الثدي)، إذ به يدرك كلية الأم، فيتعمم حبه من الجزء إلى الكل، وتصبح هذه العلاقة بينه وبين الأم ثنائية يتحكم بها المخيال في كل محتوياته الثنائية، من سادية إلى مازوشية، من عدوانية إلى حب اندماجي، ومن الطلب المطلق إلى اللاشيء. هكذا... يصبح الطفل شديد التأثر بالتغيرات التي تحصل عند الأم والتي تنعكس عليه مباشرة، نظراً إلى أنه حبيس هذه العلاقة المنظورة والتي تتمثل بثنائية اندماجية. مفهوم الأنا كاستقلالية ذاتية تشير إلى الجسد وما يملكه عبر وجوده في هذه المرحلة. ولا يمكن للطفل إدراكها إلا عن طريق الترميز، الخروج من استلاب المتخيل لدخول عالم الرمز: أي اللغة بكل تسمياتها؛ وكما يقول لاكان: «مأساة الذات في الفعل (Verbe)، تكمن في أنه يبرهن عن نقصان لوجود»[1]. فإدراكه لذاته لا بد أن يمر من خلال هذا النقصان، كشرط أساسي يمكنه من نقل النقصان غير المرئي إلى وجود مرئي يسعى إلى تحقيقه ولكن دون أن يعلم شيئاً عما كان يحركه من الداخل.

مأساة الفعل هي أنه قد يلبي حاجاته عبر الطلب، إلا أنه يبقى غامضاً بما يختص نقصانه[*]، وكلما تطور في امتلاك التعبير الكلامي كلما أدرك الفراغ في الآخر الذي يوجّه إليه الطلب، اعتبار أن ما يختص بنقصانه لا يستطيع الآخر إلا أن يجيبه بصمت نابع من نقصان في ذاته. فالأم مثلاً لا تستطيع أن تلبي كل طلبات الطفل، مما يجعله يدرك أنها ليست مطلقة في قدرتها، فيتبدد عنده وهم كان مأخوذاً به سابقاً.

البنية الذاتية تنطلق كما قلنا من مرحلة المرآة (أي اكتشاف الطفل لصورته) في الوهلة الأولى يعتبر أنها آخر، يداعبها كما يداعب طفلاً شبيهه: يبكي إذا بكى،

---

(1) Ecrits, p. 155.

(*) الموضوع الذي يحققه الفعل يظهر له أنه ناقص. هذه العملية تتكرر وتصبح تأسيسية حتى تطال وجوده ووجود الأم سيما عندما يناديها فتحضر: يميز ما بين اللامرئي والمرئي، وما بين النقصان والوجود.

تعرف ما تقول. لذلك لا بد من طرف ثالث يعتبر مرجعاً رمزياً، تفك به رموز الكلام، ويصل المرسال إلى إجلاء غموضه. وهذا المكان الرمزي يتمثل في خلفية الأنا المتكلم وفي ما بعد الأنا الموجه إليها الكلام.

يحدد لاكان هذا المكان في الحقل الرمزي بالآخر الكبير كمرجعية ثابتة لاحتواء الحقيقة حتى ولو كان المخاطب كاذباً.

هذا الطرح يشكل المحور الأساسي لما يسمى التجربة التحليلية. لأن همّ من يرضخ لهذه التجربة، هو أن يتمكن من تحويل تعبيره من الكلام الفارغ الذي لا يعني أكثر من دردشة، إلى الكلام المليء الحقيقي الذي يعبر عن ذاته. ويفترض كي تنجح هذه العملية أن لا يؤخذ المحلل في مثاليات الأنا: أي مخاطبة أنا المريض لأنا الطبيب، بل يتعدى ذلك إلى أن ما يرمي إليه هو إبلاغه مرسالاً حقيقياً من وراء الأنا، من الذات الحقيقية، لكي يطال ما وراء أنا المحلل، هدفاً آخر متمثلاً في حقيقة تكمن في اللاوعي (اللاشعور) عند الطرفين. أي هنالك معادلة ما بين هذه الحقيقة والمكبوت.

أي ما وراء المحلِّل يوجد دائماً آخرون حقيقيون يوجه إليهم المريض حديثه، وهذا ما يتبين كلما تقدم التحليل إلى ظهور تحويل باتجاه آخر كان إلى حد الآن في حكم المجهول(*). والتحليل يهدف إلى كشف النقاب عنه، بإعطائه التأويل الصحيح الذي يمكنه من تبديد الوهم الذي كان يسيطر عليه في علاقته به في السابق. وهكذا كلما تقدم التحليل كلما استطاعت الذات أن تعبر عن حقيقة وجودها، أي رغبتها الأصلية، فتحل محل الأنا المخيالية، لكي تتبنى هذه الأخيرة ما كان مرفوضاً ومكبوتاً سابقاً. فتصبح الرغبة والعمل على تحقيقها من إنجاز الأنا في إخراج الذات من الجهل إلى معرفة سابقة . كما يقول فرويد: يحل الأنا في المكان الذي كان يحتله الهو سابقاً.

ومن خلال هذه النظرية تتبين استراتيجية تقتضي حسب قول لاكان: بأن كل عمل تحليلي يقتصر فقط على الأنا؛ سواء في دعمها إذا كانت ضعيفة أو بمخاطبتها، هو ليس عملاً تحليلياً إنما مجرد "حرتقة" لا يتعدى تأثيرها أكثر من عملية إصلاحية لتصحيح موقف الأنا المعوجة. بل على ضوء ما ذكرنا يذهب المحلل اللاكاني أبعد

(*) خلافاً لما كان يعتقد سابقاً، يستعرض المتحلل عبر التحويل على المحلل كل النماذج الأسطورية التي لعبت دوراً في تكوين تاريخه. وهو ما كان يسميه لاكان في الارخنة (historisation) الثانوية.

من ذلك أن يتعامل مع ما هو وراء الأنا أي الذات اللاواعية (اللاشعورية)، وأن ما يتلقاه من تأويل لا ينتظره من أنا المحلل، بل من المرسل إليه، أي آخر يكمن خلف الأنا، بكل ما يمثله من تركيبة لاواعية (لاشعورية).

واستراتيجية التحليل تقتضي تحديد موقعه من التحويل المتوجه إليه، وكل تحليل لا يأخذ هذا الموقع في الاعتبار، تكون نتائجه جانبية ولا تطال المريض في بنيته اللاواعية (اللاشعورية).

وعلى ضوء هذه الرسمة «L» «Schéma L»، يصبح مفهوماً كيف الأنا تتلطى في نماذج متكررة تعبر عن استلابها في المحور المخيالي، وتلغي أي اعتبار لوجود اللاوعي (اللاشعور). ودخولها في نظم التعبير اللغوي، لا بد أن يبرز الفارق ما بين الأنا المعبّرة والأنا المعبِّرة، وأن أي مفهوم قد يصل إليه المحلل لا يمكن أن يطابق الأنا المعبِّرة، لأنه في كل مرة تتحول هذه الأنا من ذاته في دال أول لكي تظهر في دال آخر .

والفارق بين الدال الأول والدال الآخر، هو الفارق الأساسي المتمثل في موضوع يسقط في المرحلة الأولى لكي يجدد الرغبة في المرحلة التالية. وهكذا كلما اقتربنا من هذا الموضوع، كلما زادت المقاومة، لأن الوصول إليه عبر التسلسل الكلامي لا يؤدي إلى كسبه إنما إلى خسارته، وفقدانه نهائياً؛ لأنه في الأساس كان بحكم المفقود، وأي موضوع بديل عنه كانت تتماهى به الأنا في مخيلتها، يتبدد لأن ما هو مفقود كان غير مرئي، ولا يمكن تحديده في أي موضوع آخر، والأنا في ضلالها كانت تتوهم إمكانية استعادته، ولكن ما يظهره التحليل هو تبديد هذا الوهم: عن طريق تحديد هذا الموضوع من كل الاستثمارات النرجسية. وما يكتسبه المتحلل من خيبة أمل وإحباط يتبعه ألم، يعوضه معرفة عن حقيقة أوهامه، وانطلاقة جديدة لرغبة تعبر عن ذاته، وتحل محل الأنا المخيالية.

---

(1) Joël Dor, Comprendre Lacan, Denoël.

Le transfert

التحويل

سنحاول توضيح موضوع التحويل الذي يشكل محوراً أساسياً في التحليل النفسي لأنه يعكس البنية اللاواعية (اللاشعورية) على الصعيد العيادي.

فالتحويل هو الموقع الأساسي الذي ينطلق منه المحلل والذي يتوجه إلى المتحلل، فمن دونه لا يوجد تحليل نفسي . وليس بالغرابة أن يعتمد المحللون على ظهور معالم التحويل قبل البدء في إعطاء التأويلات . فهم لا يستطيعون أن يغيروا شيئاً في التركيبة النفسية من دون وجود عامل التحويل الذي يشكل كما يقول لاكان المسرح الأساسي الذي يمكّن اللاوعي الانتقال من الفكر إلى الفعل.

والسؤال الذي يطرح عندما يأتي طالب التحليل إلى المحلل هو: ماذا يريد منه؟ ما هو طلبه؟ أي بمعنى أن هناك طلباً موجهاً إلى المحلل، قد يكون: غير محدد في البداية، ولكنه يتكرر ويتوضح كلما اقترب التحليل من نهايته. وهذا الطلب إذا ما توجه إلى المحلل فمعنى ذلك أنه قد وضع في مكانة ما على الصعيد الهوامي تخوله تلقي هذا الطلب مع احتمال الإجابة عليه. وإن لم يجب المحلل على هذا الطلب،فهذا لا يعني أنه مرفوض. بل يجعله معلقاً مدفوعاً باستمرار إلى استعادة طرحه في مجالات أخرى، وذلك ضمن سلسلة التماهيات التي تكوّن الذات، والتي اختلط عليها الأمر على اعتبار أنها موجودة في طيات الهوام ولكن متخفية، انطلاقاً من أن هذا الهوام يعبّر عن رغبة لاواعية (لاشعورية) إذا ما توجه الطلب إلى الآخر: يعني أننا نضعه منذ البداية في مكانة معينة، تتحكم بحرية التصرف. وتحدد توجهات المحلل، ومواقفه، انطلاقاً من مفهومه وتفهمه لهذا الطلب. وهذا ما يفسر الاختلاف ما بين الموقع التحليلي والمواقع الأخرى، سواء في الحياة العامة أم في الحياة الطبية. فالمحلل

ارتبط بهذا الموقع من زاوية أنه راغب في تحمل أعبائه والقيام بمهمته، والسؤال موجه بالدرجة الأولى إلى رغبة المحلل.

التحويل هو المحرك الأساسي للتحليل، لأن المريض ينقل إلى المحلل مشاعر وهوامات تأخذ شكل الحاضر. أي تصبح معاشة ثم وجدانية . فالتوجه إلى المحلل دائماً توجه طلب، ينبع من ماض بعيد، من ذكريات منسية أو مكبوتة، ولكن استحضرت بفضل التحويل الحاصل.

فالتحويل في النظرية التحليلية هو المحور الذي انبنت عليه النظريات النفسية، وهو المكان الذي ينفذ منه المحلل إلى نفسية المريض الذي يمكنه من إحداث تغيرات علاجية.

والتحويل كلمة مستقاة من اللغة المتداولة، المصرفية والعقارية، وحتى المشاعرية. أي أصبح بملكية الآخر. أي بمعنى أنه أصبح يملك قدرة على التحرك بفعالية. وقد يكون ذلك لحساب المحوَّل إليه، ولفائدته. وهذا ما يشير إلى أن عملية التحويل هذه مرتبطة أصلاً بشرط أساسي وهو حيادية المحلل.

هذا لا يعني أن المحلل أصبح بمعزل عن تأثير التحويل عليه، فلا بد من التفاعل معه، وإثارة ردات فعل لاواعية (لاشعورية)، اتفق المحللون على تسميتها «بالتحويل المقابل»، ومن المفترض أن يكون المحلل مهيأ لمثل هذا الدور، والتقليل قدر الإمكان من انعكاسات التحويل بفضل تحليله الخاص وتخلصه من المقاومات الداخلية التي تحول دون إدراك ما يتفاعل عنده. وهذا ما سنأتي على توضيحه فيما بعد.

كتب المحللون الكثير من المقالات حول موضوع التحويل، فإن أجمعوا على أهميته في العلاج منذ بدايته حتى نهايته، فإنهم اختلفوا حول مفهومه وتفسيره، وكانت لهم آراء مختلفة، وحتى متباينة؛وبقي مفهوم التحويل يحيطه الغموض والإبهام. وتغيب عن المحللين الرؤيا الصحيحة في تقويم النظريات النفسية، نظراً إلى أنهم خضعوا للتحليل، ولم يتسن لهم الانفضاض نهائياً من شباكه، والإفلات من تأثيره، حتى في تنظيراتهم، وممارساتهم العيادية؛ وخير دليل على ذلك الصراعات التي حصلت بين المحللين الأولين الذين كانوا يحيطون بفرويد، وكذلك الانقسامات التي حصلت حديثاً بين تلامذة لاكان، نتيجة الارتباط التحويلي بشخصيته المؤثرة.

والتحويل حسب التعريف التحليلي هو: عملية تتكشف من خلالها الرغبات اللاواعية (اللاشعورية) لأن المسرح التحليلي يصبح المكان الآني لاستحضار الماضي

ضمن الإطار الذي تحدده العلاقة التحليلية. إنه بمثابة تكرار لنماذج طفلية معاشة في حضور انفعالي[1].

فالتحويل، وإن كان ظاهرة إنسانية تميز الإنسان بعلاقته بالآخر، إلا أنها تأخذ في التحليل منحى خاصاً يتميز التحليل بها، ويبينها كظاهرة لا يمكن التغاضي عنها أو إنكارها، لأنها تحدد البداية والمسيرة حتى نهاية العلاج، والتأويلات، وكل ما يحصل من ردات فعل داخل العلاج أو خارجه. وهو يظهر الوجه اللاواقعي لتطلبات المريض من خلال هواماته، ومعتقداته الخاطئة التي كانت حتى الآن تتحكم بتصرفاته وبمسلكه على غير علم منه. وهذا ما حدا بالمحللين إلى التساؤل عن واقعية التحويل، نظراً إلى أنه تكوينة مصطنعة، أي صنيعة العلاقات التحليلية في إطارها المسرحي. هل التعلق الحبي أو حتى الحب الحاصل، شبيه بالحب الحقيقي أم أنه يختلف عنه؟(*) وهل هناك ما يبرر المشاعر السلبية التي تحمل البغض والكراهية تجاه المحلل، فإذا نظرنا إلى الموضوع من زاوية المشاعر وصحتها وواقعيتها، وعفويتها، فإنها مشاعر صادقة، وصحيحة، لا غبار عليها، تعبر عن واقعية الذات، وأما إذا نظرنا إليها من زاوية ارتباطها بالمحلل وبشخصه، فالموضوع يختلف والجواب عنه يصبح غامضاً.

فالمحلل هو ركيزة محور هذا التحويل، ولا نستطيع أن نحسم حياده بمعزل عما يخالجه من مشاعر مقابلة،أو مؤشرة قد تكون مهيئة وموجهة لمثل هذا التحويل في اتجاه معين. وأعتقد أن هذا الغموض الذي يحيط بظاهرة التحويل يعود إلى موقف المحلل ومشاركته اللاواعية (اللاشعورية) في تكوينه، كونه يظهر وجهاً من رغبة المحلل كانت إلى حد الآن في حكم المكبوت.

ولو استطعنا تطوير نظرية التحويل في مسيرة فرويد، لوجدنا انه فوجىء بهذه الظاهرة الغريبة، التي طالعته في بداية عمله التحليلي. وكانت بمثابة الكمين الذي يسقط به كل علاج، هذا إذا لم يأخذ التحويل موضع الجد، ويحاول المحلِّل تأويله تأويلاً صحيحاً. وحالة «Anna O» كما ذكرنا في (المقال الأول) كانت بمثابة مفترق الطرق التي دفعت برويير (Breuer) صديق فرويد إلى الابتعاد عن التحليل، نتيجة التحويل والتحاول المقابل.

وقد نتساءل أمام هذه الظاهرة وردة الفعل العكسية، التي جعلت برويير يتراجع

---

(1) Vocabulaire de la psychanalyse, p. 494.

(*) سؤال طرحه فرويد في مقالة حول التحويل العشقي في كتابه " تقنيات العلاج النفسي".

أمام متابعة العلاج، لماذا أخذ مأخذ الجد مشاعر مراهقة لا تتعدى الثامنة عشر من عمرها، وهو الطبيب الجليل المتمرس في الحقل العيادي؟ هل تكفي الإجابة عن ذلك بأنه وقع، بكل بساطة، في شباك جاذبية مريضة، وأصبح متيماً بها؟ أم أن السؤال يطرح من جهة Anna O. ما الذي حدا بها إلى اجتذابه وإفتانه، علماً بأنه لايتناسب معها، ففارق السن، ووضعه الاجتماعي والعائلي يحولان، دون السير قدماً حتى في تحقيق أهدافها؟

فما قدمته له يشير إلى طلبها ـ قدمت حبلاً وهمياً، (أي بطناً منتفخاً بالهواء)، فراغاً في جوفها ـ نقصانها. أما بروبير فارتد خائفاً، فاقداً إمكانياته وقدراته في استيعاب وتفسير ما يحصل. العارض ليس موضوعاً مجرداً، بل يرتبط به مستهدفاً من خلاله، وهذا ما أدركه وما جعله في آن واحد مترددا. فهي تطلب نقصانه لكي يستطيع أن يعترف بنقصانها، بكونها امرأة دخلت في تصنيف التباين الجنسي. فإن حولت طلبها إليه في تحويل عشقي، ليس إلا لأنها وضعته في مكانة المعلم، المفترض العارف لما يمكن أن تشعر به امرأة وما يخالجها، وهنا يكمن السؤال والجواب في آن واحد.

وكذلك إذا نظرنا لفرويد من زاوية معالجته لحالة «دورا»[1]، نراه يشتم رائحة التحويل منذ البداية: عندما أبدت دورا اهتمامها برائحة السيجار، فالتحويل حسب تحديده كناية عن نقله، كما بيّن في تفسير الأحلام لرغبة لاواعية (لاشعورية)، إلى المواد التافهة المتبقية من أحداث نهار اليوم السابق[2]، يقول «المتمثل اللاواعي (اللاشعوري) غير قادر على إيلاج ما قبل الوعي (الشعور) بشكله الحالي، فهو لا يستطيع أن يؤثر إلا إذا تمكن من عقد صلات مع متمثل مبهم تافه من داخل ما قبل الشعور، يمكنه حينئذ من تحويل فعاليته إليه بعد أن يكون قد تلطى به. هذه هي حصيلة التحويل الذي توضح لنا العديد من الظاهرات المثيرة للحياة النفسية للعصابي». ولكن يبدو أن فرويد انتبه إلى ظاهرة التحويل التي تحدث من جراء لقاء المريض بالطبيب . ففي كتابه «دراسات عن الهستيريا» سنة 1895، ألمح إلى ما يمكن أن تحوله المريضة إلى شخص الطبيب من أحداث لاواعية (لاشعورية) كانت مكبوتة حتى الآن. وتصبح بالنسبة لها معاشة بدلاً من أن تتذكر مصدرها، وارتباطها بذكريات

---

(1) Cinq psychanalyses (Cas de Dora).

(2) تفسير الأحلام «فصل الشعور واللاشعور».

أخرى، نظراً إلى أنها في الأساس تمثل رغبة ممنوعة بقيت مكبوتة في حقل اللاوعي (اللاشعور).

وظاهرة التحويل كما بدت لأول وهلة في التحليل، مشجعة ومحركة للعلاج في الاتجاه السليم، ولكن سريعاً ما تبين له أنها وإن كانت عنصراً هاماً، فهي عائق في حد ذاته، يعزز مقاومة المريض، ويحول دون استذكار الماضي. وتوضحت هذه الفكرة عنده بعد خيبة أمله المتكررة في علاج التنويم المغنطيسي. من حيث إن المريض كان يبدي تحسناً وتعاوناً مع الطبيب ما دام هذا الأخير على علاقة معه، ولكن بمجرد توقف العلاج فإن كل الجهد الذي بذل، وكل التحسن الذي حصل يتبدد. هذا بالاضافة إلى العديد من المرضى الذين يقاومون منذ البداية،ويحولون دون استمرار العلاج. واعتبر فرويد أن التحويل ظاهرة مرضية يجب معالجتها كلما ظهرت بوادرها على أساس أن العارض يحمل في طياته تسوية ما بين نزوات ممنوعة، ودوافع مضادة.

وإن كان في البداية لم يعط هذه الأهمية للتحويل في دينامكية العلاج، خاصة عندما عالج حالة دورا، إلا أنه سريعاً ما عاد عن هذا التفكير بعد تجربة تحليلية خلال عدة سنوات. تبين له أن العديد من الحالات التي بأت بالفشل كانت نتيجة عدم فهمه وإدراكه لظاهرة التحويل في حينها. وهذا ما يشير إليه بوضوح في تحليل حالة دورا، من خلال الهوامش التي زادها فيما بعد.

فنحن نعرف أن حالة دورا باءت بالفشل رغم النتائج الجزئية التي حصل عليها في بداية العلاج.

والهدف من نشر هذه الحالة كان تعليمياً أكثر مما هو برهان على نتائج التحليل. كان همّ فرويد آنذاك التوجه إلى المحللين، وتعليمهم وإقناعهم، أكثر مما هو برهان على شفاء المرضى. هذا التحويل من فرويد إلى المحللين كان امتداداً للبقية المتبقية من تحويله الأساسي نحوFleisse - همه الأساسي الإقناع، وتجميع أكبر عدد ممكن من العاملين في الحقل التحليلي للذين يؤمنون بنظريته، فكانت صداقاته وعلاقاته متمحورة حول نظريات التحليل، ولا يتردد لحظة في الانفصال عن عضو ما رغم الصداقة التي كانت تربطه به إن ما تبين له أنه يخالفه في الرأي أو انحرف عن الخط التحليلي الذي رسمه. فتحويله على Fleisse استمر عدة سنوات حتى بعد الانفصال الذي كان مستهلكاً من قبل الطرفين، وكان من أسباب الانفصال أن نظرية العصاب أخذت منحى بعيداً عن العلم والواقع، أو على الأقل بعيدة كل البعد عما كان يفكر به فرويد.

وذكرى هذا الانفصال بقيت قابعة، كجرح لم يلتئم في نفسه إلى أن ظهرت إلى حيز الوجود بعدما تبين له أن الاستمرار مع يونغ أصبح مستحيلاً. ويذكر جونس أن فرويد بعد آخر اجتماع مع يونغ في Parc Hotel، أصيب بحالة إغماء، عللها فرويد فيما بعد بأنها دليل استمرار تحويله على Fleisse.

في حالة دورا: تطرق فرويد إلى حالة التحويل، واعتبر ان دورا فاجأته بالانقطاع عنه قبل ان يتمكن من السيطرة، وإدراك مغزى تحويلها نحوه. في البداية اعتبر انها وضعته في موضع الأب، ونظراً إلى تقارب السن كانت حذرة في علاقتها معه على غرار ما كانت تشعر به تجاه الاب، ولربما فكرت بأن هناك تواطؤاً ما بين الأب وفرويد، علماً بأنها كانت ترتكز منذ بداية العلاج على أنها جزء من صفقة ما بين الأب والسيد «ك»، أي أن هناك مقايضة، بأن يتغاضى الزوج عن علاقة زوجته، مقابل التنازل لها عن ابنته.

وهذه الصفقة، وإن لم تكن معلنة، ولكنها كانت قائمة بين الأطراف، لكل دور يلعبه؛ والحسبة تقوم على أربع قوائم.

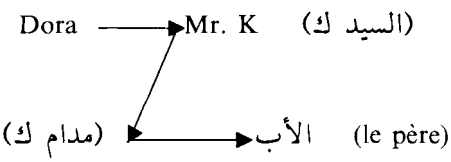

والشيء الذي لم يدركه فرويد في حينه: هو أن العلاقة التحويلية ابتدأت منذ زيارة الأب لفرويد: حيث إن مطلب هذا الأخير كان مغايراً لمطلب دورا، فالأب يريد أن يتأكد من اتهام فرويد له وأن تفكير دورا وهمي، ويريد منه أيضاً أن يقنعها بالإقلاع عن تلك الأساليب المسيئة بحق «Mr. K» أي لم يكن في نية الأب أن يصارح فرويد عما يحدث نظراً إلى أهمية الارتباط العاطفي بـ «Mme. K» وإخفاؤه لذلك ليس إلا رغبة منه في الاستمرار في العلاقة، وإعادة دورا إلى دورها الطبيعي كي تستمر هذه العلاقة.

فهكذا منذ البداية يبدو بأن الطلب التحليلي كان مهيأ للفشل نظراً إلى أن هذا الطلب انطلق من الأب بدل أن ينطلق من المريضة نفسها.فهي، نزولاً عند رغبة والدها، اتجهت نحو فرويد، من حيث إن تحويلها نحوه كان تحويلاً إحباطياً، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار ما قاله لاكان عن الهستيريا، بأن رغبتها في النهاية هي "رغبة إحباط". فمنذ البداية ارتسمت علائم التحويل: وإذا كان الأب قد عقد صفقة مع

على إحدى الساحات أرى تمثالاً أدخل بعدئذ في بيت أسكنه، وأذهب إلى غرفتي حيث أجد رسالة من أمي.

وبما أني خرجت على غير علم من أهلي، فإنها لم تشأ أن تخبرني بأن والدي أصيب بمرض.

«الآن قد توفي وإذا شئت تستطيعين المجيء». أذهب إلى المحطة وأسأل أكثر من مئة مرة أين هي المحطة، وكانت الإجابة متقلبة: خمس دقائق. وبعدها أرى أمامي غابة كثيفة حيث أدخل وأسأل رجلاً ألتقي به: يقول لي«ساعتين ونصف بعد» (3 ساعات). «يعرض نفسه لكي يرافقني، أرفض، وأرحل لوحدي. أرى المحطة أمامي ولا أستطيع بلوغها». انتابني شعور بالخوف على غرار ما يحصل بالحلم عندما لا تستطيع أن تحرك ساكناً. وبعدها أجد نفسي في البيت. من المحتمل أن أكون قد انتقلت بسيارة، ولكني لا أعلم. أدخل البوابة وأسأله عن شقتنا «تفتح المشرفة على البيت وتقول لي: بأن أمي والآخرين قد أصبحوا في المقبرة».

الحلم كالرسالة: هناك مُرسِل ومرسَل إليه ـ كما يقول لاكان الآخر الكبير ـ يعيد طلباتنا سواء في الحلم أو خارجه بشكل مقلوب: أي إن عرض شخص ما أحبه على امرأة، يكون طلبه كي يصبح بالمقابل محبوباً منها - هو ما يسمى بحلم التحويل، أي موجه إلى فرويد، الذي هو بمكانة هذا الآخر، موقع الطلبات والتمنيات وإن كانت لا تتحقق(*).

تكوّن الحلم عند دورا في فترة كانت تفكر بها في الانقطاع عن فرويد، ونلاحظ هنا كل ما ورد من تفسيرات، ومواد غزيرة عن طفولتها، وكشف اللاوعي عندها تصبح ثانوية أن المهم ليست المعلومات هذه التي تكشف عن ماضيها إنما ما ارتبط بفعل اللاوعي (اللاشعور) بالمحلل نفسه (أي العلاقة به) بسبب التحويل.

فرويد قبل الحلم كان يؤكد لدورا بأنها تكبت في نفسها حباً دفيناً للسيد K وأنها تخاف من أن تبوح به، وأن الصفقة أصبحت شبه تامة، إذ يكفي أن توقِّع دورا عليها حتى يتم كل شيء. السيد «ك» يحب دورا، وهو مصمم على ترك زوجته. السيدة K تحب والدها، والأب لا يطلب غير ذلك إذ كان هدفه منذ البداية تحقيق هذه الصفقة. هذا بالإضافة إلى أن والدة دورا لم تعد تعني له شيئاً منذ فترة طويلة.

(*) عادة الحلم رسالة لها عنوان موجهة إلى الشخص الذي يسرد عليه. اذا كان الزوج يعني أن مضمونه اللاواعي يشير إلى طلبات لا يستطيع الوعي الإفصاح عنها. كذلك الأمر في حال التحويل.

هذا هو موقف فرويد قبل الحلم وبعده، بل إنه أكد لها بأن حبها للسيد «ك» لم يجد الفرصة المناسبة لكي يظهر ويتحقق فعلياً. ولكن يتساءل فرويد طالما أن القصة بهذه البساطة،وكل شيء مهيأ لها كي تنتهي نهاية سعيدة (Happy End)، فلماذا هذا التعقيد ولماذا هذا الغموض الذي عطل كل شيء، وجعل البنية المركبة من أربع قواعد:

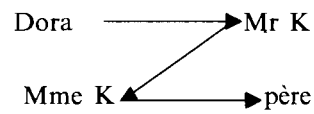

تنهار رغم كل فرص النجاح التي كانت مهيأة. فبعد حادثة البحيرة، تقول دورا: إن كل شيء تعقد، فهي أصيبت بانهيار عصبي، فكرت بالانتحار، رسالة وداع إلى أهلها، إنطواء على نفسها، تقلب في مزاجها يرافق ذلك ضغط كبير على والدها لكي يقطع علاقته مع العائلة «ك»؛ كل ذلك كان بعد حادثة البحيرة، والتي اقتصرت على جملة، وانفعال وصفعة: قال السيد «ك»: زوجتي لا تعني شيئاً لي وقبل أن يتابع كلامه تلقى الجواب بصفعة على وجهه ختمت المشهد.

فرويد كان في حيرة من أمره! إذا كانت دورا تحب «السيد K» فعلاً فما هو السبب الذي حدا بها إلى مثل هذا التصرف؟ سيما أنه وجد خاتمة هوامية تثبت هذا الاحتمال: من حيث إن دورا أصيبت بعارض زائدة دودية بعد تسعة أشهر، كما لو كانت أمنيتها الداخلية متجهة بدافع الندم، لو أنها استسلمت له لكانت الآن رزقت بمولود منه.

في الجلسة التالية قررت دورا وقف العلاج، وإنها فكرت بذلك منذ 15 يوماً. لا يخفي فرويد خيبة أمله بعد أن كان على وعد بأحسن النتائج، وبعد السؤال لماذا 15 يوماً (المهلة القانونية لصرف عامل من الخدمة) تبين له أن وراء ذلك قصة خادمة حاول «السيد K» مغازلتها ومضاجعتها، واستعمل بالمناسبة الجملة نفسها التي عرضها على دورا: بأن زوجتي لا تعني شيئاً بالنسبة لي. ولكن الفارق بأن هذا الأسلوب نجح مع الخادمة، ولكنه فشل مع دورا. تعززت افتراضات فرويد، للخروج من المأزق بأن رفض دورا أصبح منطقياً: فهي ترفض أن تعامل مثل الخادمة، وبحاجة إلى برهان أقوى على حبه لها إذا كان مصمماً، يرفعها إلى المستوى الذي يليق بها، وهنا يقول فرويد: بأن دورا أصيبت بخيبة أمل كبيرة نتيجة عدم تكرار

المبادرة الجديدة التي كانت بانتظارها. وهنا أيضاً يتوضح السؤال عن انتظارها 15 يوماً قبل أن تفضح السيد K سيما هنا إذا كان الانتظار انتظار أمل، أو وعد، أو بادرة جديدة، ترفعها إلى المكان اللائق وتفرق بينها وبين الخادمة، إلخ . نرى أن كل تفسيرات فرويد أتت فيما بعد بهذا الاتجاه.

واعتبر أن التحويل الحاصل هو بالفعل نتيجة نقلة لمشاعرها تجاه «السيد K» إليه (أي فرويد)، فهي تردد معه من خلال التحويل ما كانت قد فعلته بـ«السيد K». الانقطاع عن التحليل هو ضربة مباشرة إلى نظرية فرويد، والى كل ما كان يمنّي به نفسه من نتائج تعطي البرهان الواضح على صحة اكتشافاته. فدورا صفعته في هذا المكان الموجع على غرار «السيد K» الذي كان يمني نفسه بأسعد اللحظات من خلال تصريحه لها، وكانت الصفعة نفسية أكثر مما هي واقعية.

هناك تجانس ما بين موقف «السيد K» وبين موقف فرويد. وهذا ما جعل فرويد يشعر بنوع من التعاطف والتفهم نحو «السيد K» فأخذ جانبه، واعتبره شخصاً جذاباً لا بد من أن يكون زوجاً صالحاً لدورا، سيما أنها في الواقع تحبه، ولكن على غير علم منها، وهذا ما حاول الكشف عنه. وكانت النتيجة أن دورا نزعت الكرسي من تحته على غرار ما حصل لـ«السيد K»؛ فكلا الاثنين بقيا على الأرض من دون سند: أمام قهقهة الهستيريا وسخريتها. وكلاهما لم يفهما شيئاً عن الأنوثة. فسؤالها قد طرح في الحلم أكثر من مئة مرة: كان الجواب دائماً: التغيير بعد 5 دقائق .

وعندما يطرح السؤال أكثر من مرة معنى ذلك أن السائل لم يتلق الجواب، أو شعر بأنه غير مسموع. والمقصود هنا الجهة التي يتوجه إليها خطابها، وهو فرويد. فسؤال دورا المستمر: ما هي الامرأة؟ يعني تفتيشها عن الامرأة المثالية، لكي تتماهى وتسأل عن موقعها وعن رغبتها تجاه الرجل . والحلم يشير إلى هذا الاستلاب الذي حصل لها أمام لوحة ـ la Madona Sestine ـ دورا تبدو مأخوذة ساعتين ونصف أمام هذه اللوحة: تتساءل ما هو سر الامرأة؟ وماذا يحركها من رغبات؟ فدورا كما يشير وصف الحالة، مهتمة بجسدها وبتكوينها، للتعرف على أحاسيسها عن طريق امرأة أخرى تكون موضع إعجابها وحبها. فوصفها لجسد «السيدة K» بياضه ـ نقاوته، إلخ. وحبها وتعلقها بها يؤكدان هذا الاتجاه ـ فاهتمامها بـ«السيد K» لم يكن إلا انطلاقاً من اهتمامها بزوجته والتي كانت محور العلاقة: فهي التي تجسد مجاز الحب

الأبوي(*) ـ وحولها انعقدت وارتبطت كل العلاقات الأربعة. فهي العنصر الأساسي عن رغبة الرجل. «السيد K» بالنسبة لها لم يكن إلا صلة أو همزة وصل على صعيد تماهي ثانوي: يمكنها من موقعها التساؤل عن رغبة الرجل تجاه الامرأة. وماذا يريد منها؟

دورا كانت تجهل ما هي رغبتها، إذا لم تجد امرأة تتماهى بها لكي تتعرف عليها من خلالها. ومن دون هذا التماهي، وهي ظاهرة ثابتة عند الهستيريا، تجد نفسها في حيرة منه، وأمام نقصان لا تستطيع تحمل تبعاته؛ فهي تريد أن تبقى رغبتها بالرجل دائماً في حالة نقصان وتطلب منه أن يتحمل ذلك، لأن تلبية كل طلباتها تعني تجاهل هذا الرجل لهذا النقصان، مما يولد الخوف والقلق عندها. ويدفعها إلى الاحتجاج والعراك معه كونه لم يفهم ذلك.

وإذا ما تلقى فرويد نفس الصفعة التي تلقاها «السيد K»، فلا بد أنه ارتكب نفس الخطأ. وإن كان للتحويل من أهمية فلكونه دائماً إعادة لمواقف سابقة، لتركيبة هوامات، كانت إلى حد الآن فعالة وميكانيكية على غير علم من العصابي؛ وفي التحويل استحضار لها وإخراج في شكل واقعي، يمكن المحلل إذا ما أدركها في حينها أن يكشف عنها. وكما يقول فرويد في كتابه[1] عن مصير النزوة المتخفية في الهوام: فأمام الكشف عنها وإدراكها احتمالان: إما أن يتقبلها ويروض نفسه على قبولها كي تصبح جزءاً من الأنا يتعايش معها، وإما أن يرفضها بعد أن يجردها من كل فعالية، ويحول الطاقة المتمثلة بها إلى أهداف مغايرة ويستثمرها في أعمال بناءة، وهذا ما يسميه بالتسامي (Sublimation).

خطأ فرويد الذي اعترف به فيما بعد إذاً، هو أن دورا ضللته عندما جعلته يعتقد أنه يحتل في التحويل مكان «السيد K».

وكان التحويل المعاكس لفرويد هو دعم هذا الدور والسير في طريقه. ولكن من البديهي أن لا حاجة لدورا لإخفاء أو كبت مثل هذه المشاعر، سيما أنها تتهم والدها علناً بالتواطؤ لكي تقع في حب «السيد K».

(*) كان والد دورا يعاني، حسب فرويد، من عجز جنسي . وهذا ما يعني لدورا أنه لا يملك الفالوس الموعود. لكن عشقه لمدام K جدد الوعد والأمل لذلك أصبحت هذه الاخيرة ضرورة حتمية لبناء أنوثتها والتعرف عليها.

(1) Métapsychologie, (Pulsions et destin des pulsions).

يتبين أن شغلها الشاغل، والذي يكوّن كبتها: هو أنوثتها، تتأرجح في التماهي لكي تتساءل باستمرار: هل هي رجل أم أنثى؟ فـ«السيدة K» تمثل السؤال والجواب في آن واحد، فهي مستلبة مأخوذة بها على غرار اجتذابها أمام اللوحة la Madona» «Sestine؛ كل هذا تشير إليه في الحلم. فعندما تقول غابة كثيفة حيث أدخل اسأل رجلاً يقول لي: «ساعتين ونصف بعد. يعرض نفسه لكي يرافقني ـ أرفض وأرحل لوحدي...» فهذا الرجل الذي تصادفه في الغابة الكثيفة هو ما تسنه الطبيعة من قوانين، من أن الامرأة خلقت لكي تتمم الرجل،وهذ ما كان يعرضه فرويد باستمرار: من أن «السيد K» هو الرجل المناسب لدورا، ويكفي أن يرفع حاجز الكبت حتى ترتمي في حضنه. ولكن كما يظهر في الحلم أن دورا، أمام طلب الرجل مرافقتها، ترفض، وهو مرسال موجه إلى فرويد. من حيث إن رغبتها هي غير ما يشير اليه فرويد . فكل التداعيات التي حصلت كانت تعبر عن تساؤلاتها الجنسية حول الرجل والمرأة، وإن اهتمامها بـ«السيدة K» ـ هو نابع من اهتمامها بالقاموس الذي كانت تقرأ فيه حول الجنس، لأن حشريتها هي طلب معرفة، وليست معرفة مجردة. بل معرفة تمس رغبتها، جسدها، وأحاسيسها. فمن هذا المنطلق كانت «السيدة K» تمثل الأنا المثالي بالنسبة لها، فهي بحالة استلاب بالنسبة لها «أي السيدة K»: لأنها تمثل الامرأة المثالية وهي معرفة تجهلها. والتحويل، إذا تتبعنا خطى فرويد، أخذ هذا المنحى، فهي قد وضعته في نفس الموقع الذي وضعت به «السيدة K». فهو بمكان العارف، المفترض على الأقل أكثر منها حول الأنوثة. وتجاهل فرويد لهذا الموقع التحويلي هو الذي حال دون متابعة العلاج، على غرار ما حصل بالنسبة «للسيد K». فهذا الأخير لم يصدمها ويهدد البنية العلاقية: Dora ⟶ Mr K

Mme K ⟶ Père

إلا بعد أن ألغى «السيدة K» من العلاقة التي أصبحت بحكم هذا الإلغاء ثنائية بدلاً من أن تكون رباعية. فإلغاء «السيدة K» هو إلغاء لمجاز رغبتها التي من خلالها تستقصي التعبير الواعد عن الحب الأبوي، وهذا ما يفسر التدهور الذي حصل فيما بعد. وفرويد أصر على تكرار هذا الموقف بتجاهله لموقعه التحويلي. فإصراره على أن التحويل هو من خلال «السيد K» يعني أنه أنكر الموقع الأساس وهو إلغاء «السيدة K». ويعترف فرويد بخطئه بهامش أضافه سنة 1923 ـ بأن تجاهله لموقعه التحويلي

هو تجاهل للتحويل الجنسي المثلي من دورا إلى «السيدة K»(*)، والتحويل يكرر إعادة مراحل ذكريات ومواقف، عن طريق الاستحضار عوضاً عن الاستذكار.

أي ما هو ذكرى يصبح بالتحويل فعلاً، يتبدد إذا ما كشف النقاب عنه وتم إدراكه. ولكن فرويد يقول: لا يمكن للمحلل أن يدرك موضوعاً مكبوتاً إذا لم يتيسر له فك عقدة كبته الذاتي، أي لا يمكن أن يدرك عند المريض ما يتجاهله في نفسه نتيجة الكبت الذاتي. وهكذا يعترف فرويد بخطئه بالنسبة لحالة دورا[1] فيقول: كلما ابتعد الزمن عن الطريقة التي أنهيت بها هذا التحليل، تبين لي أنني في الوقت المناسب، حب دورا المثلي «للسيدة K. . .» وهو المنحى اللاواعي (اللاشعوري) الأقوى. كان يمكن أن أدرك ذلك، لا يوجد شخص غير «السيدة K» قادر على أن يكون المنهل الأساسي لمعارفها الجنسية، والتي اتهمتها دورا، فيما بعد، بأن لها حشرية أكثر من اللازم حول هذا الموضوع. ومن الغريب أنها كانت على معرفة بكل المواضيع الجنسية المتداولة، لكنها تجهل مصدر هذه المعرفة. الحلم الثاني كان يمكن أن يكشف النقاب. ويتابع فرويد: "كنت أنشغل في علاجاتي السابقة للعصابيين، بسبب عدم إدراكي في حينه لاهمية الميول الجنسية المثلية، وهذا ما كان يضعني في حيرة كاملة".

انطلاقاً من هذه الخبرات الفاشلة اكتشف فرويد أهمية التحويل، واعتبره المحرك الأساسي في التحليل. فهو العقدة التي تتمركز بها المقاومة والحل في آن واحد. وقد كرَّس دراسة كاملة لموضوع حب التحويل سنة 1915 ـ سنحاول توضيحها:

ورد ذلك في تقنية التحليل في مقالين، الأول: ديناميكية التحليل النفسي ـ سنة 1912[2]، والثاني ملاحظات حول الحب التحويلي سنة 1915[3]. وبين المقالين، مقال هام حول الاستذكار والإعادة والاستخلاص سنة 1914[4].

في المقال الأول يحاول فرويد التأكيد على أن التحويل هو ظاهرة إجبارية لا

(*) ظهور الحالة الجنسية المثلية عند العصابي، تختلف عما هي عند الانحرافي. فالأولى تعتمد على كبت وتجعل من الموضوع الجنسي (رجلاً أم أنثى) مثالا يحتذى. أما الثانية فمبنية على النفي للفارق الجنسي وهي نرجسية لا ترغب إلا ما يعكس صورتها بالكامل.

(1) ص (90) هامش، 1923.

(2) تقنية التحليل النفسي، ص50.

(3) المصدر نفسه، ص 116.

(4) المصدر نفسه، ص 105.

يمكن تفاديها منذ أن بدأ العلاج، وهي متواجدة في ظروف حياتية ثانية: في العلاقات العامة، في طريقة الحب، في الزواج، في الطب، إلخ. ولكن التحليل النفسي أوجد لها مختبراً اصطناعياً لكي تظهر بأقل ضرر ممكن نظراً لتحييد المحلل. فهو كما يقول: بعض المحللين دورهم أشبه بدور الجراح الذي يقوم بعملياته مطهراً من أي تلوث خارجي. فالتحويل الذي يظهر ويتمحور حول شخص المحلل، يتطلب منه التدخل لوضع حد لبعض الانفعالات، أو توضيحها وتأويلها، لنقلها إلى مستوى آخر. فمن هذه النقلة يرشح مكسب ليبيدي جديد يوسع حقل إمكانيات المريض والاستفادة من قدراته. وهذه النتيجة التي يتوخى الوصول إليها، تنطلق من نظرية اعتمدها فرويد، وتقول: بأن الدوافع الليبيدية التي تكوَّنت في تركيبة معينة من أثر انطباعات الطفولة، تنقسم إلى قسمين: قسم يتوجه نحو الشعور ويؤدي إلى انطباعات نفسية واعية، وقسم آخر يبقى لاواعياً (لاشعورياً) مكبوتاً يوظف في هوامات، ويصبح في حكم اللاوعي (اللاشعور) فاعلا يتحكم في بعض التصرفات وفي اتخاذ بعض المواقف التي تتكرر في أشكال مختلفة تغيب عن وعي الذات. وإجمالاً كلا القسمين الواعي (الشعوري) واللاواعي (اللاشعوري) من الليبيدو الموظفة يلعبان متآزرين دوراً موحداً في تكوين النوعية العلائقية التي تتكرر مع الأشخاص. والمحلل بحكم موقفه، هو الشخص المهيأ لكي تتمحور حوله الانطباعات التي تكونت منذ الطفولة. وهذه الانطباعات هي التي تحدد المسلك، والطباع، حسب النموذج الطفلي المكون للذات. فهذا النموذج مرتبط بنوعية معينة من الطلبات من حيث إن عدم الإجابة عنها في التحليل النفسي يجعلها تتكرر عبر سلسلة نكوصية مرتبطة بالكمية الليبيدية المتشبثة في مرحلة من المراحل الجنسية. والتأويل هنا يمكِّن المتحلل من وعيها وإدراكها، فيحرره من هذه المواقع المتخلفة، على غرار الفرقة العسكرية التي تكون قد تخلت عن المراكز الأولية كانت حبيسة فيها مواقع خلفية؛ فتحريرها من هذه المواقع، يمكنها من التحرك، والعودة إلى الخطوط الأمامية للقيام بواجبها. ويفترض أن يتم ذلك بنجاح، ودون مقاومة، ولكن التجارب التحليلية بيّنت، كما ألمحنا سابقاً، ان التحويل يستقطب المقاومة ويتحول في مرحلة من المراحل إلى حاجز يحول دون نجاح التحليل توقف فرويد عند هذه النقطة، وتساءل عن أسباب ظهور هذا التحويل في التحليل، واعتبر أن التحليل غير مسؤول عن ظهوره، فمن دواعي العصاب أنه يحمل في طياته أسباب التحويل.

أما فيما يخص تحوُّل التحويل إلى مقاومة، فهذا الموضوع بقي محافظاً على غموضه رغم كل التفسيرات التي حاولت توضيحه، باعتراف فرويد نفسه. إلا أن هناك بعض المعطيات التي يجب أن ندركها، وإن كانت لا تؤدي إلى حل المشكلة حلاً تاماً، فالموضوع أوسع من أن يعالج من جهة المتحلل فقط؛ فكما يقول لاكان «يجب أن يعالج وليس هنالك من مقاومة في التحليل إلا مقاومة المحلل نفسه». ولنا عودة إلى هذا الموضوع وعلاقته فيما يختص بالتحويل المقابل.

فالتحويل لا بد أن يؤدي إلى مقاومة تزداد كلما اقتربنا من النواة المرضية، أو العقدة الشبقية. وإجمالاً يستشهد فرويد بيونغ ليؤكد أن عملية انطوائية تحصل من قبل الليبيدو. أمام رفض الموقع التحليلي إعطائها الاشباع المباشر، عائد إلى مواقف نكوصية تستعين بها، وتستثمرها على الصعيد الهوامي، لكي تحصل على نوع من الاشباع. والذي يحصل أنه كلما حاول المحلل الكشف عن هذا الموقف تتجمع القوى كلها في مقاومة واحدة لدحض محاولته. ومشكلة العصابي أنه يوظف هواماته اللاواعية (اللاشعورية) أكثر مما يوظف الواقع، ولا بد أن هناك مكاسب جانبية من هذا الموقع أو ذاك إذا كان لا يحصل من الموقع اكتفاء ذاتي يعوض عن النقص الأساسي الحاصل من إحباط النزوة. وفي مثل هذه الحالة تقوى المقاومة بقدر ما كانت المكاسب الجانبية كبيرة ـ «المقاومة ترافق العلاج خطوة خطوة، وتترك بصماتها على كل فكرة، على كل فعل يصدر عن المتحلل، أي بمثابة تسوية ما بين القوى المتجهة نحو الشفاء والقوى المضادة لها». حسب قول فرويد.

فالتحويل يتكوّن من صلب العقدة (المرضية الأوديبية) وفي المرحلة التي يتم بها هذا التشويه ما بين المقاومة والعمل الاستنتاجي. يحصل التحويل ـ يقول فرويد ـ «عندما يتحول شيء ما من عناصر العقدة (كان موجوداً أصلاً بها) إلى شخص الطبيب، فيصبح بمثابة الفكرة التالية التي تشكل المقاومة، والتي تؤدي إلى توقف توارد الافكار»[1].

والسؤال هنا يأخذ اتجاهين، الأول، هل الفكرة بحد ذاتها تصبح مقاومة إذا ما انتقلت إلى الطبيب المعالج؟ أي بمعنى آخر هل أن هذه الفكرة التي كانت في السابق لا تجد أي صعوبة كي يتكلم عنها نظراً إلى كونها مرتبطة بأحداث سابقة، أي لم يعد

(1) ديناميكية التحويل، ص 54 ـ 55.

وهذا النوع من الهيام يمتد بجذوره إلى الطفولة الأولى، من حيث إنه يصبح تكراراً لمرحلة يكون قد مر بها المريض، ولفها فيما بعد النسيان والكبت. ودخول المحلل ضمن السلسلة، يجعله يستقطب المشاعر التي كانت مكبوتة، يصبح بحكم مكانه المتخيل قطباً هاماً تسقط عليه المشاعر المنسية. والتحويل قد يتطور إلى مقاومة بقدر ما أن هذه المشاعر، أو حتى المواقف التي يعاد سكبها على صعيده فتسقط عليه، تصبح على المسرح التحليلي فعلية وحاضرة، بدلاً من استذكارها فكراً وإدماجها في ذاته.

فهذا الفعل بدلاً عن الاستذكار يؤدي إلى اتخاذ موقف من المحلل ـ سواء كان حبياً أو عدائياً ـ لا يمت بصلة إلى المحلل بقدر ما هو إعادة لأحداث سابقة كانت تسيّر حياته في فترة من الفترات، أتى عليها النسيان. فبدلاً من استذكارها، يكررها فعلياً، كما يقول فرويد، على صعيد التحويل.(*)

والسؤال هنا: لماذا هذه الصعوبة في الاستذكار؟ ولماذا أصبح الفعل أوفر جهداً، وأفضل طريقة من الاستذكار؟ لماذا هناك تفضيل الفعل على استعادة الذكرى؟ أسئلة نطرحها ونأمل الإجابة عنها فيما بعد.

المحلل، يقول فرويد: عليه أن يفتح معركة على ثلاث جبهات: على الصعيد الشخصي، بألا ينزل عن المستوى المطلوب، على الصعيد الخارجي ضد أعداء التحليل، ثم على صعيد المريض الذي يقاوم الاعتراف بديناميكية النزوات الجنسية، والتحويل العشقي، أو الكرهي.

التحويل لا يجب أن يتعدى حدوداً معينة، سواء في الاتجاه السلبي أو الإيجابي، حتى لا يفلت منه زمام الأمر، ويصبح وعي المريض في حكم العواطف الجامحة التي قد تطيح بالعلاقة التحليلية وبنتائجها. وهذا ما قصده فرويد بكلمة تعبر عن موقف المحلل (La mentalité bienveillante) ـ أي الحياد الساهر على مصلحة المريض ـ فهو ليس مطلوبا منه أن يساند ويدعم اتجاهاً معيناً أو طرفاً في النزاع: إنما المطلوب أن يحافظ على موقف محايد حتى لا يصبح هو طرفاً في هذا الصراع. ومن هنا يصبح كلامه مسموعاً وله صدى لأنه فوق الأزمة. والمشكلة التي يقع بها المحلل هي أنه في التحويل السلبي يدخله المريض كطرف في النزاع، ويصبح من الصعب عليه أن ينقذ

(*) يقول لاكان: Le transfert est la mise en acte de L'inconscient.

شخصه، ويحيده عن الأطراف المتنازعة. وكل تأويل يصدر عنه، يفسر حتماً من زاوية الدور الذي أعطي له؛ وهذه العلاقة تؤدي إلى فشل العلاج وتوقفه إذا اجتاحت كل عناصر الوعي التي تربط الأنا بالواقع، والتي لم تعد تميز ما بين المحلل في الهوام، وما بين المحلل في الواقع.

وأهم عنصر يتأكد لنا في التحويل، هو عنصر الإعادة، فكل النزوات والهوامات تتكرر باستمرار خلال التحليل، وهذا عامل ثابت اكتشفه فرويد في نظريته الثانية، التي تكلمت عن الإعادة وعلاقتها بالموت. وأول مرة تكلم بها عن الإعادة هو في الحديث عن لعبة (FOR-DA) محاولة للدخول في حقل الرمزية. لعبة استنبطها طفل هو حفيد فرويد كان يعاني من غياب أمه كل صباح . فاستنبط هذه اللعبة كي يتمكن من التحكم بغياب الأم وحضورها عن طريق الرمز: البكرة، وكنا قد أتينا على شرحها سابقاً.

بهذه اللعبة، يقول فرويد، دخل الطفل عالم الرمز، وأن التكرار يهدف إلى استعادة خبرة ما، سيما إذا كانت مؤلمة، كي يتمكن من السيطرة عليها واحتوائها عن طريق الترميز.(*)

فالإعادة من أصل بنية النزوة ومن ضرورات حتميتها تعيد نفسها في كل مرة بإخراج جديد يفارق عن سابقتها، الشيء الذي يغيب الرؤيا ويعطل إدراكها في محتواها الحقيقي. وقد يكون الترميز هوالمحاولة الذهنية التي تمكن الذات من احتواء النزوة، والسيطرة عليها، وإدخالها في عالم التعبير المتداول والذي يخرجها من حلقتها المفرغة. والنزوة كما عبر عنها فرويد في«ما وراء علم النفس» هي كناية عن التمثيل الفكري للحاجة الجسدية، وهي من طبيعتها ـ إن كان محتوماً عليها الإعادة ـ أن تكون مكفوفة بالنسبة للوصول إلى غايتها. وهذا ما يجعل تحولها إلى نشاطات أخرى ممكنة، الشيء الذي دفع فرويد إلى التكلم في التحليل عن موضوع التسامي، ومن هنا انطلق المبدأ الأساسي الذي تكلمنا عنه في الصفحات السابقة من أن كل إشباع عشقي في التحليل، يعطل عملية التحليل، ويؤدي إلى توقفه، لأنه إذا كان هدف النزوة التحويلية الأول الإشباع العشقي، بالالتحام الجسدي، فمعنى ذلك أنه قد أقفل الباب على أي تحولات متسامية للنزوة. فالتحليل لا يأخذ أهميته ويستمد ديناميكيته في التحويل، إلا من خلال الإحباط، أي يحول دون أن تصل النزوة إلى

(*) يتأكد لنا ذلك في عصاب الصدمة: يكرر المريض استعادة المشهد المصدم سواء عن طريق العوارض أو الأحكام كي يتمكن من احتوائها عن طريق نقلها من حيز المخيال إلى حيز الترميز.

الإشباع عبر التحويل. فهي من خلال هذا الكف، تنطلق في اتجاه آخر، قد يكون نكوصياً في مرحلة من المراحل، ولكن لا بد من أن تتحول إلى تطلع نحو الأفق الواقعي، وإلى تصريفها في عمليات بناءة مشروعة.

فالإعادة إذاً هي من خصائص النزوة التي يظهرها التحويل فتتكرر من خلاله مواقف سابقة، وذكريات كانت إلى حد الآن في حكم الكبت، وكانت تسيِّر الشخص على غير علم منه. وقد كتب فرويد مقاله في هذا الموضوع سنة 1914، حيث تساءل عن عملية الاستذكار وأهميتها في العلاج، فتبين له، خلافاً لما كان يعتقد في السابق عندما شدد على الصدمة النفسية سنة 1897، بأن الموضع المهم ليس الذكريات بحد ذاتها؛ إنما الأهم ما يكون حول هذه الذكريات من أفكار، وبصورة خاصة من هوامات أصبحت فيما بعد جزءاً من البنية النفسية في تكوين اللاوعي (اللاشعور)، تتحكم في تصرفات الشخص وتولِّد أعراضه. فعندما يتساءل المريض عن ماهية أعراضه التي يشكو منها، يتبادر إلى ذهنه أنه رغم عدم وجود أي مبرر لها، فهو لا يفتأ يكررها، أي بمثابة هوام على ارتباط بشبكة دالة تعود مصادرها وتكوينها إلى الطفولة الأولى.

وهذا التكرار لا يقتصر على صعيد النسيان أو على حذف الارتباط الواعي (الشعوري) بين الذكريات، (كما هو الحال بالنسبة إلى الهاجسي) إنما يتعدى ذلك إلى التكرار في الفعل والمواقف التي تظهر للمتحلل في التحويل. ويعطي فرويد مثالين على ذلك: بأن المريض قد ينسى بأنه كان متطاولاً على مكانة الأهل، وغير منصاع لطاعتهم، ولكن يظهر ذلك بمواقفه وأفعاله في التحويل، بأن يتغيب عن الجلسات، أو يحاول أن يحرج المحلل في مواقف، لكي يخالفه الرأي، أو يبين فشله وخفة رأيه، أو أنه قد ينسى الشعور بالخجل، وبالدونية التي كانت تصاحب نشاطاته الجنسية المكبوتة، والتي كان يخشى من اكتشافها. فيبدي خلال التحويل شعوراً بالخجل وبالدونية من المحلل، ويتصرف تجاهه كما لو كان يقوم بعمل مخز يخاف على نفسه من اكتشاف الغير له.

فالمريض منذ بداية التحليل يحمل في تصوره الطريقة التي سيرتبط بها في التحليل، ونوعية التحويل الذي سيتكون، كذلك موقفه وتصوراته التي ستظهر عندما يبدأ التحويل في البزوغ تدريجياً. فالآلية في التكرار تحمل في طياتها التحويل، ويقول فرويد في مقاله: «نلاحظ بأن التحويل ليس إلا جزءاً من الإعادة، وبأن الإعادة هي

التحويل لماض منسي، وهذا التحويل لا يقتصر فقط على شخص الطبيب، إنما يشمل كل المجالات للمرحلة الحاضرة».

فالمريض، بدلاً من أن يتذكر، تحت تأثير المقاومة يكرر ما يأتي من مصادر المكبوت، الذي يلون شخصيته، يكرر كل مكنوناته (مواقفه غير الملائمة، تصرفاته المرضية، إلخ). وكذلك كل عوارضه.

ويلاحظ فرويد بأن التحويل إذا ما استأثر بكل مشاعر المريض، وأصبح المصدر الوحيد لتأويلاته ولرغباته ولتحركاته، وهذا ما يحصل عادة، فإن هذا التحويل يستقطب كل الأعراض المرضية، التي تصبح ثانوية. وما كان يشكو منه المريض في السابق يبدو أنه قد تبدد. والواقع أنه يجب أن لا نقول بأن التحليل قد حل المشكلة، إنما كل ما فعله أنه بدَّل مشكلة بمشكلة أخرى؛ أي استبدال العصاب، بتحويل العصاب. وهنا يقول فرويد: التحويل مرض في ذاته، ولكن الفرق بينه وبين المرض الحقيقي: هو أنه يتمحور حول شخص المحلل، المفترض مكانه أن يكون في مستوى فهم الأمور وتطورها، لكي يبدأ في حل عقدة هذا التحويل تدريجياً، أي أنه في المرض الأول ليس لنا أي حيلة للتأثير، وتغيير الأمور. أما في العصاب التحويلي، فنملك على الأقل الوسائل التي تمكننا من التأثير على سير الأمور، وفكفكة العقدة التي كانت مكبوتة. من هذا المنطلق بدأت ملامح التحويل تطغى على هيكلية التحليل النفسي. من حيث إنه أصبح يطلب من المحلل أن يكون قد خضع لعملية تحليل تعليمي وتخلص من العقد التي كانت مكبوتة ليتمكن على الأقل معرفة ما يدور في اللاوعي (اللاشعور). فلا يمكن للمحلل أن يحل عقدة ما، وهو لا يزال يعاني منها، وكل مقاومة لا يمكن تجاوزها إذا كان لا يزال في المقابل مقاومة يعاني منها المحلل نفسه.

وإذا ما بلغت المقاومة ذروتها،فقد يحصل عدة ردات فعل لا يمكن حصرها إلا من خلال تتبع التحليل؛ وهذه المقاومة لا يمكن فهمها إلا من خلال التحويل، من حيث إن هذا الأخير يصبح المسرح، حيث ينفذ اللاوعي (اللاشعور) إليه لكي يظهر ما هو مكبوت. وما هو مكبوت حتى الآن يصبح فعلاً على التحويلي.

والمقاومة، كما قلنا، قد تأخذ أشكالاً مختلفة: إما المغالاة في المشاعر، كما رأينا سابقاً، في الهيام العشقي، الذي قد يكون تضليلاً لما يخفي وراءه؛ فالمغالاة في الحب قد تكون خوفاً من الخصاء، وتمويهاً له، حتى لا يأتي البحث في مضمونه

التاريخاني. وإما التحويل الكرهي، الذي يصبح موضع تبرير لإنكار المكتشفات اللاواعية (اللاشعورية)، وقطع الطريق أمام استمرار هذه الاكتشافات التي تهدد الأنا في تركيبتها الحاضرة. فليس من الغريب أن يؤدي هذا التحويل الكرهي إلى توقف التحليل، ونسف كل المكتسبات التي حصلت حتى الآن. فما هو ذكريات وأحداث سابقة، يصبح فعلاً يتردد في التحويل كما لو كان حدثاً حاضراً. ويقول فرويد: (كلما كانت المقاومة كبيرة، كلما كان الفعل يستبدل الفكرة («الاعادة»). وإذا تمكن التحويل من احتواء هذه الأفعال التكرارية فإن المحلل يستطيع حلها عن طريق التأويل. ولكن في بعض الأحيان يحصل الفعل خارج الإطار التحليلي؛ الشيء الذي يجنب المريض مواجهة ذلك في التحويل وهذا ما يسمى «Acting out» أي الفعل الخارجي، أي أن ما يرفض استذكاره، أو البوح به في التحويل، يتحول إلى فعل خارجي يشكل عقبة في سير التحليل(*). أو أنه ينقل إلى الحقل الخارجي المسرح التحويلي الذي كان مفترضاً أن تلعب عليه الأحداث بشكل محدود. وهذا ما حدا بفرويد، في بداية الأمر، إلى الطلب من المتقدمين إلى التحليل، الامتناع عن أخذ أي قرار حاسم يغيِّر مجرى حياتهم (كاختيار شريكة حياة، أو طلاق، أو ترك مهنة أو الانخراط في مواقف تورطه فيما بعد) باعتبار أن أخذ هذا القرار لا بد أنه وليد الحالة التحويلية التي يعيشها؛ وبمجرد أن تتبدد هذه الحالة فإن مسببات القرار تزول، والتورط يصبح عندئذ بمثابة مقاومة تحول دون نتائج التحليل التي يمكن أن يحصل عليها(**).

والمحللون في الوقت الحاضر يترددون كثيراً قبل أن يحذِّروا المريض من أخذ قرار. لأنه لا يمنع في بعض الأحيان أن يكون القرار صائباً، وبمحله، وأن الفرصة السانحة لا يمكن أن تعوض فيما بعد. لذا ارتأى الكثيرون منهم، أن تدرس كل حالة على حدة، وأن تسأل في حينها، مع الأخذ بعين الاعتبار الواقع الخارجي، والحالة النفسية التي يعيشها المريض من خلال التحويل؛ وقد لا يكون احتياطاً خاطئاً إذا ما

(*) عادة ما يحصل إذا واجهت مريضة عقبة في تحويل حبها إلى المحلل فتنقل ذلك إلى الوقوع في حب آخر خارج التحليل، وتحاول أن تنهي تحليلها. ويجب في مثل هذه الحالة تناول هذا الحب الخارجي كما لو كان جزءاً من التحويل والتعامل في تأويله على هذا الأساس.

(**) على ضوء تطور سير العلاج من بعد فرويد، وبتأكيد من لاكان: أقلع المحللون عن هذه التوصيات على اعتبار أن لا فرق بين الخارج والداخل فكلاهما يشكلان جزءاً من الاطار التحليلي، لا سيما أن الواقعي قابل للترميز كما هو الحال بالنسبة للمخيالي.

نبَّه المحلل مريضه لمثل هذه القرارات، حين يجد عنده ميوعة وخفة في أخذ القرارات وتورطاً سريعاً وغير مدروس يغيِّر مجرى حياته العاطفية والعملية ويصبح سبباً في تفاقم مشاكله. يقول فرويد: «بالطريقة التي نتعامل فيها مع التحويل، نجد الوسيلة الرئيسية لكي نضع حداً لهذه الآلية التكرارية، ونحولها إلى وعي واستذكار».

المهم في الموضوع هو إدخال هذه الاندفاعات الخارجية إلى حيثية التحويل حيث يسمح لها التحرك ضمن إطارها الصحيح، لكي تكشف لنا عن التأزمات المرضية الكامنة وراءها.

فالتحويل، كما يشير فرويد، هو حالة وسط ما بين المرض والواقع الخارجي، وعبره يتم الاتصال بالاتجاهين. فهي وإن كانت كما شبهها فرويد نفسه بأنها حالة مصطنعة، وظاهرة مرضية، إلا أنها تشكل مرحلة من مراحل الحياة، يعيشها المريض بواقعية إلى أن تأخذ حدها النهائي.

ولكن رغم كل المحاولات والتأويلات التي تطال المقاومة، هناك حالات يستمر بها التحليل دون تقدم محسوس، وتظل جامدة، مبددة كل جهد يبذل من المحلل ومن مريضه؛ وهذا ما تناوله فرويد بعد عشرين سنة في مقاله «تحليل انتهى وتحليل لا ينتهي»؛ واعتبر أن التحليل يصطدم بصخرة كتلك الصخرة التي عبثاً يصطدم بها الموج ويتبدد، وعبثاً يحاول أن يزحزحها. وهذه الصخرة هي بمثابة عقدة الخصاء التي تشكل عقبة رئيسية في التحليل، وكل تحليل لا يطال هذه العقدة، ولا يحاول حلها، هو تحليل مرحلي غير ثابت، ونتائجه غير مضمونة الاستمرار. وهذا ما سنتناول شرحه:

التحويل يطرح أمام المحلل وأمام المتحلل فرصة يحب أن لا تفوَّت، لأن لها دوراً هاماً في مسيرة التحليل، وهذه الفرصة هي إمكانية إعادة البناء. وفرويد يطرح هذا الموضوع بوضوح في مقاله «إعادة البناء في التحليل»، ويعتمد في تقويمه على أنه إذا كان هدف التحليل مساعدة المريض على استذكار أحداث ماضية واستعادة السيطرة على مشاعر كانت مكبوتة بحكم الماضي، إلا أن هناك ذكريات وأوضاعاً نفسية، لا تأتي إلى عالم الإدراك بشكلها الماضي: فهي تأتي بصورة متقطعة، ضمن زخم من المواد المجزّأة، سواء عبر الأحلام أو الهوامات، وبصورة خاصة نوعية التحويل المعاش. فهذه المواد، إذا أخذت على حدة، قد لا تؤدي المعنى المطلوب، بل تبدو دون معنى، مقطوعة الصلة عن المفهوم المنطقي لصيغة معينة. لكن إذا جمعت ضمن صلات الوصل بينها، واستكمل جمعها بشكل تصبح معه قطعة متماسكة المعنى

والمضمون، يمكن أن تظهر لنا أنها جزء من تاريخ المريض كان مفصولاً حتى الآن؛ بحيث إن فصله أفقد الجزء المتبقي من تاريخها معناه الحقيقي. والكبت هنا قد يكون طاول ليس المواد التي تدفقت أمام المحلل، وإنما صلة الوصل فيما بينها، (أي المعاني التي تربط فيما بينها)، فإن اكتملت الصورة بإعادة تركيبها من جديد على غرار puzzle، تبين لنا أنها متجانسة، وتمثل قطعة هامة من تاريخ المريض، وهذا ما يقتضيه عمل المحلل، فهو مخول ليس التأويل فقط، وإنما إعادة بناء لجزء من تاريخ المريض عبر المواد التي تتهيأ أمامه.

فالتحويل يلعب دوراً هاماً في تهيئة هذه المواد، إنه المسرح الذي تتكرر عليه الانفعالات التي تكونت في الطفولة. فهذا التكرار يحصل بعفوية، وبطريقة معاشة، على غير علم من المريض.

وهنا يميز فرويد ما بين التأويل وما بين عملية البناء. فالتأويل يطال جزءاً من المواد، (ورود فكرة، أفعال مغلوطة، هفوة لسان، إلخ). أما البناء فهو تجمع لعدد من المواد، مرتبطة فيما بينها لأداء معنى واحد. بشكل أنها إذا ما تحقق التقاؤها، نجد أنها تُخرج لنا جزءاً من تاريخ المريض، كان إلى حد الآن مجهولاً. ويقول فرويد بأنه لكي نتأكد من صحة هذا العرض في البناء، لا يكتفي المحلل بإجابة المريض بأنه موافق على ما قيل، أو رفضه لذلك، بل يتأكد ذلك من خلال توارد الأفكار والأحلام التي تتبع، كاستحضار ذكريات جديدة لم تؤكد حتى الآن، وورود أفكار وهوامات، يمكن أن تؤكد لنا ما إذا كان البناء صحيحاً أو أتى جانبياً. ويشير فرويد إلى الأخذ بعين الاعتبار الموقف التحليلي. فإذا كان سلبياً فإن المريض يرفض ذلك جملة وتفصيلاً، وإذا كان إيجابياً فإنه قد يتقبل ذلك، رغم أن البناء لم يكن صائباً. فردة الفعل على ذلك، وما سيرد في الجلسات اللاحقة، هو الذي سيؤكد لنا صحة أو خطأ البناء.

ويؤكد فرويد بأن الكبت الذي طال العديد من الذكريات والنزوات هو السبب في افتعال العوارض والكف، وأنه لا يمكن الاستدلال على ذلك عن طريق التلميحات والمواد التي تقدمها الأحلام. ولكنه يشدد بصورة خاصة على أن التحويل يقدم لنا المواد بشكل صاف دون مواربة، وذلك عن طريق نقل المشاعر إلى المحلل، أو التصرف تجاهه بمسلك كان قد تناساه في طفولته.

فالتحويل له إمكانية استعادة هذه الروابط العاطفية التي كانت منسية حتى الآن.

فالتحويل هو الذي يمكن من عملية البناء، لأنه يظهر، بشكل عفوي تجاه المحلل، مشاعر ومواقف ومسلكاً عبر مواد متعددة كانت مكبوتة حتى الآن. فانطلاقاً من هذه المعطيات يستطيع المحلل أن يقوم بعملية البناء التي تمكنه من استخراج قطعة من الماضي كانت منسية حتى الآن.

ولكن يبدو أن رغم كل الجهود التي تكلم عليها فرويد لتذليل الصعوبات التي تعترض التحليل، وبصورة خاصة تلك المتجسدة في التحويل، يبقى هناك صعوبات لا تحل، أو يصطدم بها التحليل، كالموج الذي يرتطم بالصخور، وهذا ما سماه بصخرة التحليل، حيث تتراجع كل الجهود أمامها. وتكلم عن هذا الموضوع كما ذكرنا بإسهاب في مقاله عن نهاية التحليل ـ وهو مقال كتب سنة 1937 (أي في آخر حياة فرويد)، وهو يلخص مجمل تجربة فرويد في هذا المضمار، وما توصل إليه من نتائج إيجابية، وما يعترض التحليل من صعوبات؛ ويترجم المقال تجربة فرويد بواقعية، بعيدة كل البعد، عن التفاؤل المسرف الذي رافق انتشار التحليل في أميركا. فالمقال بمثابة وصية إلى المحللين لكي يضعهم أمام الإنجازات التي تحققت، والصعوبات التي لا تزال تعترض طريقهم، لكي يضع على عاتقهم مسؤولية متابعة المسيرة، وتذليل ما تبقى من العقبات. وأهم هذه العقبات النواة السلبية التي تكمن في التحويل، والتي تبقى فاعلة كالنار تحت الرماد إذا ما انتهى التحليل دون التمكن من اقتلاعها وإظهارها؛ وإنها قد تكون سبباً في تعطيل النتائج الإيجابية التي حصلت حتى الآن، وبولادة أعراض جديدة، لم تكن في الحسبان.

ويأتي فرويد على ذكر حالتين من هذا النوع. الأولى: حالة «رجل الذئاب» الذي انتكست حالته بعد عودته من روسيا مهجراً فاقداً ثروته وأملاكه. والثانية: حالة فيرينيزي الذي اتهم فرويد بالتقصير نحوه، كونه لم يحلل النواة السلبية تجاهه. الشيء الذي حدا به إلى اتخاذ مواقف مغايرة، ومعادية لفرويد في نهاية علاقتهما الودية. فالتحويل يبقى العقبة الرئيسية في إنجاز نهاية التحليل.

ويخلص فرويد، في مقاله هذا، إلى أن حجر العثرة، أو الصخرة التي يتعثر بها المحلل هي عقدة الخصاء عند الامرأة والرجل: فالامرأة تحاول جاهدة، وتضع كل العراقيل، حتى لا تتخلى عن هوامها في«شهوة امتلاك القضيب». فهي تبقى مصرة، وبإلحاح، على احتجاجها ومطالبتها بالقضيب. وقد تتخذ مواقف معاكسة تؤكد إصرارها على هذا الطلب، وعدم تخليها عنه. والرجل من ناحية ثانية، يجد صعوبة في

عنها بمثال مألوف قلنا: حين نرى رجلاً انتزعته شخصية نابليون عن نفسه انتزاعاً» جزئياً (وحينئذ يكون الأمر غروراً، أقل وأكثر) أو انتزاعاً كلياً (وحينئذ يكون جنوناً)، فإننا نعرب عن ذلك بأن نقول حيناً: إنه «فاكر نفسه نابليون»، ونقول حيناً آخر «عامل نفسه نابليون».

وهذه الحرية في اختيار إحدى العبارتين دليل على أننا نشعر بأن العلاقة المراد الإعراب عنها، بين المجنون ونابليون، هي علاقة ذات وجهين: وجه معرفي: (اعتقادي) وهو الذي يبرز حين نقول: فاكر نفسه (وهي معرفة هي في الوقت نفسه ضلال) . ثم وجه معاش وهو الذي يبرز حين نقول: عامل نفسه(وهو فعل في الوقت نفسه خيال). وهنا نلاحظ كيف ينطبق الفعل الأوروبي بمعنييه على هذه العلاقة بوجهيها جميعاً أحسن الانطباق. أما بالعربية فلم نجد خير من قولنا: إن المجنون قد «تخيل ذاته نابليون».

ويتابع صفوان فيرفض الترجمتين الموضوعتين من قبل: التقمص والتوحد. الأولى لأسباب مجازية، والثانية لأسباب لغوية: «تقمص فلاناً» أو توحد به، يجعلنا نفهم عادة أنه يحاكيه محاكاة شديدة، على حين أن «فرويد» نفسه يفرق فيما يلي، تفرقة قاطعة وصريحة، بين التعيين الذاتي بالمعنى التحليلي، وبين العملية السيكولوجية المعروفة باسم التقليد. والحق هو أن التقليد عملية تتم بين طرفين مكونين من قبل هما المقلِّد، والمقلَّد، في حين أن التعيين الذاتي هو العملية أو العلاقة التي تتكون الذات بها وفيها.

«وبعبارة سبينوزية: فإن فكرة التعيين الذاتي فكرة تضعنا في مستوى الطبيعة الطابعة أو المكونة، لا الطبيعة المطبوعة أو المكونة، ويجب إذ تفهم في هذا المستوى، وأن ذلك عينه هو الذي يجعل فهمها عسيراً غاية العسر على غير المحللين، فليس مثل المحلل يدرك في وضوح العلم، قول الشاعر: (Je: est un autre) ـ تفسير الأحلام.

أما بالنسبة لكلمة تماهى: فهي مستخرجة من هوية (Identité) وماهية: في أصلها الفلسفي. أما الفعل تماهى، في التماهي: فهذا لم يرد في المعاجم العربية، مما يؤكد استعماله من قبل الفلاسفة أو الأدباء. فلذلك بقي معناه محصوراً في الجماعة التي أدرجته.

وهذا لا يعني أن كلمة تماهي لا تؤدي نفس الخدمة، وأعتقد أنها تحدد وجهاً

من أوجه العملية النفسية الخاصة بالماهية والهوية. وهذا ما قد يجبرنا على استعمالها في بعض الحالات عندما لا تؤدي كلمة تعيين، التعبير الصحيح.

أول ما ظهرت كلمة تعيين (Identification) في مؤلفات «فرويد» كانت في كتابه «تفسير الأحلام»، عندما تكلم عن العارض الهستيري في حلم «السالمون المدخن». وسريعاً ما تعمم هذا المفهوم على عملية نفسية بالغة الأهمية تتكون من خلالها الذات، وهذا ما دعاه إلى الحديث عنها بإسهاب في دورها في عقدة أوديب والخروج منها، وكذلك في التكوين النفسي عندما خرج بنظريته الثانية. وهذا ما سيأتي الحديث عنه مفصلاً.

فالعارض الهستيري أول ما لفت نظر «فرويد» . ويتأكد لنا ذلك من خلال حلم «السالمون المدخن». فقد حاول من خلال هذا الحلم تحديد أهمية هذه العملية في تورية الرغبة عندما تحل محلها رغبة خاصة بشخص آخر لكي تعبر عنها دون أن تكشفها إلى الحالم. وعرض من خلال ذلك التعيين الهستيري وأهميته في توليد العارض.

فالتعيين كما يقول «فرويد» لحظة بالغة الأهمية في ميكانيكية الأعراض الهستيرية: «فهو الذي يمكّن المرضى من أن يعربوا بأعراضهم، لا عن خبرات أنفسهم فقط، بل عن خبرات عدد كبير من الناس فوق ذلك، حتى لكأنهم يتألمون بواسطته نيابة عن جمهور بأكمله من الناس، ويملأون بمفردهم أدوار الرواية جميعاً».

وهذا ما يبيِّنه لنا الحلم «السالمون»[1] عندما تتعين المريضة برفيقتها لكي تظهر رغبتها في عدم الاكتفاء. لأن العكس، أي الاكتفاء، يؤدي إلى ظهور الهيلة. فيتبين لنا من وراء ذلك أهمية التعيين في توليد العارض. لأنه، كما نعلم، فإن أهم صفات العارض هي الابتعاد عن الخوف الداخلي وتجنبه. والتعيين عملية شاملة عند كل المصابين بالهستيريا، يكمن وراء كل ظاهرة عرضية. ويبين فرويد في المناسبة الفارق المميز ما بين التعيين والتقليد. فالأول عملية لاواعية (لاشعورية)، تحصل على جهل المريض في نتيجتها، والثاني مسلك وجداني يختلف عن الأول. ويقول «فرويد»: لو كانت هذه النتيجة تستطيع أن تبلغ الوعي (الشعور)، لأمكن أن تظهر الهيلة (الخوف) (Angoisse) وتوفر على المريضة معاناة مثل هذه النوبة؛ ولكنها قد تكونت في منطقة

(1) سوف يرد الحديث عنه فيما بعد في سياق النص.

نفسية مغايرة، بل تمثلاً قائماً على ادعاء علة مماثلة، إنه يعرب عن فكرة «ما فارق» ويتعلق بعنصر مشترك يظل باقياً في اللاوعي (اللاشعور).

التماهي أو التعيين إذاً عملية لاواعية (لاشعورية) (بحسب تحديد صفوان) يقصد منها غرضين: الأول أن تعبر عن شيئين في شيء واحد، أي تعريف عن الأول بالآخر بعد أن يحل محله. والثاني،أن تجعلهما في حكم هذا التعريف.

ويشير صفوان في تحديده إلى: «أن الأمر لا يتعلق بالطبع بمعرفة تدركها المريضة أو المريض، وتحللها، أي معرفة تنطبق بها، وتجعلها موضوع قول، بل الصدق أن نقول: إن هذه المعرفة هي التي تملك المريضة وتؤسسها وتضلها عن حقيقتها». وللهستيريا مكانة خاصة في التحليل النفسي واكتشافات فرويد: فهي الباب الأول الذي انفتح أمامه على مصراعيه ليدخله إلى عالم اللاوعي (اللاشعور).

لذا فإنه أول ما تعرض لبحث موضوع التعيين كان عن طريق عارض الهستيريا، وإمكانية فهم تركيبه، وكنهه ومعناه الذي خفي عن عامة الأطباء في عصره. وهكذا كرس، بالاضافة إلى التنويه الذي أتينا على ذكره في تفسير الأحلام، قسما كبيراً من مقالة «التعيين أو التماهي». وتبين له أن العارض الهستيري مبني على إمكانية التعيين من حيث إن الغاية اللاواعية (اللاشعورية) هي دائماً المحركة والمسيرة في اختيار صيغة العارض على جهل من المريض.

ويميز فرويد في سبيل ذلك ثلاثة أنواع من التماهي:

الأول: تماهي الهستيريا في والدتها، اعتباراً منها أنها أصبحت موضوع كرهها، وتود أن تحل محلها قرب والدها، تتماهى بعارضها المؤلم (وجع بطن ـ أو آلام العادة ـ أو أي مرض يطرأ عليها) ـ اعتباراً منها أن الحلول محل والدتها يقتضي قبل ذلك العذاب، فحاجتها إلى الألم مقترنة بحاجتها إلى والدها كرغبة محرمة. وهذا يعود إلى أن شعورها مصاب بالازدواجية: الحب من ناحية والمنافسة والكراهية من ناحية أخرى. والتماهي والتعيين في عارض الأم يخدع الرغبة المبطنة للشعور الثاني.

الثاني: تماهي الهستيريا بالموضوع المحبب إليها، أو صديقتها، التي تفضي إليها بأسرارها، كما ورد بعارض «دورا» «البحة» تعبيراً للتيار الشبقي الذي يربطها بالموضوع.

وفي كلتا الحالتين يخضع تكوين العارض لعمليتين:

أ ـ اختيار الموضوع الليبيدي الذي يستقطب التيار الشبقي.

ب ـ التعين (التماهي) بهذا الموضوع: أي بصفة من صفاته أو بخط من خطوطه المميزة، حيث إن الدواعي المرتبطة بهذا الخط تبقى خفية ومحصورة في اللاوعي (اللاشعور).

الثالث: وهو الموضوع الشائع في المجتمعات النسائية، سواء في النوادي، أو في التعازي، أو في المدارس الداخلية.

فموضوع التعيين قد يكون شخصاً عزيزاً أو مجهولاً تتماهى به الفتاة اقتداء بصديقتها لأسباب خفية خاصة بها تبقى سرية ولاشعورية. ويتبين لنا إن سنحت الفرصة في تحليلها، أن هناك معرفة لاواعية (لاشعورية) بما يساور الشخص الآخر المتعين به.

وعملية التعيين في تكوين العارض لا تقتصر فقط على الهستيريا، بل تلعب دوراً فعالاً وهاماً في أمراض عدة، منها السوداوية،حيث تتعين الأنا بالغرض المفقود،وتصبح عرضة لهجمات الأنا الأعلى، تتلقى منه التأنيب والتجريح، حتى دفعها إلى الفناء أي الانتحار. وكذلك تلعب دوراً في الشذوذ الجنسي المثلي، وهذا ما سنأتي على ذكره.

ولكي ندرك فهم عملية التعيين (التماهي) وأثرها في نشأة هذه الأعراض لا بد من استعراض فعاليتها وأهميتها في تكوين الذات، منذ بدايتها حتى اكتمال انبنائها، والعوارض المرضية في حد ذاتها ليست تحولات معبرة على الصعيد الرمزي لهذه التركيبات البنيوية التي خرج بها الفرد من العقدة الأوديبية، وهذا ما سنأتي على إيضاحه أيضاً بإسهاب.

في نظر فرويد هناك ثلاثة مصادر للتماهي:

المصدر الأول: تتعلق الأنا بالغرض المفضل، الأب أو الأم. وترتبط به ارتباطاً شبقياً. تتعين (تتماهى) وتتشبه به وتنشد إلى الحلول مكانه.

ويصبح مثالاً: تحذو حذوه وتقتدي به.

المصدر الثاني: بدل أن تتماهى الأنا في الفرد المختار والمحبب ـ تتعين (تتماهى) في غرضه الليبيدي ـ وبدلاً من أن تريد أن تكون مثله وترغب في الحصول عليه. فتعين الذات بخصلة من خصالها تدمجها في بنيتها (التعين الفالوسي، أو التعين بالأم بالنسبة إلى الذكر). سنفصّل ذلك عندما نتكلم عن اللواط. ويتبين أن التماهي

يأخذ موضع التيار الشبقي الذي يتحول عن طريق النكوص إلى غرض للتماهي.

المصدر الثالث: التعين يحدث دون أن يكون هناك ارتباط شبقي، أو اختيار ليبيدي تجاه الشخص الذي يتشبه به. وهذا يلعب دوراً هاماً في تكوين العارض. وهذا يعني التقاء ما بين الأنا وأنا الآخر المختلفة من حيث إن صلة الوصل بينهما تبقى مكبوتة. ووراء هذا التماهي يلعب الذنب دوراً مبنياً كما ورد الإيضاح عنه بالنسبة إلى عارض الهستيريا.

ويقول فرويد في مقاله المشار إليه (Identification)، بأن عملية التماهي مرتبطة بتعلق حبي، فالطفل الصغير يرتبط في البداية بعلاقة حبية متساوية ما بين أمه ووالده، فيحب كلاهما دون أن يخلق له ذلك أي مشكلة ذاتية.

وهكذا تصبح الأم مسرح المنافسة بينه وبين الأب تؤدي به إلى صراع لاشعوري مزدوج:

الأول: شعور بالحب والعطف يؤدي إلى أمنية التماهي به لكي يصبح مثله أو على غراره.

الثاني: شعور بالكراهية والمنافسة: مبني على رغبة في إزاحته والحلول مكانه.

ويستنتج من هذا العرض أن عملية التماهي لا ترتبط فقط بالشخص الذي تحبه. ولكن بأسباب حددتها سابقاً من كون هذا الشخص تريد في آن واحد إزاحته والحلول مكانه. واعتقد أن هذا الوجه الأخير هو الذي يضفي على هذه العملية طابع التحريم والتشريع في وظيفة القانون. وفي حديث فرويد عن «الطوطم والتابو»، نراه يأتي على ذكر القبيلة الأولية على اعتبار إن الأب كان يتمتع بالسلطة المطلقة على الأملاك، والنساء، والرجال. مما أثار ثورة الأبناء فاتفقوا على قتله والإطاحة به.

والغريب أن نتيجة هذه الجريمة الأولى كانت على عكس ما يتوقعه الأبناء، فما كانوا يتمنون استباحته في حياة الأب والحصول عليه: أخذ طابع التحريم، وظهر في تشاريع أصبحت مقدسة، تصيب اللعنة كل من يتجاوزها. أي حصلت الإزاحة. أما الحلول مكانه بقي فارغاً ممنوع على أي كان سوى القانون الذي يعين هذا الفراغ ـ انتهاك هذا المكان الفارغ يؤدي إلى الأحكام الديكتاتورية.

المقصود من هذا المثال ليس الحقائق التاريخية أكثر مما هو استعراض لهوام

مشترك ومؤسس في تكوين الأديان الوثنية والتشريع والنظم لحياة الإنسان وتطورها الحضاري.

ومن الشروط الرئيسية لعملية التماهي هو أن يكون الموضوع المتماهى به غرضاً مفقوداً ارتبط به دافع عدواني، يدعو إلى إزاحته والحلول محله، أي كما لو كانت عملية امتلاك الغرض ودمجه في ذاته (Appropriation) على غرار العملية البدائية للمرحلة الفموية (Phase orale). فالتعيين إذاً منذ البداية له صفة ازدواجية، يقول فرويد«مرتبطة في أن واحد في التعبير عن الحب نحو الموضوع، وفي الرغبة في إطاحته والحلول محله. كما لو كان التماهي إنتاجاً للمرحلة الأولى، أي المرحلة الفموية لأول تنظيم ليبيدي منذ كان الإنسان يستحصل على الغرض الذي يرغبه عن طريق أكله، أي بمعنى إزالته[1].

إذاً، أهم ما يميز التماهي إنطلاقاً من التعلق العاطفي بالمحبوب هو أن يحصل عليه أي يمتلكه (يدمجه) كي يصبح مثله، يتشبه به ومثالاً للمستقبل يحتذى به. وما كان خارجياً فترة من الفترات يصبح داخلياً عن طريق الإدماج. وهكذا يصبح هذا المثال الأعلى الخارجي داخلياً يحدد مسلكه وتصرفاته، يحاول التقرب منه، والاقتداء به للحصول على رضاه، والشعور بالطمأنينة الداخلية، وبقدر ما يتقرب منه يشعر بالسعادة، كما بقدر ما يبتعد عنه يشعر بالندم والذنب مما يولد عنده الألم النفسي.

وتعتبر هذه الخطوة في التماهي الأولي في الأم والأب بداية الدخول في المرحلة الأوديبية، التي يخوض الطفل من خلالها صراعاً نفسياً عميقاً لا يخرج منه إلا بعد أن تكون قد تكوَّنت في ذاته الأسس الرئيسية لانبنائه النفسي. وموضوعاً جنسياً يستقطب القسم الأكبر من التيار الشبقي الذي يساوره في هذه المرحلة.

وانطلاقاً من هذا المبدأ نفسر الشذوذ الجنسي في حالات التخنث، أي (Homosexualité) على أنه انحراف في عملية التماهي، فبدلاً من أن يتماهى الطفل الذكر بوالده لكي يحوز على إعجابه، ومن خلال ذلك على إعجاب والدته (على اعتبار أن الأم مرتبطة بالاستمتاع الجنسي بهذا الأب صاحب القضيب) نراه يأخذ

(1) Essais de psychanalyse, P127.

اتجاهاً سلبياً مغايراً فيتماهى بالأم، ويتصرف تجاه والده كما لو كان موضوعاً جنسياً يود الحصول عليه. ويصبح التماهي بالأم النقطة الرئيسية التي تدور حولها تصرفاته المخنثة. فتماهيه بالأم يترجم رفضه وإنكاره لنقصها (أي أنها لا تملك القضيب)، كون الأم هي موضع اكتشاف الحقيقة بالنسبة للفارق الجنسي الذي يميز ذاته ويحمله هويته الجنسية. وهو من خلال ذلك يطلب من الآخرين، الذكور، أن يعاملوه كما لو كان يعامل من قبل أمه، عسى أن يعوض عليه ذلك ما رفضه من حقيقة نقصها. وإجمالاً لا يتوصل الطفل إلى هذا الانحراف التكويني إلا بتواطؤ الهوام اللاواعي (اللاشعوري)، ومؤازرتها، لأنها تمثل الرافض الأول لخصائها. ومحاولتها إبقاء الابن في حوزتها في شكل تماه فالوس، وبالمناسبة تبسط عليه حمايتها كي لا تلزمه الإذعان لسلطة الأب؛ وهذا ليس إلا ترجمة لرفض الأول ويصبح بالمناسبة موقف الطفل موقف تحد لسلطة الأب استناداً إلى وهم الأم، وفي تحايله على هذه السلطة والإفلات منها يحاول الحصول على مكاسب نرجسية أهمها الإفلات من ضريبة الخصاء الرمزي(*).

ونشير، تأكيداً على ذلك، إلى الحالة السحاقية التي أوردها «فرويد» في مقاله[1] والتي يرشح بها الانبناء النفسي لمثل هذا الانحراف. وبها يتبيّن التحدي المطروح في وجه الأب كون حبها المثلي ما هو إلا دليل إنكار لسلطته التي لم تعوض عن حرمانها: بمعنى أن هناك شخصاً يستطيع أن يحبها لأجْل ما لا تملك (أي امرأة أخرى). وفقدانها هذا الشخص يعني انهيار البنية النفسية.

الحالة تشير إلى فتاة في سن السادسة عشرة من عائلة محترمة، تميزت بالترف والرفاهية. الفتاة تقع في حب امرأة ناضجة لها خبرة جنسية واسعة، جميلة ويحيطها الكثير من المعجبين والمعجبات. وفي يوم بينما كانت تسير برفقة هذه الامرأة التقت بوالدها الذي مر دون أن يخاطبها بعد أن ألقى نظرة تعني الازدراء والاستنكار مما

(*) التماهي بالأم يحتله في موقع يحقق صورة متكاملة لا ينقصها القضيب كما هو الحال في الواقع. وهنا يتبين لنا النفي للفارق الجنسي : العملية المميزة للانحراف.

(1) حالة فتاة سحاقية.

حدا بالسيدة أن تقول لمتيمتها الصبية: انتهى كل شيء بيننا. فما كان من الفتاة إلا أن رمت نفسها من أعلى جسر على خط القطار. فهذا التحدي من الأب لم يلقَ قبولاً عند محبوبتها، انهارت بنيتها النفسية ولم تجد وسيلة للخلاص إلا عن طريق درب النكوص، أي بأن تتماهى ذاتها بالطفل الذي يولد أو يسقط، كما لو كانت في نفس الوقت هي المولدة والمولودة، وهذا ما أرادت أن تعنيه في محاولة انتحار هي في حد ذاتها ولادة جديدة. بمعنى أن السقوط يأخذ مفهوم الولادة (يقال في اللغة العربية أسقطت الامرأة أي أجهضت). وكذلك في الالمانية.

فالتماهي بالأب بالنسبة إلى الطفل الذكر يمثل المخرج الوحيد السوي الذي يستطيع عن طريقه التخلص من عقدة أوديب. والتماهي بالأم بالنسبة إلى الفتاة يمثل الباب المقابل. ولذا فالانحرافات الجنسية لا يمكن أن تفسر إلا على ضوء التغيرات والتقلبات التي تحدث في عملية التماهي.

ويقول «فرويد» بهذا المعنى: «عندما تتحطم عقدة أوديب، يصبح الطفل في حكم المضطر إلى التخلي عن أمه كموضوع جنسي. وفي هذه الحالة ممكن أن يحدث احتمالان: إما أن يتماهى بأمه، وإما أن يعزز تماهيه بوالده. والاحتمال الأخير هو الذي يمكّنه من أن يصبح من بين السويين، ويمكّنه في نفس الوقت من الاحتفاظ تجاه أمه بشعور الحنان. وعندما تنتهي عقدة أوديب تبرز الصلابة في طبعه الذكري. كما أن الفتاة في حال تحطم عقدة أوديب تتماهى بوالدتها وتكون نتيجته أن يتثبت عند الفتاة العنصر الأنثوي.

ويتبين لفرويد أن الأنا، خلافاً لما يفكر علماء النفس السابقون، ليس جهازاً قائماً في نفسه، مستقلاً، يعمل على انفراد وبحرية. فهو مرتبط بالآخر وبطلباته منه وإليه كون الرغبة هي رغبة الآخر كما بينا في نظرية «جاك لاكان»[5]. فالأنا يتكون من العمليات النفسية، فينمو ويكتسب خبرة، ودلالة، في كل مرحلة يمر بها. فعملية التماهي تساهم في تأسيس الأنا وانبنائها على الشكل الذي يصبح دلالة تدل على الذات بالنسبة إلى ذات آخر. وفرويد يسير في هذا الاتجاه عندما يقول: «إن الأنا

(1) سيمينير (2) Essais de psychanalyse, p. 201.

عندما تظهر صفة المخاطب في تلزيم أفعاله وممتلكاته: أي يتبين ما له، وما لغيره (تدخل الأنا في لغة المخاطب بعلاقتها مع الآخر: شربت ـ ضربت ـ لعبت ـ قلمي ـ دفتري، إلخ).

وحسب تعبير اللغويين، يظهر الخط الفاصل ما بين الدال والمدلول $\frac{\text{دال}}{\text{مدلول}}$.

فحسب تحديد «لاكان» «الذات هي ما يمثلها الدال بالنسبة إلى دال آخر». أي بتفسير آخر: هذا الدال الذي يمثل الذات لا يتم إلا عن طريق التماهي. في آخر المطاف، لا يبقى من الإنسان إلا إسم العلم الذي يخط على قبره، آخر أثر للغائب. أو في الحياة العامة عندما نعرِّف عن شخص لمحناه فنستدل عليه بالصفات البارزة (القصير ـ الطويل ـ الأسمر ـ البدين ـ الأصلع ـ المشورب، إلخ. أو بصفات خلقية أو مهنية...)[1](*). من الصفات التي تدل عليه والتي عيناه بها ليس ذلك إلا للتعريف عنه. فتصبح دوالي مميزة له في حال غيابه تشير إليه وتحل محله.

فالعديد من هذه التماهيات تصبح الجهاز المكون للأنا في علاقتها مع الآخر. وعن طريقها يتم للشخص التعبير عن ذاته، وربط الصلات المتعددة مع مجتمعه، فللتماهي وظيفة سوية تؤمن توظيف الطاقة الليبيدية وتمكِّن الإنسان من الدخول في علاقة مع الآخر، كي يصبح بإمكانه تحسس مشاعر الغير، فيعمل له كما لو كان يعمل لنفسه. من هذا التماهي بالآخر تبزغ المشاعر الانسانية.

كنا قد ذكرنا سابقاً أن التماهي ما هو إلا عملية تعويض ناتجة عن فقدان غرض معين، كانت تربطه بالذات صلات عاطفية أو ليبيدية وثيقة. أي أن فقدان الغرض يمثل في حد ذاته الدافع إلى التماهي كي يمكن الفرد التعويض عن طريق إدماج صفة من الصفات بالأنا يخاطب بها الآخر. ويستدل على ذلك في قصة حفيد «فرويد» مع البكرة: التي كنا ذكرناها سابقاً. كان يقذف بالبكرة بعيداً ويقول: قريب (أي اقتربي) ثم يستعيدها إلى جانبه ويقول: بعيد (أي ابتعدي). الغاية من هذه اللعبة هو استرجاع السلطة التي تتمتع بها والدته، فلا يكون عرضة لبعدها وقربها ساعة تشاء أي أن تصبح المبادرة في إطار سيطرته. فيرتقي إلى المستوى الرمزي، ويخرج ذاته في وحدة

(1) مصادر أسماء العلم كلها دالات خلقية أو مهنية تميز بها الأب المؤسس.

(*) الملاحظ أن هذا المميز يصبح فيما بعد دالاً صافياً مجرداً من معناه الأصلي لكي يؤسس أسماء العائلات.

موضوعية، يحركها ضمن لعبة من اختياره تمكنه من السيطرة عما يفقده في واقع الحال.

وهكذا نراه يعين ذاته بالبكرة، ويأخذ مكان الأم كي يستأثر بمبادرة إبعاده واستجلابه. يقلب المعادلة من كونه مسيطَراً عليه، إلى كونه مسيطِراً عن طريق الترميز.

وفي نظر «لاكان» فإن هذه البداية هي الخطوة الأولى التي مكنت الطفل من دخول عالم الرموز عن طريق تماهي رغبته برغبة الآخر (أي الأم).

والتجربة التحليلية في دراسة الأطفال: هي أن طلب الطفل لم يكن في مرة من المرات مقتصراً فقط على الاكتفاء والحرمان، بل يتعداه دائماً طلب لغياب، أو لحضور. وهذا ما تجسده العلاقة الأولى بالأم، والتي استوفينا شرحها في الفصل الثاني.

فطلبه لحضور يسبقه غياب، يجعله يتماهى بأمه كوحدة عددية ناقصة يدل عليها بزائد واحد تمثل ذاته في جدول تعدادي: هذا ما تظهره لعبة (FOR-DA).

فالتماهي بالآخر هو الطريق الوحيد للتقدم واكتساب الخبرات كون الآخرين يدخلون في المنهاج التعدادي عندما تصبح الذات وحدة إيجابية ابتداءً من ناقص واحد. وهذا ما يعبر عن رغبتها. وهكذا تتكون في مفاهيمها وأحاسيسها المكتسبة حتى تبلغ مستوى النضوج. وفي كل مرحلة تتعين بغرض محدد، لا بد أن تشعر بفقدانه على غرار مثل حفيد «فرويد»؛ وتستعيض عن الغرض المفقود بصفة من صفاته تدمجها فتصبح جزءاً من تركيبها. وهذا الإدماج، كما بيَّن «فرويد»، لا يمكن أن يحصل إلا بعد أن يجرد الغرض من صفته الشبقية الواردة من اللاشعور. أي كما ذكرنا عن طريق الارتقاء تصبح هذه الإشارة أو الصفة، الدال السامي لمدلول جنسي شبقي بقي مكبوتاً في اللاوعي (اللاشعور) (وهذا ما يسمى بنجاح الكبت كعملية سوية). مما يتيح للخط الحاسم أن يدخل ويفصل ما بين الدال والمدلول. وهذا الدال يدخل كحلقة في سلسلة الدوالي كي يمثل الذات في وضع من أوضاعها على اعتبار أنها بإدماجها له تكون قد تماهت به لتخاطب دالاً آخر. وهكذا انطلاقاً من هذه المعطيات يحدد لاكان الدال: «الدال هو الذي يمثل الذات بالنسبة إلى دال آخر»(*).

ونجد البديل لذلك في نظرية «فرويد» Ich Spaltung، أي انقسام الأنا ما بين واعي (شعوري) ولاواعي (لاشعوري).

ولكي نبين التطورات التي تمر بها الذات في مراحل نموها إلى أن تصطدم

(*) أي أن الذات لا تظهر إلا بسبب الفارق هي نتيجة التباين بين د1، ود2.

بالعقدة الخصائية المؤسسة، لا بد لنا من الاستعانة بمقال قيم ورد في مجلة «Silice» ـ العدد 5 الناطقة باسم المدرسة الفرويدية لباريس. حيث استطاع الكاتب أن يبيِّن ارتباط التماهي المؤسس للذات بعقدة الخصاء، وهي التي تؤمن لها عن طريق التماهي بالأب الارتقاء إلى المستوى الإنساني الذي يمكنها من مخاطبة المجتمع.

يتبع الكاتب خطين واتجاهين معاكسين: الأول نكوصي، ابتداء من العارض الذي بدلالته يقود إلى الأم، والتشبث بخطاها الشبقي المحرم. وفي آخر المطاف: نزعة الموت.

والخط الثاني ارتقائي، وهذا ما سنأتي على تفسيره.

يقول الكاتب: إن من أهم صفات العارض النفسي هو تكراره، فلولا ذلك لما اتخذ الصيغة المَرَضية، وأصبح عائقاً يستنفذ النشاط النفسي.

والتكرار حسب نظرية «فرويد» الثانية يقود دائماً إلى نزعة الموت. أي العودة إلى حالة سابقة كان يستمتع بها بالإخلاد إلى الراحة المطلقة، والتي تكون في آخر المطاف حالة الركود، أي حالة الجماد التي سبقت انبعاث الحياة. وهذا ما تشير إليه التعابير المتداولة عن التراب، والمشتقة منها التربة (نهاية الأحياء). الأرض ـ الوطن ـ الأم(*).

ربط «فرويد» في تحليله ما بين مبدأ اللذة، وما بين نزعة الموت. والأطفال كما نلاحظهم توّاقون إلى تكرار ألاعيبهم لما تولد عندهم من لذة. ولكن إذا ما تعدى هذا التكرار حداً معيناً انقلب إلى نزعة هدامة، تفجر اللعبة نفسها. فوراء كل محاولة تكرار حنين في العودة إلى حالة سابقة.

فالطفل لا يترك أمه إلا مرغماً، ينتابه دائماً الحنين بالعودة إلى حضنها، إلى الرحم (الجنة المفقودة) حيث كان يؤمن له الدفء والغذاء والراحة والطمأنينة (Etat d'extase). وآخر المطاف ما بعد الأم، العودة إلى حالة الركود، أي نزعة الموت الكامنة وراء دوافع التكرار.

والمحلل النفسي يتصدى لهذا العارض، ومن خلال فتح الأفق التعبيري الكلامي الذي يتيح الفرصة للمحلَّل كي يعيد النظر في مواقفه على ضوء ما يتكشف أمامه من حقائق لاواعية (لاشعورية) مكونة لذاته.

(*) التكرار كما نعرف يفتش استعادة المتعة الأولية في الدورة الأولى، ولكن كلما تكرر نقص جزء من هذه المتعة وفي آخر المطاف يصبح التكرار مولداً للعنف لأنه يكون استنزف المتعة المتعلقة. هذا ما نشهده عند الطفل عندما يحطم لعبته بعد أن استهلكها. كذلك العارض.

فالمحلل منذ البداية يلعب دور المفترض عارف، ومن هذا المنطلق يعطي تفسيراته التي تنقل العارض من دائرة التكرار المنغلقة، إلى صعيد أوسع يتلقى منه معاني جديدة، وتنفتح أمامه آفاق واسعة تخرجه من عزلته العقيمة.

ويستنتج مما ورد، أن المحلل يغلق باب العودة إلى حالة سابقة، والتي كما حددناها، في بعدها المتخيل: العودة إلى الأم.

فبتفسيره ومعرفته، يلعب دور المحرم، لأن العارض، رغم ما يسبب من آلام نفسية، فهو مورد لمتعة مجهولة، وإلا لما كانت هناك مقاومة؛ وتشبث المريض به يعود إلى استثمارات نرجسية ثانوية تكونت في مراحل نشأته.

ويبدو لنا أن التجاهل اقترن بالمتعة والمعرفة في التحريم. وما قول أوديب الملك: «ليتني لم أعرف ذلك» إلا تأكيداً لهذه المعرفة الهائلة التي قلبت كل مقاييسه عندما نقلته من دور المتجاهل والمتمتع بالمحرمات، إلى دور العارف بحقيقة لم يعد بإمكانه تجاهلها. وبالمناسبة انتهاكها.

فالمعرفة والتحريم يمثلان إذاً هدفاً مزدوجاً لا يمكن الاستغناء عنهما أو تفريقهما في التحليل.

ويتبين لنا أن هناك تشابهاً ما بين دور الأب ودور المحلل. فالأب يمثل بالنسبة إلى الابن الرادع الخلقي والمحرم الأول. فهو الذي يسد أمامه طريق العودة إلى الأم. (فالأب معرفة تنطق بها الأم لأنها الوحيدة المؤهلة لتعرف عنه، وهذه المعرفة هي في نفس الوقت محرمة ومشرعة. باعتبار أن الابن يكتسب اسم الأب، ويصبح المعرف الشرعي عنه)، كما في أوديب: الآن بعد أن عرفت لا يمكن أن تستمر الأمور كما لو كنت لا أعرف.

والأم هي التي تسمع الابن كلام الأب، عندما تظهر بأنه يمثل مرجعها الأساسي في تكوين البنية العائلية. وهذا يفترض أولاً وآخراً أنها وضعت نفسها في استحالة امتلاك الطفل لها. عزت نفسها بوجود الأب عندما يغادر هذا الطفل الذي كان يملأ حضنها، ويعوض عن نقصها. وهذا الارتقاء لا يمكن أن يحصل إلا إذا استطاع الطفل أن يتماهى بوالده الممثل للسلطة التشريعية والمحرمة. فلذلك يفترض التماهي إزاحة الأب على الصعيد المخيالي(*)، والاستعاضة عنه بالأب الرمزي الممثل للشريعة الأولى، على غرار ما ذكرنا للقبيلة البدائية (Totem et tabou). فلذلك نراه يدمج في أناه الأعلى كل الممنوعات والمحرمات التي كان يرددها والده عليه.

(*) يتبين لنا أن ما ذكره فرويد عن الأب البدائي للعائلة الأولى، هو بمثابة هوام وليس أسطورة، يتمثل في بنية تكوين الذات.

فهذا التماهي بالسلطة المحرمة (الأب الرمزي) يقترن بمفهوم الخصاء كرادع لاواعي (لاشعوري) للتعلق الشبقي بالأم.

ويصب في هذا الاتجاه: الحنين إلى الأم، والتشبث الشبقي نحوها، الدافع التكراري المميز للعارض المرضي، بمعنى أنه محاولة للعودة إلى حالة سابقة: الموت كحالة ركود نهائية.

الخوف من الخصاء مرتبط بالرغبة المحرمة. وإذا ما استطاع الطفل أن يتخلص منها يزول مبرر خوفه من فقدان قضيبه. وهو خوف له ما يبرره من خبرات مر بها في مراحل تطوره. فكما أن هناك عقدة خصاء قضيبية، نجد أن هناك ما يعززها من مراحل انفصالية عاشها الطفل على الصعيد الولادي والفموي والشرجي.

لذلك، وكي نتفهم عقدة الخصاء، وعمق تأثيرها الجسدي والهوامي لا بد لنا من استعراض سريع لهذه المرحلة التي إن ارتبطت في المرحلة القضيبية ظلت في الخط الخلفي النكوصي سهلاً ترتد إليه، وتغذي الهوامات المنبثقة منه.

في المرحلة الأولى: (أي الولادة) يحصل مخاض، سواء بالنسبة للإبن أو بالنسبة للأم فهي تجربة خطرة تُصدِم برأي Ferenczi. فالطفل يخرج من عالم الدفء والراحة والطمأنينة إلى عالم الحرمان. وبالنسبة إلى الأم فالولادة تترك فراغاً تحرك عندها عقدة نقصها إن لم تكن وجدت لها حلاً سابقاً[1](*). فيحتل الوليد منذ البداية مكاناً تمثيلياً بالنسبة للفالوس يتماهى به وهو ما نسميه بالتماهي الفالوسي. مما حدا «بفرويد» إلى إطلاق معادلته المشهورة: (Phallus = enfant). وإرضاء لأمه يتعين برغبتها (أي يصبح (رغبة الرغبة) خاضعاً لها).

وفي المرحلة الثانية ـ الفطام ـ يرتبط الطفل خلالها بعلاقة فموية مع الأم، ولا يميز ما بين جسدها ككل، وما بين ثديها، وعندما يحصل الفطام يسقط هذا الثدي من حسابه ككل ويصبح موضوعاً جزئياً (Objet - partiel) يدخل في صميم بنيته النفسية كمولد للرغبة. وهذا ما أتينا على تفصيله سابقاً.

---

(1) الانهيار النفسي، والاكتئاب الذي يصيب النساء بعد الولادة، هو خير دليل على أهمية الصراع الحاصل من انفصال الجنين عن الأم.

(*) الملاحظ أن الأم النفسة التي تصاب باكتئاب حاد بعد الولادة يعود إلى كون هذا النقصان لم يطله الترميز . فانفصال الطفل عنها لزم في مخيلتها صورة بتر قطعة من جسدها.

والأم تصبح وجوداً وغياباً مركزاً على هذا العطاء. فالثدي ينحصر إلى أثر ذكروي، أي الجزء المتبقي عندما تشبع الحاجة.

وتنتابه في هذه المرحلة هوامات مخيفة من جراء تعينه بالغرض الطيب، من حيث إن الغرض السيّئ يسقط على الأم مما يشعره بأنه ملاحق ومضطهد، أو مهدد من قبل الآخرين حسب نظرية ميلاني كلاين: نتيجة لتماهيه الشرجي، (التماهي بالغائط).

وفي المرحلة الثالثة: يدخل الطفل عالم رغبة الآخر عن طريق الترويض، فالأم تطلب منه، وتتوسل إليه، لكي يرخي عضلاته الشرجية ويعطيها الغائط. فيشعر عند هذا الطلب الموجه إليه بالسلطة والتحكم بالآخر عن طريق فتح وإغلاق الفتحة الشرجية. وهكذا يقول «لاكان» تقترن رغبته لأول مرة برغبة الآخر.

وانفصال كتلة الغائط يولد عنده الشعور بفقدان غرض عزيز، على اعتبار أنه يأخذ أهمية كبيرة بنظر الآخر (الأم). فقلقها، وانتظارها، وانفراجها عندما تحصل على ما تريد، يفتح أمام الطفل حقلاً جديداً يطرح في مجاله طلباته؛ فهو يراقب، ويتحسس كل ما يحدث عندها، ويدرك معنى هذا الغرض المفقود الذي يمهد الطريق فيما بعد لمفهوم الخصاء على اعتبار أنه لا يميز الفرق ما بين الكتلة الغائطية، وما بين القضيب. فكلاهما يحتلان قطعة من جسده ممكن أن تنفصل عنه.

وسريعاً ما يتبين له، عندما يدخل المرحلة القضيبية، التهديد الذي يلحق به عندما يكتشف فقدان العضو الذكري عند الفتاة، مما يعزز مخاوفه السابقة.

يزداد هذا الخطر جدية بالنسبة له عندما تنشأ عنده الرغبة المحرمة بامتلاك الأم وإزاحة الأب.

ولذا لا يبقى له مخرج إلا بالتخلص من هذه الرغبة للحفاظ على قضيبه، والتمسك بالأب، أي التماهي به وهذا ما سنأتي على تفسيره.

فلعقدة الخصاء دور في تكوين الأنا حيث تتم أهم عمليات التماهي. وهي في الواقع عملية لاواعية (لاشعورية) تتأسس من خلالها الذات على غير علم منها. وقد تم لـ«فرويد» اكتشافها عن طريق العمل التحليلي.

قلنا إن الأنا تتكون من تماهيات متعددة بأغراض جنسية ترد من الهو، فتدمجها في تركيبها بعد أن تكون قد جردتها من صفاتها الشبقية: أي ارتقت بها إلى مرحلة التسامي.

يقول «فرويد»[1] بما يختص مثال الأنا: «. . . فوراء مثال هذا الأنا يتراءى أول، وأهم تماهي حصل مع الفرد: هذا الذي يخص الأب في عهد ما قبل تاريخه الخاص. فهذا التماهي يكون حصيلة ونهاية التركيز على غرض: إنه تماه مباشر، وسابق لكل تركيز على موضوع معين».

ويأخذ هذا التماهي طابع العداوة عندما يدخل الطفل المرحلة الأوديبية: فيتماهى بوالده لكي يأخذ مكانه ويزيحه من طريقه. وبما أن شعوره تجاه هذا الأب لا يقتصر على العداوة والبغض فقط، لأنه مرتبط به سابقاً بالحب والعطف والحنان. فلذلك لا يمكن أن يبقى هذا التماهي بشكله دون أن يرتد عليه بردات فعل عكسية تحاسبه وتحدد من مسلكه، لأن مثل هذا التماهي، وما يحمل في طياته من دوافع جنسية محرمة لا بد أن يلقى الردع. وهذا ما تزكيه عقدة الخصاء والخوف منها.

وهذه السلطة بعد أن تكون برانية تصبح جوانية بفضل التماهي، وتتمثل بالأنا الأعلى على حد قول فرويد[2] «علاقتها بالأنا لا تقتصر على توجيه النصيحة، كن هكذا مثل أبيك، ولكن تفرض عليه التحريم:(لا تكن هكذا) أي كأبيك: بمعنى لا تفعل كل ما يفعله، فهناك أشياء عديدة من حقه فقط». ويتبين من قول فرويد أن المؤشر الأول لمفهوم القانون والإذعان له هو رغبة الأب.

فاقتصاص الأنا الأعلى من الأنا هو في الواقع مدعوم لاواعياً (لاشعورياً) بالتهديد بالخصاء. فالأنا الأعلى يعامل الأنا بنفس المنهج الذي كان يعامل به الطفل من قبل أبيه إذا ارتكب إثماً. وإذا ما تعدت قسوته وشدته الحد المعقول يصبح تركيبة مرضية. وفي هذه الحال يكون الحساب عسيراً «لأن الأنا الأعلى على علاقة بالهوامات اللاواعية (اللاشعورية) التي قد يحاسب لأجلها على غير علم منه. وهذا ما تثبته الدراسات التحليلية للعصابيين عندما يعانون الأمرين من أفكار قهرية، وما تخلق في نفوسهم من عذاب نفسي».

وتوصل «فرويد» في اكتشافه إلى التأكيد على أن الأنا الأعلى هو في الواقع الوريث الشرعي لعقدة أوديب. وبفضله تتم عملية الكبت بعد أن تتحطم العقدة، فهي منذ نشأتها إلى نهايتها تبقى لاواعية (لاشعورية). فالتماهي باسم الأب يكون في الحالة السوية الحل لها الذي يمكن الأنا من السيطرة على دوافعها الليبيدية، ويخلق مقابلها

---

(1) Essais de psychanalyse, p.200.

(2) Ibid. p.203.

استثمارات معاكسة تتكون من روادع خلقية ترفعه إلى المستوى الاجتماعي والأخلاقي المتعارف عليه.

وهذا ما يجعله يُقبل فيما بعد على التعاليم الأخلاقية والتربوية بدافع التماهي بمثال الأب.

يقول فرويد[1]: «تعتمد المشاعر الاجتماعية على التماهي بأفراد آخرين من مجموعة يجمعها نفس مثال الأنا». ويقصد «فرويد» من وراء ذلك أنه بحكم هذا التماهي التأسيسي لا يبقى خيار إلا اعتناق مثل والده، فهو على دينه يرضخ لتقاليده، ويتبنّى قيمه الاجتماعية والتربوية، وينضم إلى المجموعة التي يصبح فرداً منها سواء كانت قبيلة أو وطناً. فيساندها وتسانده ويدعمها وتدعمه ويدافع عنها كما تدافع عنه. فكل أفراد المجموعة مرتبطين بوثاق واحد هو مثال الأنا. وما التفافهم حول زعيم أو قائد يشد وثاقهم حوله، إلا كونه يجسد مثال الأنا حيث يصبح الضمانة لمحبة عادلة يتقاسمونها.

فارتباطه في مثال هذا الأنا الذي يستحوذ على الجماعة ما هو إلا امتداد لارتباطه بكناية اسم الأب الذي يكونه، فمحبته له هي التي جعلته يتماهى به ويتحول عن رغبته المحرمة، على اعتبار أن الأب بحكم ملكيته للفالوس جعل الأم في موقف المتأرجح المرتبط به، يغمرها بحبه معوضاً بذلك عن نقصها واقتناعها بحرمانها من ملكية الفالوس التصوري. فالطفل يتخلص من موقفه الملتزم بالأم أي من تماهيه الفالوسي ليدخل في بوتقة الأب ويتماهى بخصلة من خصاله الحميدة يتميز بها لكي يصبح على غراره. مقابل ذلك يتخلى عن هوامه في امتلاك أمه، ويتحول برغباته إلى استثمارات أخرى انطلاقاً من هذا النقص الذي بقي في نفسه، والذي أصبح المحرك لانطلاق رغباته والتعبير عنها في مجالات ميدان الحياة العامة. ويتبين لنا أن استحالة هذه العلاقة الجنسية الأولية: هي أساس في بناء المجتمع وقيمه الإنسانية. وفي هذا النقصان تبدو اللغة كعامل مؤسس للترميز تنقل الإنسان من حالة الحيوان إلى حالة الارتقاء الإنساني.

حلم السالمون المدخن:

أريد أن أقيم مأدبة عشاء، ولكني لا أجد سوى قليل من سمك السالمون

(1) Ibid., p.217.

مقدمة عن موقع الأنوثة

عندما نستغرق في قراءة قصص ألف ليلة وليلة، يتبين لنا أنه منذ البداية إلى النهاية تتوالد القصص، الواحدة تلو الأخرى، مرتبطة ببعضها بشكل يشعرنا رغم تعدادها أنها ترضخ لقانون واحد يسيرها، وتستهوينا وتشوقنا أكثر فأكثر على غرار شهريار الملك زوج شهرزاد. فتوالد القصص يأتي في نفس المستوى الذي توالد به ثلاثة أبناء حيث استطاعت شهرزاد أن تفرض على زوجها أمراً واقعاً جديداً يغير أسلوبه ونظرته إلى النساء، ويشفيه من عقدته.

فهذا الحديث المشوق، بما يحتوي من قصص مختلفة، رغم تنوعها، والابطال الذين لعبوا دوراً هاماً بها، يعبر في نهاية المطاف عن رغبة شهرزاد في فرض واقع أنوثتها كامرأة لها طابع إنساني يختلف عن الامرأة ـ الغرض الجنسي الذي يسقط بعد استهلاكه. فهذه الأساليب الملتوية، والقصص المختلفة، التي أتت على لسانها، تعبِّر في الواقع عن حديث الأنوثة، لأن الأسطورة شاءت أن يكون نطقها على لسان شهرزاد، للتعبير عن الرغبة الأنثوية في ملتوياتها، وتقنعها، وفي تحايلها، لكي تدرأ خطراً يهددها باستمرار، لأن البوح برغبتها يعرضها لمخاطر لا يمكن حصرها. وقد يكون ذلك، حسبما يتبين من البحث التحليلي، مرتبطاً بتكوينها الجنسي، كون أعضاءها مغايرة، خلافاً لما هو الحال عند الرجل: حيث إن بروز أعضائها يبقى بعيد الإدراك فيما يختص بموضوعها. فعمقها هو عمق الجسد بما هو مجهول في تكوينه وفي قدره، لا يمكن إدراك واقعه إلا بتصور مستمر لا يطال بعده الأخير.

وخطورة رغبة المرأة لا تكمن فقط في طلبها، إنما في تأويل الرجل لها، وما يستهدف من جسده؛ وهي منذ البداية، بالنسبة للرجل، موضوع مبادلة بينه وبين الرجل: سواء في سوق النخاسين، أو في العلاقة الزوجية، حيث إن القران يعقد ربما بين الصهر والأب، وليست الابنة إلا كناية عن موضوع المبادلة. وإذا طالعنا العادات البدائية والشرقية، منذ أن كانت الفتاة تُوأد عند مولدها في بعض القبائل العربية إلى

أن أصبحت لها شخصية مستقلة تحاكي الرجل في كثير من حقوقه، نجد أن الهاجس الأساسي في قمع حرية المرأة، يكمن في خوف أساسي عند الرجل. فالمواضيع التي تدخل في ملكيته، لا يمكن الحفاظ عليها إلا في قمع الرغبة لها. فهي ما دامت في إطار الحاجة والطلب، تبقى مرتهنة به، ملتزمة في الانصياع لرغبته وتلبية أوامره؛ ولكن إذا ما حصل أن رغبت، فإن ذلك سيشكل خطراً لا مفر منه، لأن احتمال تحول موضوع الرغبة إلى شخص غيره، يضعه في موقع خطر، لأنه يحبط كل الاحتياطات التي مارسها طيلة الأجيال لكي يحول دون رغبة المرأة، ويحصر وجودها فقط بالتزامه به عبر الطلب والحاجة فقط. فقفص الحريم الذهبي في العهد العثماني، والعباسي، وغيرهما، هو خير دليل على الملكية. حيث كانت الامرأة موضع تبادل امتلاكي، تغرق في كل مباهج الحياة شرط أن تبقى في هذا القفص الذهبي، أي تمتنع عن التعبير عن حرية رغبتها(*).

وخوف الرجل من استقلال رغبة المرأة عن رغبته، جعله يسقط عليها كل الأخطار الناجمة من هكذا موقع: فهي المسؤولة عن خروجه من الجنة، في المفهوم الديني؛ وهي المسؤولة عن انتشار الأمراض في الأساطير اليونانية (صندوق بندور)؛ وهي المسؤولة عن شرف العائلة إذا ما تلطخ بسبب انزلاقها، حسب التقاليد والعادات الشرقية، وهكذا فكل هذه المواقف تشير إلى أن الرجل يعاني من خطر داهم يتمحور حول رغبة المرأة وموضوعها.

ونشير في المناسبة إلى تناقض ظاهر في موقف الرجل في هذا الموضوع: فالمرأة بصورة عامة إن كانت زوجة، أم عشيقة (أي تدخل في إطار موضوع جنسي) تختلف تماماً عن المرأة المتمثلة في الأم، حيث ينصاع الابن لها ولرغبتها بدرجات متفاوتة ـ إلى حد التقديس ـ فالسلطان العثماني مثلاً كان يخضع قصر الحريم إلى مراقبة شديدة، لدرجة أنه كان يضع بين الامرأة والامرأة مخصياً، كي يحول دون بزوغ أي رغبة جنسية سحاقية بينهن: ويخضع حاشيته وآلته الحاكمة إلى نظام مراقبة كي تبقى كل موارد البلد تصب في قصره، ولحساب ملذاته الخاصة، ووزع العيون المراقبة في كل مكان كي لا يفلت من إرادته أي مسؤول أو متمرد. ولكن يبدو لنا من خلال بحث لكاتب فرنسي(1): إن هذا السلطان الذي كان يسيِّر هذه العيون، والأجهزة

(*) خطر رغبة المرأة على الرجل انه لا يستطيع أن يضمن امتلاكها.

(1) Alain Grorichard, La structure de sérail.

المراقبة لحساب ملذاته، يخضع الحريم لقمع، ويتحكم بهن كي لا تخرج أي رغبة عن إرادته. كان هو في المقابل يخضع لإرادة عليا تتحكم به، ويبدي تجاهها الالتزام المطلق: يركع أمامها، ويقبِّل يديها، ويعتبر رغبتها أمراً لا بد من الالتزام به. وهذه السلطة، كانت تتمثل بالسلطانة الأم المتربعة على عرش غير مرئي، يحكم، ويتحكم ويملي إرادته على الجميع من وراء الستار.

والسؤال يطرح هنا بالنسبة للرجل الشرقي المعاصر هو الآتي:

هل المرأة الشرقية التي خرجت من سجن الحريم، لكي تواجه الرجل لأول مرة برغبتها الأنثوية، بمعزل عن الخطر والكبت الذي رافق تطورها خلال أجيال عديدة؟ هل استطاعت أن ترفع الرجل الشرقي إلى المستوى الذي يؤهله، لكي يتقبل هذا التطور دون أن يعيد النظر في تركيبته؟ وهل يمكن أن يكون لهذا الآخر رغبة وأمان بمعزل عنها، دون أن يهدد ذلك مفهومه لرجولته، ومكانته الاجتماعية. وهل يمكن أن ينتقل من موقف الراغب جنسياً بالمرأة إلى موقف المتفهم لحياتها الجنسية؟

فلكي نتمكن من محاولة الإجابة عن هذه الأسئلة، لا بد لنا من التحليل النفسي، وبكتابات فرويد حول الموضوع، فلربما مكَّن ذلك من إلقاء بعض الأضواء على موضوع يعتبر من أصعب المواضيع النفسية والتي سماها فرويد: بالمحيط الأسود، الذي يصعب على المرء خوضه، واستكشاف قاعه. فالمرأة لغز، لا يمكن فك بعض رموزه دون إعادة النظر في المواقف التي فرضها الرجل عليها على مر الأجيال. وعلى القارىء العربي أن يأخذ علماً بهذه الاكتشافات النفسية، سواء اقتنع أو أخذ موقفاً متفهماً أو مغايراً منها، وحتى رافضاً؛ إذن الغاية من بحثنا الوقوف على مفهوم التحليل النفسي لموضوع الأنوثة، ولذلك سنستعين باكتشافات فرويد حول الموضوع، والنقاش الذي أثارته نظرياته الجديدة لأن، كما سيتبين لنا، آراءه واجهت موجة عنيفة من المقاومة لتفهم الأنوثة حتى عند المحللين أنفسهم. فلذلك نجد أن فرويد واجه صعوبة شديدة في حمل زملائه على تقبل نظريته الجنسية حول الإمرأة، سواء نشأتها أو تكوينها. ونقول منذ البداية إن عامل المقارنة على أساس (Passif - Actif) لا يصلح كنقطة للتعريف بالموضوع، وهذا ما حاول فرويد دحضه على اعتبار أن الأفكار المسبقة حول حصر الأنوثة بالسلبية، والرجولة بالفعلية، فكرة خالية من الصحة، يشهد على ذلك عوامل عدة عضوية ونفسية.

ونكتشف أن وراء هذه الأحكام المسبقة عوامل نفسية تكمن عند الرجل، لا تخلو

من الأهمية، لأنها تعكس مفهوماً معيناً تكوَّن عند الرجل منذ نشأته الأولى، وأصبح الإسقاط هو الوسيلة الوحيدة لكي يتمكن من الحفاظ على مفهومه النرجسي لرجولته[1].

في القائمة العديد من الدراسات، والنقاشات، التي يتوجب علينا خوضها أو تفهمها لكي نلم بشيء من الموضوع. ولا يخفى علينا أن موضوع الأنوثة كان موضع اهتمام الكثيرين من العاملين في الحقل النفسي والاجتماعي، في السنين العشر الأخيرة، حيث نجد اختلافاً في الرؤيا حسب ما يكون صاحب الدراسة رجلاً أو امرأة. فالمرأة تتهم الرجل بأنه لا يحق له التكلم على الأنوثة اعتباراً منها أن الموضوع لا يمسه مباشرة، ورؤيته تأتي دائماً منحازة. والرجل يتهم الامرأة بأن نقاشها للأنوثة ينطلق دائماً من خلفيات اجتماعية، وأنتروبولوجية، تجعلها دائماً في موضع المطالب بعطل وضرر لقاء التعسف والكبت الذي عانت منه على مر الأجيال.

ونشير بالمناسبة إلى أن هناك كميناً تقع فيه بعض النساء، من كون رؤيتهن للأنوثة تأتي بحكم مواقف متماهية بالرجل، فتترجم بمطالبة إعطاء الإمرأة حقوقاً تتساوى بها مع الرجل .

فيكون موقفها غير مختلف عن موقف الرجل انطلاقاً من إنكارها للأنوثة الذي يترجم بصورة معاكسة محاكاتها للرجل، أي تضع نفسها في موقف معادٍ يغيب عنها جوهر الموضوع.

ونشير منذ البداية إلى أن موضوع القضيب هو المحور الذي تدور حوله الأبحاث كما سيتبين لنا فيما بعد، وهذا ما سيجعلنا نتوقف عند خصائص الأوديب عند الفتاة، وكيفية تخطيه هذه العقدة التي هي بمثابة المدخل إلى الأنوثة على ضوء الطريقة التي تنحل بها.

ورغبة منا في توضيح الأمور، سنستعرض نظرية فرويد في الموضوع، وبعدها نظرية أرنست جونس، ومن ثم النظريات التي تلت سواء في خط فرويد، أو في خط جونس، أو ما اختلف عنهما معاً.

ونشير بالمناسبة إلى أن دراسة التحليل النفسي تتم عبر ما ورد في الأدب والفن، وتستوحي من الشعراء والأدباء عبر ما كتبوا وعبروا عن تصورهم للأنوثة.

---

(1) هذا المفهوم النرجسي نجده يتجسد بصورة واضحة في الحديث عن الحب في«الوليمة» لأفلاطون، من حيث أنه حب نرجسي يتجسد بذاتية الرجل وتكوينه، ويضع المرأة في مرتبة ثانية.

الميزة الجديدة في اكتشافات التحليل النفسي أنها انطلقت من تأمل المحلّلين، وما أكسبهم إياه العمل العيادي اليومي، حتى أصبحت النظرية إلى حد ما مطابقة لمواصفات العمل العيادي.

والمأخذ الوحيد على التحليل، أنه يتعاطى مع صنف معين من البشر يقتصر على المرضى.

فلذلك لا يجوز تعميم ذلك على الأصحاء. ولكن في الواقع ما من عارض إلا وكان يحمل في طياته حقيقة يعبر عنها على غير علم من الذات. والأعراض المرضية في مفهومها العام ليست إلا نتيجة مغالاة لأوصاف موجودة عند كل السويين. فاكتشاف حقيقة في عارض معين هي في حد ذاتها شاملة على سائر البشر. وهكذا الأمر بالنسبة للعقدة الأوديبية، باعتبار أن هذه العقدة، وما تخفيه في طياتها من تقصير العمل الجنسي، كانت المنطلق لكل العلاقات الاجتماعية. ولولا هذا الإحباط لما كان هناك مجتمع، وعلاقات اجتماعية. فدوام هذه العقدة عند العصابيين، واكتشافها، مكّن التحليل من تعميمها على سائر البشر.

نظرية فرويد

القواعد الأولى للأنوثة وتكوّنها، وصفها فرويد في كتابه «ثلاث نظريات» سنة 1905 . ولكن سبق ذلك إشارات لنظريته عن الأنوثة، في الكتابات السابقة، وبصورة خاصة، عبر تطور نظرية التحليل النفسي. فيجب أن لا ننسى أن اكتشاف التحليل النفسي متاخم لتطور فهم فرويد للإمرأة، لأنه، كما نعلم، عبر الهستيريا وعوارضها تمكّن فرويد من اكتشاف التحليل الذي جرّه إلى التحليل الذاتي. نقطة الانطلاق لاكتشاف اللاوعي (اللاشعور)، وتأثيره في الحياة السوية والمرضية.

فاللاشعور كان نتيجة هذا التعامل مع الامراة من حيث أن عوارضها كانت إحدى المظاهر المقنعة للأنوثة. فنزع الأقنعة الواحد تلو الآخر يؤدي، بالضرورة، إلى اكتشاف حقيقة لا مهرب منها. فالمرأة هي موضع هذه الحقيقة بالنسبة للرجل. وهذا ما حاول فرويد اكتشافه في الوقت الذي تراجع فيه زميله بروير (Breuer).

المرأة ليست موضع درس يمكن أن يتناوله الرجل بتجرد. فأي تقدم في هذا المجال لا بد أن يطال الرجل نفسه، في بنيته النفسية، ويؤدي إلى تغيرات في مفهومه

لنفسه ولرجولته. وهذا ما حدث في الواقع لفرويد، لأنه عبر الهستيريا استطاع فرويد أن يكشف معالم اللاوعي (اللاشعور)، وتمكن من التقدم في تطوير نظريته.

فمدخل التحليل النفسي هو الهستيريا التي أصبحت مقولة يتناولها الرجل أو الامراة إذا ما أخضع نفسه للتحليل النفسي، مهما كانت بنيته النفسية، حسب تعريف لاكان.

الهستيريا جرّت فرويد إلى عالم الجنس ليكتشف مكنونه عبر الدلالات التي إن دلت على شيء، دلت على أن الجنس هو خطاب يؤدي بالضرورة إلى تحديد الفارق الجنسي: أي اكتشاف الخصاء كعقدة أساسية ولكن ليس بمفهومها التشريحي المؤسس، بل عبر الهوامات والنظريات الجنسية التي تكونت خلال الطفولة: حيث يتبين الفارق الأول ما بين المعرفة والحقيقة.

فمعرفة الإنسان لعملية الفارق الجنسي والبيولوجي بين الرجل والامرأة يحول دون تورطه في مزالق موقفية تبين عكسية هذه المعرفة. وهذا لا يحول دون المثلية الجنسية، أو الانحرافات المختلفة، لأن الحقيقة تكمن في اللاوعي (اللاشعور) وهي ما تعبر عن الذات الراغبة اللاواعية (اللاشعورية). أي موضوع التحليل النفسي الذي توصل إليه فرويد.

سنبدأ بعرض بعض أفكار فرويد حسبما وردت ضمن التسلسل الزمني الذي، كما نلاحظ، تعرض لترميمات عديدة قبل أن يضع البصمة الأخيرة في مقاله «الأنوثة»، سنة 1932.

ثلاث نظريات في الجنس ـ سنة 1905

منذ البداية اعتمد فرويد حجر الزاوية الذي لم يحد عنه فيما بعد: الوحدة الجنسية عند الذكر والأنثى، وهي أول نظرياته حول الجنس في تكوين الأنوثة أو الرجولة. كلا الطرفان أنثى وذكراً يعتقدان بأن لهما عضواً ذكرياً (القضيب بالنسبة للذكر والبظر بالنسبة للأنثى). ويتهيأ لهما أن العالم تكوَّن طبقاً لتصورهما، أي يجهلان في آن واحد وجود الفرج. فالمظاهر الجنسية بالنسبة للفتيات الصغيرات: ذكروية صرف.

فالفرج لا يوجد له تصور على الصعيد النفسي، لأن البظر يأخذ مكان الصدارة على حساب باقي الأعضاء الجنسية الخارجية. وهكذا يمر الفتى والفتاة في ثلاث مراحل أساسية بالنسبة لممارسة العادة السرية: الأولى من الرضاعة، والثانية في سن الرابعة (أي المرحلة الأوديبية)، والثالثة في سن المراهقة.

في المرحلة الثانية يمر الفتى في تصور نتيجة ملاحظته، أن الفتاة ينقصها القضيب. ويعتقد أن يكون ذلك لسبب ما، فيخاف أن يطاله القصاص ذاته في حال رغب في شيء محرم. والفتاة الصغيرة: تتصور بأنها مخصية، وتنطلق الرغبة عندها في أن تكون ذكراً. القضيب موجود عند الذكر في الواقع وموجود في المتخيل عند الفتاة عبر التميز.

يؤكد فرويد في هذا الكتاب أن عقدة الخصاء متواجدة عند الجنسين، وأن اشتهاء (تمني القضيب) القضيب يميز تطور الفتاة. فإلى حدود المراهقة لا تتميز الفتاة عن الفتى. والتفرقة بين الذكر والأنثى غير واردة.

في مرحلة المراهقة، تظهر الفوارق: عند الفتى الانتصاب في القضيب، وإيلاجه في الفتحة الشرجية. عند الفتاة يحصل الكبت للوظيفة الجنسية البظرية، وبالمناسبة كبت أيضاً للمظهر الذكروي المرتبط. ويكتشف الجنسان الفرج ووظيفته.

وفي هذا الكتاب لم يوضح فرويد أهمية العقدة الأوديبية، وارتباطها بالخصاء، ولكنه أكد على العلاقة المحرمة مع الأم.

ويستخلص فرويد أول مسلمة من المسلمات التي سيتناولها في مقاله فيما بعد وهي أن الوحدة الجنسية القضيبية تطال الفتى والفتاة على السواء: ولا يوجد إلا جنس واحد هو الجنس الذكروي حتى سن الرابعة عندما تصطدم الفتاة بعقدة الخصاء: تظل الفتاة تعتقد بأنها فتى مخصي وتجهل بالمقابل وجود الفرج.

قبل التوصل إلى هذه النتيجة، حاول فرويد التعمق في البحث عن المرحلة ما قبل ـ الأوديبية، على اعتبار أن هذه المرحلة أساسية في تكوين الأنوثة وآثارها على مجرى حياة الامرأة، كونها تتعدى بكثير ما يحصل عند الطفل الذكر. وباعتراف فرويد نفسه، لا يخفي الصعوبات الناجمة عن هذا الموضوع، لأنه كما يقول: قلما توصل التحليل إلى هذه المرحلة عند النساء. فلذلك كل ما يمكن أن يقوله، ليس إلا أضواء على جوانب محددة، مع الاعتراف بأن هناك جوانب أخرى لا تزال غامضة كونها تقاوم الانصياع للتحليل.

والمحور الذي ركز عليه فرويد: هو المتمثل ما بين الأم والابنة، وما يتخلل هذه العلاقات من مشاعر متناقضة معقدة في طبيعتها، مما جعل الخوض في الموضوع شديد الصعوبة، ولذلك كرس لهذه المرحلة دراستين مهمتين: الأولى: عن الحياة الجنسية الأنثوية، 1931 .

الثانية: الأنوثة سنة، 1932.

أما المرحلة القضيبية: والشهوة القضيبية (Penis - Need): فهي المحور الأساسي للمرحلة الأوديبية ـ متممة للمرحلة السابقة ـ ولا يمكن فهمها إلا على ضوء النتائج الناجمة عن المرحلة الماقبل أوديبية.

ولكي نسهل عرض أفكار فرويد حول الموضوع سنتناول في بحثنا: آراءه في الأنوثة بصورة عامة، ثم الانتقال إلى تفحص ما توصل إليه عن تطور «المرحلة الماقبل أوديبية»، لكي نستعرض في فصل لاحق المرحلة الأوديبية وما هي نقاط التقارب والتباين بينها وبين الطفل الذكر.

في مقالة الأنوثة[1] يتناول فرويد بحثه للموضوع من جانبين: الجانب التشريحي والجانب النفسي، وينتهي إلى القول لا من الناحية التشريحية، ولا من الناحية النفسية، نستطيع أن نثبت بالتأكيد تحديد الأنوثة بشكل من الأشكال. فموضوع الازدواجية الجنسية (وهي فكرة ورثها من صديقه فليس وظل يؤمن بها حتى بعد انفصاله عنه) يتحكم بالجنسين. فما من رجل يخلو من بعض المواصفات الأنثوية، وما من امرأة تخلو من المواصفات الذكورية، والتمييز بين الرجل والامرأة قائم بتغلب نسبي لقسم من الأوصاف على الأخرى، من حيث إن هذه الأخيرة تبدو جانبية في حال اكتمال النمو في هوية جنسية مميزة.

من الناحية النفسية: هناك كما يقال سلوك ذكوري، وسلوك أنثوي، وإن هذه الأوصاف المطابقة لتحديد الجنس لا تخلو من أحكام مسبقة منها ما هو إيجابي يطابق الوصف الذكوري، ومنها ما هو سلبي يطابق الوصف الأنثوي ولكن فرويد يذكر، بأن كثيراً من الحيوانات تكون الأنثى فيها أشرس وأقوى من الذكر. وحتى في العلاقات الجنسية نجد أن الحيوان الأنثى من حشرات وغيرها يأخذ الموقف الإيجابي. وحتى مفهوم الأنوثة وتربية الأطفال ليست مقتصرة على الإناث، فكثير من الحيوانات الذكور تكرس أوقاتها للعناية بصغارها. وحتى في مفهوم آخر، عناية الأم بالطفل، وإرضاعه هو بحد ذاته بمثابة عمل إيجابي فعال بعيد عن السلبية.

وفي الحياة الاجتماعية نصادف كثيراً من الرجال سلبيين في حياتهم لا يجدون الانسجام والراحة إلا برفقة نساء مترجلات في تصرفاتهن.

---

(1) S. Freud, La féminité.1932.

تستمر حتى سن الرابعة أو الخامسة، وحتى في مرحلة النشاط الجنسي. وألمح إلى أن الفتاة التي تبقى في تعلق عشقي بالأم دون أن تتمكن من الانتقال إلى حب الأب، لا يتسنى لها إقامة علاقات طبيعية مع الرجل.

من هنا يؤكد فرويد على أهمية المرحلة الماقبل الأوديبية عند الفتاة، ويعلق عليها أهمية كبيرة في تفهم سيكولوجيا الامرأة. ولكن لا يغيب عن باله الصعوبات التي تعترض الكشف عن هذه المرحلة نتيجة الغموض الذي يحيط بها، والكبت الذي يكتنفها، ويضيع معالم اكتشافها.

ويعترف فرويد بأن ما توصل إليه من نتائج ليس إلا من دواعي الاستنتاج والتخمين: ولذا نراه يتوصل إلى الافتراض بأن هناك صلة ما بين هذه المرحلة والتعلق بالأم فيما يختص بمصدر الهستيريا.

وإن حالات البارانويا عند الامرأة مرتبطة بهذه المرحلة.

فعلاقة الفتاة بالأم ترتبط بهوامات تستمر حتى سن الرشد، ونكتشف فحواها عن طريق العمل التحليلي.

يتحكم بهذه العلاقة شعور ازدواجي حبي وعدواني، أو سلبي وإيجابي في آن واحد: وبحسب المرحلة التي تمر بها، تأخذ الطابع الفموي، أو السادي الشرجي، أو الفالوسي. يتكون خلالها ثلاثة هوامات، تلعب دوراً كبيراً في توجيه مسلكها:

الأولى: رغبة الفتاة بأن ترزق ولداً منها (أي تحمل) أو أن تنجب منها ولداً. وهو عامل مميز للمرحلة القضيبية. في كلتا الحالتين هنالك نفي لحرمان الأم من القضيب أو حرمانها كأنثى.

الثاني: هوام التسمم والاضطهاد الذي يهدف إلى القتل، وهي نواة البارانويا، مصدر العلاقة الأولى مع الأم، كون الفتاة بحالة سلبية تامة تجاه الأم، وبما أنها لا تكفيها من العناية وعطاء الحليب، تقلب هذا الإحباط عليها بمشاعر عدوانية، ثم ترتد بشعور معاكس من جهة الأم التي تصبح بحكم عملية الإسقاط مضطهدة لها بدلاً من العكس.

الثالث: وهو إغواء الأم. التحليل النفسي كان يركز على الشعور المحرم بين الأب والفتاة، وإغواء الأول للثانية، الذي كان سبباً في تخلي فرويد فيما بعد عن النظرة الصدامية للعصاب، واكتشاف الهوام كبديل لواقع لم يحصل. ولكنه لم يعط

الأهمية الكافية للعلاقة الإثمية بين الطفلة والأم . ففرويد[1]: في تاريخ الماقبل أوديبية عند الفتاة هوام الإغواء، ولكن في هذه المرة يرى أن الأم هي الغاوية.

ونحن نلاحظ أن علاقة الفتاة بالأم في هذه المرحلة هي علاقة مثيرة، من حيث إن الالتصاق الجسدي، والإثارة التي تحصل عن طريق اللمس، والعناية، تولِّد هوامات شبقية، يطالها التحريم والكبت فيما بعد، ولا يمكن اكتشافها إلا عن طريق التحليل، لأن الاقتراب منها يولد عند الامرأة هلعاً يوقظ هوامات بدائية مرتبطة بها.

وعندما سئل فرويد عن السبب الذي يدعو الفتاة إلى التحول عن أمها، بعدما كانت متشبثة بها ـ أجاب[2]: «بأن العملية ليست تغيير موضوع (أي الأب بدل الأم)، ولكن تحوّلاً حقيقياً يحصل تحت راية الكراهية. وهذه الكراهية تكون في بعض الأحيان قوية إلى درجة أنها تستمر طيلة الحياة».

ما الذي يحصل حتى يتحول هذا الحب إلى كراهية؟ لا يمكن أن نتصور أن يتخلى شخص ما عن موضوع حبه، إذا لم تتغير الصفة التي تربطه بهذا الموضوع. والكراهية للأم هي وليدة الطلب. من حيث إن هذه الأخيرة، التي تحتل مكان الآخر المتكامل، تلبي كل طلبات الطفل من عناية وغذاء ودفء. ولكن يبدو أن طلبات الطفل لا تقف عند هذا الحد، لأن هذا الآخر الكبير هو في حد ذاته ناقص، وأن الصورة المتكاملة التي يسقطها عليه ليست في الواقع إلا وليدة النرجسية التي يحاول عبثاً تحقيقها. فاصطدام هذه الصورة النرجسية المتكاملة لأناه مع الآخر الناقص (الأم)، تولد عنده الكراهية والنفور مكان الحب والولع. لذا يردد فرويد، أن الطفل بصورة عامة، يتذمر بأنه لم يأخذ القسط الكافي من الحليب، أو أمه لم ترضعه بما فيه الكفاية، وانتزاع الثدي يرافقه دائماً شعور عميق بالاحباط يتحول فيما بعد إلى كراهية لعدم إشباعه بما فيه الكفاية.

كذلك ولادة أخت أو أخ يحرك في نفسه الشعور بالغيرة، ويرى في هذا المولود الجديد غريباً أتى لكي يخلعه عن عرشه، ويقاسمه مكاسبه المستحقة، والأم،عادة، هي المسؤولة الأولى، لأنها ولدته من ناحية، ومن ناحية ثانية جعلته يحتل مكانه في حضنها. فالأم متهمة بالخيانة بحقه، وهو الذي حمَّلها كل آماله، يراها الآن تتحول

(1) المرجع نفسه، ص 158.

(2) المرجع نفسه، ص 159.

عنه، وتكرس اهتمامها إلى هذا المولود الجديد؛ سيما أن الطفل لا يعرف الحلول الوسط، فهو دكتاتوري، وأنانيته لا تعرف الحدود. وإن أخلّت الأم بتلبية طلبه، تنفجر عنده دوافع البغض والكراهية. والفتاة تختلف عن الولد عندما تصارع العقدة الأوديبية (Penis - Need)، فكل الطلبات غير المشبعة سابقاً كان يمكن ألا تؤدي إلى هذا التحول المهم، لو لم تصب في خزان الطلب الرئيسي، وهو الفالوس . خيبة أملها تتضاعف عندما يتأكد لها أن أمها ليست بأحسن حال منها، فهي أيضاً لا تملك القضيب لكي تمنحها إياه؛ وهذا الطلب كان مدعوماً سابقاً بهوام الأم القضيبية . وهو الآن ينطلق من إدراكها لنقصها، مع التمنّي بأن أمها ستعوِّض عليها ذلك كما هو الحال بالنسبة إلى أخ لها ـ فهي إن كانت قادرة على إعطاء أخيها قضيباً، فلا بد من أن تعوض عليها ذلك. وهذا الهوام مزدوج في تعميمه: فنقمتها على أمها تتضاعف من ناحيتين: الأولى، لأن الأم ولدتها ناقصة، محرومة من هذا القضيب الذي تركز عليه اهتمامها؛ والثانية، لأنها خلقتها على شاكلتها ناقصة. فصورة الأم المتكاملة، التي أسقطت عليها كل هذه الهوامات النرجسية في البداية، تواجهها بعد إدراكها للحقيقة نقمة وعداء بمستوى الحب الذي كانت تكنّه لها سابقاً.

ويترتب على هذا الإدراك نتائج هامة تؤثر في مجرى حياتها، وفي تطبع أخلاقها. فأولاً: يتولد عندها شهوة القضيب، وتتطلب المساواة، سيما بعد أن أدركت أن الآخر الذكر يملكه. وأن مطلب الفالوس هو محور كل طلب، انطلاقاً من التركيبة الاجتماعية التي تعطي للرجل الدور الأول والحقوق المميزة.

ثانياً: من هذا الباب تدخل مرحلة عقدة الخصاء، فهي تختلف عن الطفل الذكر الذي يدرك أن هناك أناساً لا يملكون القضيب، أي تنشأ عنده فكرة أن هذا العضو يمكن أن يملك أو لا يملك، ويعزز هذا الهوام التهديدات التي كان قد تلقاها على أثر ممارسته العادة السرية .

فالباب الذي تدخل منه الفتاة عقدة أوديب، يقول فرويد، يخرج منه الفتى، وهذا يتطلب شرحاً وافياً سنأتي على توضيحه لاحقاً. ولكن يجب أن نؤكد حسب تعاليم فرويد المستوحاة من اكتشافات التحليل النفسي، أن شهوة القضيب هي عامل مؤثر وفعال في بنيتها النفسية، ويقول إن أكثر الحالات التحليلية للنساء يكمن وراء طلبها، للحصول على القضيب، أو ما يعادله في الحقل الرمزي من مهن حرة، أو فكرية تضاهي بها الرجل.

فإذا بالفتاة تكتشف الخصاء (تكتشف أنها تختلف عن الطفل الذكر)، وتكتشف أنها بالمقارنة مخصية، وأن وضعها مشابه لوضع أمها ـ فهذا الاكتشاف لا يتم تقبله، وإدراكه، إلا إذا رافقه انهيار للهوام الأولي حول امتلاكها للقضيب، والذي تتفرع منه هوامات جانبية عديدة تصب في نفس الاتجاه: منها أن البظر سيكبر وسينمو، خاصة إذا ما عزز ذلك رؤية قضيب في حالة الذبول ثم في الانتصاب يكبر وينتصب. أو أن القضيب الذي تفتش عنه هو في الداخل. إلى ما هنالك من هوامات تعتمد على آثار ذكروية شرجية وفموية حول وجوده أو امتلاكه.

أمام هذا الاكتشاف، يقول فرويد[1] يترتب على الفتاة، ثلاثة طرق:

1 ـ الأول يؤدي إلى الكف الجنسي أو العصاب.

2 ـ والثاني إلى تغيير مسلكي، أي في تكوين عقدة الرجولة.

3 ـ والثالث إلى تكوين الأنوثة السوية.

المخرج الأول: تتمسك الفتاة بعقدة الفالوس، ولكن عندما تدرك التباين الجنسي بينها وبين الذكر، تهمل العادة السرية التي كانت موجهة نحو الأم وتتحول عنها، لأنها تشعر أنها مصابة في كبريائها، والأم هي المسؤولة الأولى، على اعتبار أنها منحت القضيب للأخ وحرمتها منه.(*)

وسريعاً ما تكتشف أن باقي النساء محرومات من هذا القضيب وبالمناسبة الأم. فتعلقها بهذه الأخيرة كان مبنياً على أساس أنها أم قضيبية، وهنا يظهر بوضوح ما كانت تضمره لأمها من بغض وعداء انطلاقاً من خيبة أملها الأساسية. فبعد أن مارست العادة السرية التي كان يغذيها هوام الأم، تنصرف عنها نظراً لاحتقارها لهذا العضو الضئيل، البظر، إذا ما قورن بعضو الذكر. وفرويد يعلق أهمية كبيرة على هذه المرحلة.

ورغم انصراف الفتاة عنها، نجد أن لها جذوراً عميقة في تكوين المسلك والتصرفات الاجتماعية، وحتى اختيار الزوج والعشيق؛ وبالإجمال التحول عن البظر، يصحبه كبت لكل النشاط الجنسي المرافق له، ويكون من نتائجه كبت لرغبات جنسية

---

(1) المرجع نفسه، ص 166.

(*) هذا الفالوس هو مؤسس ولا يظهر في البداية إلا بشكل نقصانه (∅-) يرمزه لاكان بدال 1 يتبعه دال 2. الدال الأول يطاله الكبت ويحل الثاني بديلاً عنه. موقع الانوثة يعتمد بالضرورة على نجاح أو عدم نجاح عملية الكبت لدال 1.

عميقة، تترجم على الصعيد العيادي ببرودة جنسية، وتحولات إلى أعراض انقلابية(*).

وعندما تتوقف الفتاة عن العادة السرية، تسقط من حسابها قسماً كبيراً من توظيفها الفالوسي، وهكذا تتحول من فعاليتها إلى سلبيتها؛ وهذا التحول يكون محوره الأب.

ولكن لماذا الأب؟ كما تبين لنا فإن الفتاة أصيبت بخيبة أمل مزدوجة من خلال علاقتها بأمها: أولاً، كونها لا تملك القضيب فهي مشوهة، إذا ما قارنت نفسها بالذكر. ثانياً، إن كل النساء لا يملكن القضيب، وبصورة خاصة أمها ـ فتوجه طلبها الرئيسي إليها كان مصدره دواعي قضيبية.

لذلك يسقط من حسابها، أهمية أمها بالنسبة إلى مطلبها. ومن ناحية ثانية تنهار الصورة النرجسية التي كان محورها الفالوس المتخيل. انطلاقاً من شهوة القضيب هذه تحصل تغيرات بعلاقات الطفلة، فبدلاً من أن تتوجه طلباتها نحو أمها لكي تعوض عن هذا النقص، تتوجه الآن نحو والدها، على اعتبار أنه يملك هذا الفالوس، وهذا يعني أن أمها أصبحت موضوع هذا النقصان، لأنها بدورها أيضاً تتوجه إلى الأب لكي يعوضها إياه، وهكذا بدلاً من أن تكون الأم عنصراً مسانداً للفتاة، تصبح منافسةً لها، وحاجزاً مانعاً دون استفرادها بالأب. ويتدعم هذا الاتجاه إذا صدف أن حبلت الأم، فيتهيأ لها أن الأب هو الذي وهبها هذا الولد؛ وهكذا تحل فكرة أمنية الحصول على ولد من الأب، بديلاً عن هوام الحصول على الفالوس. وهذه المعادلة الرمزية كان فرويد قد أوردها في كتابه: ثلاث نظريات في الجنس، أي: الفالوس،و الغائط والطفل.

وفرويد يميز ما بين هذا الهوام الأوديبي، والهوام ما قبل الأوديبي، والذي يعني تمني الفتاة الحصول على ولد ليس إلا بدافع التماهي بالأم. فلذا نراها تتحول نحو جمع (الدمى)، بدافع غريزي من ناحية، وبدافع التماهي بالأم، أي تكرر على الدمية ما كانت أمها تفعل بها، يعني أنها تعين الدمية مكانها، وتأخذ هي دور الأم. وهذه البادِرة مهمة جداً في تكوين ذاتية الطفل، سواء كان ذكراً أم أنثى، على اعتبار أن هذه اللعبة هي مدخل نحو عالم الرموز.

(*) ما يميز العارض الهستيري في الانقلاب حسب أقوال القدماء (Hyppocrate) أن الرحم يحتل مكان دال 2 البديل عن الفالوس، وعندما ينتقل في بدن المرأة، يوظف طاقته الشبقية في عضو من الأعضاء، يعطل وظائفه ويترجم عادة بأعراض تسمى "بالانقلاب الجسدي".

فلعبة الدمية هذه، لا تأخذ مفهوم طلب الأب، إلا بعد أن تتكون شهوة القضيب. وتستمر عندها حتى بعد أن تتكون أنوثتها ـ ونرى الأم تمتلىء غبطة وسعادة، عندما ترزق طفلاً ذكراً. فهذا الأخير لا يملؤها فرحاً إلا بمقدار ما يعوض نقصانها الأساسي عن طريق التماهي به. كما حصل وذكرنا بالنسبة للمؤشر الأول للعبة الدمية.

وهكذا كما يقول فرويد: تدخل الطفلة المرحلة الأوديبية عن طريق ارتباطها بالموضوع الجديد: الطفل = فالوس[1]. ويميز فرويد، بين ما يحصل عند الطفل الذكر، وما حصل عند الطفلة. فعند الأول: عقدة الخصاء هي المؤشر الذي يمكنه من الخروج من عقدة أوديب. فخوفه على حرمانه من قضيبه يجعله يتحول عن الأم كغرض جنسي، ويستعيض عنها بأمنية الحصول على زوجة تحل محلها. وبزوال الرغبة المحرمة بالأم، تزول الأسباب التي تجعله مهدداً بالخصاء. ويقول فرويد في أحسن الحالات يتكون عند الطفل الأنا الأعلى الذي يرث كل معطيات عقدة أوديب، (أي أن ما كان تحريماً خارجياً، يصبح تحريماً داخلياً يقتدي به ويتحكم بمسلكه الاجتماعي). أما بالنسبة للفتاة: فاكتشافها للخصاء يكون في حد ذاته الباب الأساسي المدخل للدخول في المرحلة الأوديبية. أي أن اكتشافها لخصائها يجعلها تتحول نحو الأب طالبة التعويض، وعندما يصبح الأب مطلباً لها، تصبح الأم بحكم الضرورة منافسة.

فالمرحلة الأوديبية يقول فرويد: هي شاطىء الأمان الذي تخلد إليه، هرباً من هذا الواقع القاسي. فلذا لا يتوفر للفتاة نفس الشروط التي تدفع الفتى للخروج من العقدة الأوديبية. يقول فرويد: إنها تستمر معها فترة طويلة من الزمن حتى إلى ما بعد زواجها، وإذا ما تخلصت منها فخلاصها لا يكون إلا جزئياً؛ وعلى هذا الأساس يبين فرويد نظريته أن تكوين الأنا الأعلى عند الفتاة لا يصبح بنفس الصلابة، ولا يتحلى بنفس القسوة الرادعة التي نشاهدها عند الفتى. وهذا كما ورد يعود إلى عدم اكتمال حل العقدة الأوديبية.

المخرج الثاني كما ذكرنا أمام إدراك الفتاة لعورتها، نقصانها، أي خصائها: هي أن تتكون عندها عقدة الرجولة.

أمام هذا الواقع الذي ترفضه، نراها تتبع طريقاً تغالي فيه بمظاهر الذكورية،

---

(1) المرجع نفسه، ص 177.

فتستمر في العادة السرية البظرية، وتحاول بشتى الوسائل التماهي بالأم الفالوسية، أو بالأب. ونتوقف هنا لحظة عند هذه الفقرة. الأم، كما قلنا، تلعب دوراً هاماً في اكتشاف الطفل لحقيقة الخصاء. وعندما نقول الأم الفالوسية، لا يعني ذلك أن الفتى، أو الفتاة يرى للأم قضيباً(*).

فالفكرة بحد ذاتها هوام يتكون من موقف الأم، سيما إذا كانت هذه الأخيرة ترفض خصاءها، وفي مثل هذه الحالة تتحول مثلاً إلى أطفالها لكي تعوض عن النقص الذي لحقها؛ وتدخل معهم في علاقة مكتملة يُستثنى منها الأب بدوره الخاص جزئياً أو كلياً(**).

وهذا ينعكس في تصرفاتها: تتحكم بالطفل، أو حتى تتخذ مواقف تتحدى بها هذه السلطة، فاستقلالية الأم عن الأب تنبع من رفضها لأن يكون مطلبها التعويض عن نقصها بما يتمتع به الأب من امتلاك القضيب. لذا، بدلاً من أن تتحول الفتاة بطلبها إلى الأب لكي يعوض عن هذا النقص، نراها تتمسك بهوامها على اعتبار أن الأم هي محور هذا الطلب.

وإن استمرت الفتاة في هذا الاتجاه، فمن الممكن أن تتحول بنيتها النفسية نحو الجنسية المثلية أي السحاق، وهذا لا يعني أنها لا تمر في مخاض المرحلة الأوديبية. فالسحاقية، كاللواطية تمران في المرحلة الأوديبية، والتحول الشاذ ليس إلا ردة فعل لانحراف طرأ على حل هذه العقدة.

وهذا ما يؤكده فرويد نفسه في كتابات عدة قد يأتي الحديث عنها عندما نتفرغ لدراسة السحاق.

المهم في الموضوع أن فرويد، وإن استشهد باكتشافات بعض المحللات مثل (السيدة برينزفيك)، فليس ذلك إلا ليؤكد على أهمية المرحلة الماقبل الأوديبية والتي تبقى بنظره المنطقة الغامضة في فهم الأنوثة.

وهنا يؤكد فرويد أن الطاقة الجنسية في الأساس لا تعرف التمييز الجنسي: فهي على السواء في خدمة الرجولة والأنوثة. وإن التحول الذي يشهده، والذي جعل من الامرأة إنساناً هامشياً، ناتج عن تصور الرجل لهذا المسلك عبر التاريخ، وأصبحت

(*) انطلاقاً من هذا الفارق التشريحي للقضيب: يتكون في المتخيل ما يعادله أي الفالوس. ويظهر عندئذ الفارق ما بين الواقعي والمتخيل والرمزي.

(**) الأم التي ترفض نقصانها وتتعامل مع طفلها على أساس أنها لا تزال تتمسك بهوام "امتلاك الفالوس".

ناقصة، ومحرومة من القضيب الذي طالما اشتهت الحصول عليه. فكثير من الخلافات الزوجية، تضع الزوج في حيرة من أمره، وفي عجز من تحقيق طلبها. ولا يستقر الزواج وينعم الطرفان بالسعادة والتفاهم إلا بعد أن تكون الزوجة قد قطعت هذه المرحلة الأخيرة. وقد يساعد على ذلك ولادة مولود، يغيِّر مجرى حياتها، ويربطها بعلاقة مجردة من الازدواجية، تعطيها الاكتفاء الذاتي، وتخفف من حدة عقدة نقصان الفالوس، على اعتبار أنها تتماهى بأمها وتحمل المولود الصغير كل أمنيتها ومثالها الأعلى. أي بأن تعوض ما عانته منه من خيبة أمل، وحرمان، واعتزاز بنفسها.(*)

وهناك جملة غريبة لفرويد يقول[1]: «بأن السعادة الزوجية لا تتحقق طالما لم تنجح الامرأة في جعل زوجها في مكانة الابن، وتتصرف نحوه بشكل أموي»، وهنا لا يأخذ فرويد بعين الاعتبار موقف الرجل، وهل تتهيأ له دائماً الأسباب التي تجعله يرضى بأخذ مكانة الابن بالنسبة للزوجة؟ وهل يحقق ذلك دون أن يفجر عنده بقايا الأوديب، ويصبح ارتباطه بالزوجة مقروناً بالشعور بالذنب، مما يحول دون الاكتفاء الجنسي؟ ولكي نتفهم جملة فرويد لا بد من العودة إلى مقاله حول الحياة العشقية عند الرجل، في كتاب: «La vie sexuelle et amoureuse chez l'homme» PUF.

يعود فرويد في آخر مقاله للتأكيد على على أهمية الأم في التكوين الأنثوي للفتاة. وهذه الأهمية تنبع من ارتباطها الأول الماقبل الأوديبي، حيث إن علاقة الفتاة بالأم هي علاقة تماهي وحب، رغم وجود الدوافع الكرهية المكبوتة. ومن ارتباطها الثاني في المرحلة الأوديبية، نظراً إلى كون الأم موضع كراهية ومنافسة، تتمنى زوالها لكي تحل محلها قرب الأب. ولكن في كانت الحالتين لا يزولا زوالاً تاماً، بل تبقى آثارهما وتأثيرهما مستمرة فترة طويلة من حياتها. فالمدخل إلى الأنوثة، هو في الأساس التماهي بالأم، حتى تستطيع أن تجذب الرجل إليها.

ويقول فرويد: إن هذا اللقاء بالرجل يبقى دائماً ناقصاً، لتفاوت نفساني في تطور كل منهما.

فما لا يحصل عليه الزوج يحصل عليه الابن على أكمل وجه في علاقته الأولى التكاملية مع الأم.

---

(1) المرجع نفسه، ص 176.

(*) تمثّل علاقة الأم بطفلها الذكر النموذج الأكمل لأي علاقة إنسان بإنسان. الحب متبادل ولا يشوبه شائبة. ولا تصاحبه أية ازدواجية: أي الحب ـ الكراهية المميزة لعلاقة الأب بالإبن.

أما الوجه الاجتماعي للامرأة، فيتناوله فرويد بإسهاب، ليلمّح إلى أن الامرأة أقل قدرة على التسامي، وهي في طبعها لا اجتماعية، منكفئة على عائلتها التي تحول دون توسيع هذه الدائرة، ونظريتها إلى العدالة والتساوي، تأتي غالباً منحازة. يعود ذلك إلى أن عقدة شهوة القضيب، وهي المحور الأساسي كما لاحظنا منذ بداية المقال حتى آخره، تحول دون الاكتفاء الذاتي، وتعتبر رغم كل ما تمنح من تعويضات أنها مغبونة، وأن طلبها الأساسي يعود باستمرار إلى طرح نفسه كلما سنحت المناسبة. أي حسب تعريف لاكان د2 الذي يحل محل د1 لا يوازيه ويبقى دونه، مما يضطره إلى الانتقال إلى بديل آخر أي د3 وهكذا...

فرويد يعترف بأنه لم يعط تفسيراً شاملاً وكاملاً لتكوين الأنوثة، وأن ما ورد ليس إلا لقطات، أو مقتطفات حول الأنوثة.

شهوة القضيب

كنا قد لاحظنا أن فرويد وضع شهوة القضيب عند الفتاة في وسط اهتماماته لكي يتوصل إلى القول: بأن التحول الذي يحصل عندها، سواء في اتجاه العصاب، أم في اتجاه الأنوثة المتكاملة، يمكن تفهمه ومصدره في هذا المحور الأساسي. وهذه النقطة، كما سنرى، كانت موضع نقاش بين معظم المحللين الذين اشتغلوا في هذا الموضوع. وكانت مصدر خلاف فيما بينهم، ولكن رغم كل ما ورد من اعتراضات بقي فرويد على موقفه، وداعماً لنظريته. وهذا ما سنأتي على بحثه في مقاله: «الحياة الجنسية عند الامرأة، 1923».

قبل أن نتناول هذه النقطة: سنحاول استقصاء مصدر فكرة أهمية القضيب، سواء كان ذلك في وجوده عند الفتى، أم نقصه عند الفتاة.

والفكرتان مترابطتان فيما بينهما ارتباطاً وثيقاً: فالطفل الذكر لا ينتابه الخوف من فقدان القضيب إلا إذا ما تبين له أن الجنس الآخر، مميز بفقدان هذا العضو. والفتاة لا ينتابها فكرة التشويه، والشعور بالنقص، إلا بعد أن يتبين لها أن الذكر يتمتع بوجود هذا القضيب الذي أصبح، بحكم التكوين الاجتماعي، موضع فخر واعتزاز لدى الأم وكأنه محور العائلة.

وكما نعرف، فإن هذا العضو يأخذ أهميته ابتداء من المرحلة الفالوسية، فيسلط عليه الطفل اهتمامه، ويوظفه بالقسم الأكبر من طاقته الليبيدية. فهو المركز الشبقي

المثالي، يستحوذ على كل أحاسيسه، ويحيطه بأهمية فائقة. وهو المحور الذي تتكون حوله أكثر الهوامات قياساً إلى ما يجده من استمتاع يفوق كل الاستمتاعات السابقة، من فموية أو شرجية.

فلذا يصبح الرصيد النرجسي لهذا العضو يفوق كل الأعضاء. فالخوف عليه يوازي الخوف على حياته، وأية فكرة تهدد وجوده، تصبح مصدر خوف لا يطاق. وهو ما سماه فرويد «خوف الخصاء» (Angoisse de castration).

انطلاقاً من هذه النقطة، يبني الطفل حوله كما يستعرض فرويد في مقاله «ثلاث نظريات حول الجنس» 1908.

النظرية الأولى: إن هذا العضو معمم على كل أفراد البشر، ولا يمكن أن يتحمل الطفل معرفة أن هذا العضو ينقص عند البعض . وهكذا عندما يكتشف عن سبيل الصدفة عند الجنس الآخر نقصان هذا العضو، يتبادر إلى ذهنه مباشرة، أنه موجود، ولو كان بحجم صغير، ولا بد أن يكبر وينمو مع نمو الفتاة. فمصدر هذه الفكرة هو الإنكار في حد ذاته لما يؤكده نظره، لدحض الواقع الذي يمكن أن يتهدد رصيده النرجسي. ويتأكد لنا ذلك في كثير من الحالات التحليلية، وحتى مراقبة الأطفال مباشرة، عن طريق الهوامات التي تتكون حول فكرة الامرأة الفالوسية. ومما لا شك فيه أنه إذا لم يتهيأ له تخطي الشعور بالقرف، والاشمئزاز، من رؤية عضو المرأة وتقبل الحقيقة، نراه يجنح في بنيته نحو الشذوذ، وتصبح الامرأة موضع خوف، ونفور، وإحجام لرغبته، والرجل غرضاً جنسياً يثير مشاعره الشبقية على أساس نرجسي(*).

من هذا الباب لا يفرِّق فرويد بين الذكر والأنثى، فالهوام نفسه يجمعهما في معتقد واحد، حيث تتم المعادلة الموجودة أصلاً ما بين القضيب والبظر. فالفتاة ترفض أيضاً، أن تكون ناقصة ومشوَّهة، ولذا ينشأ عندها الهوام نفسه من أن هذا العضو الصغير، لا بد أن ينمو معها، فتتساوى مع الذكر. وهو إنكار يعبِّر في حد ذاته عن رفض لنقصها؛ وهذا ما يجعلنا نؤكد أن ما يعنيه فرويد من هذا الهوام المشترك هو الإقرار بأن المرحلة الفالوسية هي واحدة، ومشتركة ما بين الذكر والأنثى. وإن أعطت الفتاة أهمية لهذا العضو فإن ذلك يعود لسببين:

(*) هذا ما يحدث إذا ما جنح التكوين نجد الجنسية المثالية. يصبح اللواطي في هذه الحالة يشعر بالاشمئزاز من أعضاء الجنس الأنثوي. يصل إلى حد الكراهية والعنف والإلغاء. لأن خياره الجنسي يصبح على شاكلته، مما يضمن له صورة نرجسية متكاملة.

الأول، الاستمتاعات التي تحصل عليها من ملامسته ومداعبته، كون وجوده بشكل أكبر عند الذكر يولد في نفسها الغيرة، نظراً إلى استنتاجها من أن كمية الاستمتاع مرتبطة بالحجم، فإن كان أكبر يكون الاستمتاع كذلك.

والسبب الثاني، هي نظرة الآخر، أي التكوين الاجتماعي الذي ركَّز على هذا العضو، وربط به الكثير من الامتيازات التي يتمتع بها الذكر. فوجوده هو اعتراف بالتفوق، وموضع افتخار واعتزاز، سيما أن اسم الأب وضمانة استمراره في النسب مرتبط أصلاً بمن يملك القضيب منذ الولادة.

ولذا كما يقول فرويد(ص 21): " يمكن الملاحظة بسهولة أن الفتاة تشارك أخاها، تماماً، ويتكون عندها أهمية كبيرة لهذا العضو من جسد الرجل، ولكن هذا الاهتمام سريعاً ما تتحكم به الشهوة».

والملاحظ أن العمل الثاني ما بين الفتاة والفتى، هو أن هذا الأخير يجهل وجود الفرج، كما هو الحال عند الفتاة عندما تركز اهتمامها على البظر، فالفرج لا يوظف شبقياً إلا بعد المضاجعة الجنسية.

ولكن هذا لا يمنع من وجود دوافع غريزية يتوقف عندها الطفل، سواء من وظيفة القضيب، أو من وجود لاواعي (لاشعوري) للفرج. وإحدى الظواهر التي نصادفها، هي انصراف الفتى إلى الثقب بالتكسير، وإدخال آلات أو إصبعه في الفتحات التي يصادفها.

النظرية الثانية: تتكوَّن من هذا الفهم الأخير الناتج عن جهله لوجود الفرج والرحم، من أين يأتي الطفل؟ فالإجابة تأتيه عن طريق الاستنتاج، فتتكون نظرية بأن الطفل يخرج من الفتحة الشرجية كما هو الحال بالنسبة للغائط. من هنا أتت المعادلة على صعيد الهوام: غائط= قضيب=طفل.

النظرية الثالثة: تدور حول السؤال الآتي: كيف يتم الجماع بين الأب والأم؟ الجواب يأتيه من مصادر عديدة، سواء استنتاجية أو ملاحظات واقعية، وتتكون عنده الفكرة أن الجماع هو عملية سادية يتحكم بها العنف. فعملية الحب هي عملية عنفية، ومما يؤكد له ذلك هي بعض الملاحظات، أو المشاهد، سيما إذا كانت الأم باردة في طبعها، تتذمر من العلاقات الجنسية، أو صدف أن شاهد بقع دم ناتجة عن العادة الشهرية مما يؤكد له صحة نظريته.

المهم من هذا الاستعراض الوصول إلى النتيجة الثالثة: الفرق ما بين المعرفة والحقيقة الداخلية. فالمعرفة لواقع الحال، سواء التشريحي المميز لكل جنس أو الفعلي حول العلاقات الجنسية؛ هذه المعرفة لا تغيِّر شيئاً من الحقيقة الداخلية التي حصل أن تكونت في الطفولة الأولى سواء عند الفتاة أو الفتى: فلكل منهما نظريته الجنسية المبنية على الهوامات، والتي يكمن مصدرها في الرغبة اللاواعية (اللاشعورية) المكبوتة.

هذه العلاقة الجنسية هي التي تتحكم في تكوين بنيته النفسية، وفي مسلكه الجنسي فيما بعد. فلكل ذات نظريتها الجنسية التي تتميز بها، وهذا هو الموضوع الذي يكشف عنه التحليل النفسي.

لنستعرض الآن كيف تتكون العقدة الجنسية عند الفتاة قبل أن نخوض في غمار المرحلة ما قبل الأوديبية. فهذه الصعوبة، يعترف فرويد، أنه قلما توصل التحليل إلى خوضها نظراً إلى الكبت العميق الذي دفنها في أغوار الذات. لذا يقول: إن كل ما توصل إليه ما هو إلا مقتطفات ندر أن تشمل كل التطور الأنثوي عند الفتاة.

ففي مقاله: زوال العقدة الأوديبية، يوضح فرويد البرهان باليد[1]: كيف تتحطم العقدة الأوديبية عند الفتى أمام صخرة الخصاء. فاكتشافه للخصاء الذي يحدده، يحدد له الخيار: إما الأم، أو الاحتفاظ بقضيبه. وأمام هذا الخيار، يتجه بدافع الحفاظ على نرجسيته وسلامة قضيبه، بالعدول عن الأم كغرض جنسي. وهكذا تنتهي مرحلة الازدهار الجنسي التي عرفها في السنين الأولى، كي ينصرف، عن طريق التحولات السامية، إلى تجريد دوافعه من أغراضها الجنسية المحرمة، ويوظفها في النشاط الاجتماعي. هذا ما يسميه لاكان بالخصاء الرمزي الذي يضع حداً للخصاء الخيالي. فالخصاء الرمزي هو تجريد ونبذ الصفة الجنسية المحرمة، والتحول بها، فيما بعد، في سن الرشد، نحو أغراض جنسية مغايرة. أي اختيار امرأة بعد العدول عن أمه.

وهكذا، كما يقول فرويد: تصبح الأنا الأعلى الوريث الشرعي لعقدة أوديب، أي ما كان خطراً خارجياً ينبهه، وينهاه عن المنكر، يصبح بحكم هذا التحول داخلياً يفعل

(1) S. Freud, La vie sexuelle, p.121, PUF.

فعله، دون أي تدخل خارجي. وهو وريث لسلطة الأب من ناحية، وللعرف الاجتماعي من ناحية ثانية؛ على اعتبار أن الأول ممثل للثاني في المرحلة البدائية.

فإذا ما قلنا، إن اكتشاف الفتى للفارق الجنسي، كما ذكرنا في البداية، هو الذي يصور له عقدة الخصاء، ويصبح ما شاهده، أو لمحه، خطراً يتهدده، وعلى أساسه يبني استنتاجه، وبالنهاية يجعله يخرج من عقدة أوديب، فما هو الحال بالنسبة للفتاة؟ لاسيما أنها تكتشف بأنها مخصية، وليس من خطر يتهددها، لأن ما يمكن أن يهدد الفتى هو تحصيل حاصل بالنسبة لها.

فهي تعرف وتدرك أنها محرومة من هذا القضيب، وأن هذا نصيبها: هكذا ولدت، وأن قسماً كبيراً من النساء وبالأخص والدتها، يشاركنها هذا الحرمان. فما هي النتائج المترتبة من خلال إدراكها لهذه الحقيقة الجسدية؟ هل تسلك طريق الفتى، أم أن مصيرها النفسي المترتب يختلف باختلاف تكوينها، أي النهج الذي تنتهجه أنوثتها؟

يجيب فرويد: إذا كانت عقدة الخصاء هي المخرج الوحيد الذي يمكِّن الطفل الذكر من الخروج من العقدة الأوديبية، فبالنسبة للفتاة يمثل الخصاء المدخل الذي يدخلها في هذه العقدة. يتساءل فرويد ويجيب في آن واحد: رغم الإبهام والغموض اللذين يحيطان بتكوين الأنوثة فإن الجنس الأنثوي يعرف، كما هو الحال عند الفتى، عقدة أوديبية، وأنا أعلى، وفترة ركود.

كذلك الفتاة فهي بالتأكيد تمر بمرحلة قضيبية وعقدة خصاء، حتى ولو اختلفت عما يصادف الطفل الذكر.

في البداية: تتصرف الفتاة كالفتى، بأنها تملك القضيب، وبديله هو البظر، الذي تأمل عندما تكتشف الفرق بالحجم، بأنه سينمو ويكبر مع نموها. ولكن سريعاً ما تتبدد هذه الفكرة أمام واقع الحال، ويصبح ما هو مفخرة، موضع خجل وحياء، وخيبة أمل، وشعوراً بالحرمان. فهي تتصور بأنه كان لها قضيب وحرمت منه بفعل الخصاء.

"انطلاقاً من هذا الموضوع نجد مدخلاً للبحث في موضوع المازوشية الملازم لكل امرأة، على اعتبار أن هذا الحرمان مقترن بارتكاب ذنب يجب أن تعاقب عليه، فالمازوشية قد تكون بفعل هوامي عن طريق إيلام النفس لدرء الخطر الأساسي المهدد بالخصاء».

الفتاة تفترض، اقتراناً بهذا الاعتقاد، أن كل النساء يملكن قضيباً بحجم الرجل. ولا يتأكد لها وهم هذه الفكرة إلا بعد أن يحصل التشابه بينها وبين أمها. وهذا ما

الدفينة، فتظهر أحلام لأوصال الجسد المجزأة. أو ما يحصل عند الذهاني من شعور بانفصال أعضاء جسده عنه.

ويقول لاكان: «مرحلة المرآة هي مأساة من حيث إن الاندفاع الداخلي يجعل من انتقاله من العجز إلى التخطي حيث كانت الذات المأخوذة بوهم التماهي الفضائي، حدثاً يمكّن الهوامات التي تتتالى من صورة جسدية متناثرة الانتقال إلى شكل يمكن تسميته بعملية تمجيدية لتكامله».

هذه الخبرة التي يتعرض لها الطفل تمر بثلاث مراحل: تتزامن ما بين السنة والستة أشهر والسنتين.

المرحلة الأولى: تتميز باختلاط بين وجوده والآخر، فهو لا يميز نفسه، ولا يعرف حدودها. يعيش في حالة اندماجية مع الأم التي تؤمن كل حاجاته البدنية؛ ونظرته إلى الأطفال هي تصور ذهني لوجوده، يرى نفسه من خلالهم. فإذا بكى طفل بكى معه، وإذا زجر أو قوصص يشعر بأن ذلك يطاله، فينتابه خوف مفترض أن يكون من نصيب الآخر. وإذا حصل أن صادف صورته في المرآة، يتعامل معها على أساس أنها آخر، يكرر بشكل آلي الحركات التي يشاهدها، أو يقلد الآخر دون أن يميز بين نفسه وبينها. فهذه المرحلة الأولى يسودها تسلط المخيال على الواقع، ترهنه بصورة الآخر بحكم جبرية هذا المخيال. يتأكد ذلك في بعض الحالات المرضية للانفصام، إذ إن المريض يفقد تميزه لذاته، ويصبح مرتهناً خيالياً لصورة المتواجد أمامه، يقلده، يكرر حركاته بشكل عفوي دون أن يكون له إرادة في ذلك. أي يصبح مسلوباً بهذه الصورة التي تملي عليه تحركاته.

المرحلة الثانية: وهي أساسية، لأنها تمكّن الطفل من التمييز بينه وبين الآخر، ويكتشف أن الصورة التي يراها في المرآة ليست إلا صورته، فيتماهى بها لكي تصبح النواة الأولية للأنا المخاطب. ولكي يتحقق له ذلك لا بد من مرجع يعرفه عليها. فالطفل المأخوذ بهذه الصورة إلى حد الدهشة التي يرى بها آخر يلتفت إلى من وراء الأم أو أي راشد آخر، متسائلاً عن ماهيتها، فيأتيه الجواب بأن هذا أنت . فهذا الاعتراف مهم جداً، لأنه ينقله من الداخل المفكك إلى التقاط صورته في الخارج، مما يمكنه من تحديد موقعه الفضائي لكي يصبح أنا مخاطباً يسقطه على الآخرين، ويتعامل معه من باب طرف ثالث؛ لذا نرى الطفل في أول تعامله مع هذا التماهي

الاستبدال والتعويض؛ ولكن يبقى الفارق بين الأول والثاني بحكم المفقود غير القابل للتصور أو التجسيد، لأنه موضوع تعجز عن استرجاعه كل البدائل المستجدة.

وهكذا ينفصل عن رحم الأم، حيث كان يؤمن له الإكفاء من غذاء، ودفء، وطمأنينة، معزولاً عن كل الإثارات الخارجية[1] . فمنذ ولادته لا يفتأ الإنسان ينفصل عن مواضيع كانت محور حاجته وطلباته، ففي البداية عن المشيمة (Placenta) مورد غذائه، لكي يستبدله بثدي الأم، وفي مرحلة الفطام ينفصل عن هذا الثدي الذي يصبح كسابقه بحكم الموضوع المفقود. وكذلك في المرحلة الشرجية يواجه طلب الآخر بعد أن كان هو موضوع طلبه، بالتحكم في برازه. ويصبح هذا البراز موظفاً بأهمية ليست بعيدة عن المواضيع السابقة المفقودة، كل هذه المراحل تؤدي به إلى المرحلة الفالوسية، حسب تعريف فرويد، لكي يواجه مشكلة من نوع آخر ترتكز في قاعدتها على المراحل السابقة والتي تؤدي به في النهاية إلى خيار الاحتفاظ بالقضيب أو التخلي عنه عبر عقدة الخصاء. يقول لاكان في محاضراته اللاوعي «اللاشعور» إن المرحلة الأولى تتميز بتساؤل الطفل عن رغبة الأم. فما بعد إكفاء حاجته يصبو إلى نقصان الأم، ويحتل هذا المكان لكي يستقطب كل اهتمامها وإلغاء كل حاجة لها خارج وجوده. وهذا الآخر يعطيه لاكان مفهوم الكبير نظراً إلى أنه الوحيد الذي يرتهن به، ويعطي معنى لوجوده عبر تلبية حاجته، والاستجابة لطلباته.

ما هي رغبة الأم؟ يتساءل لاكان. رغبتها تنطلق من مفهوم حضاري، يضع الفالوس في أولوية الرغبة، لنقصان حاصل. في المرحلة الأولى يحاول الطفل أن يتماهى بموضوع هذا النقصان غير مكتف بالعناية، وإكفاء حاجته التي يحصل عليها. فهو يستحوذ على كل اهتمامها عبر التماهي بالفالوس، موضوع رغبة الام، وسريعاً ما يدرك أن وراء اهتمام الأم به يلوح الموضوع الناقص الذي يتعدى الطفل نفسه. ومرجعية هذا الموضوع لا تعود إلى الطفل إنما إلى الأب المفترض.

إنه يملك موضوع نقص الأم. وإذا ما تكاملت هذه الحلقة ما بين الأم والطفل، يغلق باب أمام تدخل الأب، وتصبح هذه العلاقة مصدر الانحرافات الجنسية، والذهان. أي أن الطفل يبقى سليب هذا التماهي بالفالوس، دون التمكن من الحصول عليه. يقيد من حريته ويصبح سجين التماهيات الانحرافية، من فتشية إلى غيرها، من

(1) وقد شبه فرويد هذه الحالة بالنرجسية التي تتتاب النائم. يغيب فترة زمنية شبيهة بالحالة التي كان بها في الرحم. أي ينقطع عن الإثارات الخارجية في شكل جنيني.

المهم أنه بعد وفاة الأب، يبقى جودر مع والدته، وينصرف الأخوان إلى تبذير تركة الأب. وعندما يقعان في الفاقة يلجآن إلى جودر، ويحتالا عليه لكي يبذر أيضاً ثروته، بالتواطؤ مع الأم.

يعمد جودر، لكي يؤمن رزقه وقوت والدته، إلى صيد السمك في بحيرة قريبة من النهر، وشاءت الصدف أن ينقطع عنه الرزق عدة أيام، يستسلم خلالها ليأس مضن، ويغرق في دين لا طاقة له به. وفي أحد الأيام، بينما هو يائس على شاطىء البحيرة، يأتيه مغربي ممتطياً بغلة، ويسأله ما إذا كان هو جودر بن عمر المغربي. وبعد التأكد من هويته، يطلب منه أن يقيده بحزام من حرير، ويرميه في البحيرة ثم ينتظر، فإن أظهر قدميه، يكون قد غرق ويتركه لحاله وإن أظهر يديه، يرمي الشبكة وينقذه. وفي الحالة الأولى يأخذ البغلة ويذهب بها إلى يهودي فيعطيه مائة دينار. وهكذا تتكرر المأساة مع الإثنين، إلى أن يأتيه الثالث وهو عبد الصمد المغربي الذي يشرح له سر هذه المغامرة.

فقال: «إعلم يا جودر أن اللذين غرقا أولاً أخواي، وأما اليهودي الذي يعطيك أجرك فهو الأخ الرابع، وكان والدنا قد علمنا حل الرموز وفتح الكنوز، والسحر، وصرنا نعالج حتى خدمتنا مردة الجن والعفاريت. ولما مات والدنا خلف لنا الكثير من الذخائر والأموال والأرصاد، حتى وصلنا إلى الكتب، فقسمناها فوقع بيننا اختلاف في كتاب اسمه أساطير الأولين، ليس له مثيل، ولا يقدر بثمن، ولا يعادل بجواهر، لأنه مذكور فيه سائر الكنوز وحل الرموز. وكان أبونا عبد الودود يعمل به، ونحن نحفظ منه شيئاً قليلاً، وهدف كل منا أن يملك هذا الكتاب النفيس حتى يتطلع على ما فيه. فلما وقع الخلاف بيننا، حضر مجلسنا شيخ أبينا الذي كان قد رباه، وعلمه السحر، والكهانة، وكان اسمه الكهين الأبطن، فقال لنا: هاتوا الكتاب، ثم أردف «من أراد هذا الكتاب فما عليه إلا أن يذهب إلى معالجة كنز الشمردل، ويأتيني بدائرة الفلك، والمكحلة والسيف والخاتم، فمن يملك دائرة الفلك يتحكم برؤية البلاد من المشرق إلى المغرب وهو جالس، بمجرد أن يوجه هذه الدائرة إلى المنطقة التي يريدها. ومن يملك المكحلة، فان اكتحل بها رأى كنوز الأرض. ومن يملك السيف فلا تقدر عليه جيوش الأرض مجتمعة. وأما من يملك الخاتم: فهو يتحكم بمارد اسمه الرعد القاصف، يلبي كل أمنياته، ويحكمه بالأرض طولاً وعرضاً».

وقص عليهم الشيخ أن أمنية والدهم فك اللغز، والحصول على كنز الشمردل، ولكن ما حال دون تحقيق غرضه، هو اعتراض أولاد الملك الاحمر الذين اختبأوا في

سير التحليل وإنهائه، فهي تعني ما تعني «إصرارها على احتواء القضيب رغماً عن الجميع، وضد الجميع» أمنية تفتح المجال أمام رغبة من دون حدود لكي تصبح عائقاً واستحالة للرغبة نفسها. لا تحدها إلا العوارض النفسية.

أمنية مشابهة تلزم الذكر في المرحلة الأولى للأوديب، التماهي بالفالوس، أي أن يحقق وجوده في ذلك الفالوس. فإما أن ينطلق بالتفتيش عن«السلاح المطلق» من دون هوادة، أو أن ينتقل إلى المرحلة الثانية من الأوديب، حيث يدرك ان ما يفتش عنه هو في ملكية الأب نظراً إلى أن الأم لا تجد اكتفاءها إلا في قربه، وهذا ما يمهد للمرحلة الثالثة من الأوديب، حيث يتبين له أن هذا الأب لا يملك في ذاته مصدر رغبته، إنما لكونه يحتوي نقصانه (أي أن الأب يُحرِّم ويستمد سلطته كونه خضع للخصاء الرمزي)، أصبح أباً. مرحلة أساسية لتسوية علاقته مع الآخرين. ومن دونه يصبح عرضة لكل المنزلقات الانحرافية المثلية(*).

وتحليل العلاقة مع الأم لا يقتضي الاستقصاء عن تاريخ الحب المكبوت، بل على العكس فالحنان المعبر نحو الأم، هو دليل صحة، وبرهان على تسوية العلاقات الأوديبية، شرط أن يكون قد تجرد هذا الشعور من محتواه الجنسي. وهذا ما يشير إليه فرويد بتحديده لمفهوم التسامي.

فالعلاقة مع الأم إذا كانت لا تزال مرتبطة بالعقدة الأوديبية، هي ليست أكثر من هوام. فنحن نعرف أن الذين يمارسون التحليل، يصرحون من دون التباس، أن الأم لم تعد تعني لهم شيئاً، ولكننا نعرف بالتجربة أنه إذا ما اشتهى أحدهم امرأة في أحد أحلامه، وسئل عما إذا كانت تذكره بامرأة يعرفها: نراه يجيب بالحال، إذا كنت تتصور بأنها تشير إلى أمي فإنني أؤكد بأن التشابه معاكس تماماً. وهذا النفي هو التأكيد بحد ذاته على أنها الأم (يؤكد فرويد ذلك في مقاله عن النفي كعملية مجاورة)(**)؛ ولكن المقصود أن ما يحققه الهوام ليس إلا على صعيد المخيال، المشهد الثاني، كما يسميه فرويد. والهوام هو ما يعبر عن الرغبة، كون الراغب محذوفاً (اي متخفياً)، أي يبقى بحكم المكبوت من خلال علاقته بالآخر. وهكذا لا يقتصر تحليل العلاقة بالأم، على استعادة ذكريات، أو تذكر أحداث، قد تكون أصلاً غير موجودة، إنما تتعدى ذلك لاستخراج الهوام المؤسس لهذه العلاقة، أي على

(*) الأب الذي يرتكب المحرمات سيما الاعتداء على أطفاله، يكون قد استقال من موقعه الأبوي وأصبح الطفل عرضة للانحرافات من دون رقيب ذاتي.

(**) انظر مقالة النفي لفرويد (La négation).

ويضحك إذا ضحك، ويحاول أن يسيطر عليها، يغيِّب الصورة ويحضرها، بغية امتلاكها والتحكم بها. وهنا لا بد من تدخل الآخر (الأم) للتعريف عنها: فهي صورة مرئية تعرِّف عنه، فينسلب ويتماهى بها. ولا يتم ذلك إلا بواسطة الآخر، وعبر الآخر: تصبح نظراته هي المعرِّف المتبادل عن وجوده فعندما يعرف أن الآخر قد عرفه، معنى ذلك أنه تم الاعتراف بهذه الصورة التي تشكل ذاته.

فالطفل لا يدرك صورته إلا عن طريق إدراك الآخر لها بأنها تجسده عبر نطاقه. فهذه الصورة التي تشملها النظرة في حالة متكاملة لتكوينه هي النقيض بعد السيطرة على حركاته، لأنه لم يبلغ النضوج العصبي اللازم. وهذا ما فسرناه سابقاً.

تعود أهمية هذه المرحلة إلى كونها تولد عند الطفل صورة برانية مثالية مرئية، لذات ناقصة لم تكتمل بعد في الداخل. فهي إذاً حدث مسبق، يسبق نضوجه الفيزيولوجي، ويجعل من تطلعاته المستقبلية أملاً في تحقيقها. وهذا الفارق ما بين الصورة المرئية البرانية، والصورة الجوانية المتفتتة والغائصة في الفوضى، يبقى مستمراً، ويوظفه في كل المثالات التي يتمنى أن ترقى إليها الذات فيما بعد.

فالطفل إذاً، لا يرقى إلى بلوغ صورته إلا عن طريق الآخر الكبير(*) الذي يعترف بتماهيه بها، وأنها تمثله.

وهكذا يتلقى من نظرة الآخر الكبير له بأن الصورة التي يتفحص وجودها، هي أصلاً صورته. ونستطيع أن نستنتج من هذه الظاهرة، أن الصورة الذاتية وبداية العلاقة الذاتية، هي علاقة مخيالية لا بد أن تمر عبر الآخر. ويشدد لاكان على أن بنية الأنا هي في الأساس بنية مخيالية يقول: «بأن الأنا التي تكلمنا عليها، من المستحيل فصلها عن المرتهنات المخيالية التي تكونها من القدم حتى الرأس، سواء في نشوئها، أو في وضعيتها، أو حتى في وظيفتها الحاضرة لأنها تنطلق من آخر لأجل آخر».

وما علينا إلا أن نراقب الطفل في هذه المرحلة، فإننا نجد أن المواضيع التي

(*) اكتشاف مرحلة المرآة يظهر عاملين مهمين : الآخر الكبير الذي يعترف له بملكيتها ويصبح مرتهناً به طيلة الحياة، والآخر الصغير، قرينه: عندما يتهيأ له أن الصورة هي لآخر، تنتهي العملية بازاحة هذا الآخر وتؤسس الصراع الدائم ما بين الانا والآخر المؤسس لكل أشكال العداء والعنف إذا ما بقيت ثنائية. لأنها تختزل الوجود بصراع مميت إما الأنا وإما الآخر.

تكوّن أناه، مستمدة من الآخر، سواء كان شبيهه من الأطفال الذين يقاسمهم ألعابهم، أو من الراشدين حيث هو مأخوذ بهم نظراً لتفوقهم واكتمالهم الجسدي. فمجموعة هذه التماهيات المخيالية تكوّن الأنا في منطلقها نحو التعريف، وهذه العلاقة تصبح مضللة لأنه كلما توغل في التعبير الكلامي، كلما أدرك أن الكلام يعني أكثر مما يطلب . فطلباته الملحة نحو الأم ليست إلا دليلاً على ذلك، لأنها كلما لبّت طلباً كلما زاد إلحاحه في طلب آخر. فهي في حيرة من أمره، وهو في حيرة مما يطلب فعلاً. لأن طلبه النهائي هو طلب حب، تعريفاً لنقصان عن وجود. فالأنا عندما تكون مأخوذة في مواضيعها المتخيلة تكون في حالة جهل عما تريده الذات اللاواعية (اللاشعورية)، هذا ما يفرضه التداول اللغوي، لأن التعبير الزائد عما يحدده الطلب، يشير إلى المكان الذي ينطلق منه، وهو طلب اعتراف بوجود، كما هو تعريف عن هذا الوجود.

ونتيجة دخول الطفل عالم اللغة، يجعل الذات في حالة ارتهان بالأنا، كونها الوسيط بينه وبين الآخر. فهو لا يستطيع أن يعبر عن شيء ما إلا عن طريق اللغة، وما ليس له تصور لغوي يبقى في حالة اللاوجود.

وأراد لاكان أن يترجم هذه العلاقة في البنية الذاتية في صورة («L» Schéma «L») محاولاً إظهار أن العلاقة ما بين الذات والأنا، ليست علاقة مباشرة، إنما عبر التسلسل اللغوي المتمثل في مواضيع الأنا(*):

(الشبيه) أ--- ذ المحور الخيالي ـــ اللاشعور ـــ الآخر الكبير ـــ أ (الأنا ـ

سنحاول شرح هذه الرسمة تطبيقاً لما ورد: الآخر ---------- ذ (الذات اللاواعية)

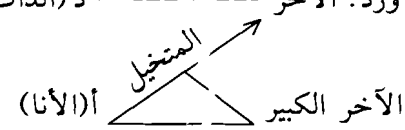

ذ: تمثل الذات في غيابها وبالشيء الذي لا تستطيع التعبير عنه إلا عبر خيوط الكلام المتشابكة، حيث تنطق بمعرفة كانت تجهلها.

انطلاقاً من هذا الوجود الغامض، لا تجد الذات سبيلاً للتعريف عنها إلا عن طريق الأنا (أ). وهو كما تبين لنا سابقاً، أن النواة لهذا التكون حصلت في مرحلة المرآة. حيث انتقلت الذات من الفوضى الممزقة، إلى التماهي المرئي في صورة

(*) أدين في هذا التوضيح إلى جويل دور في كتاب" كيف نفهم لاكان".

المرآة، ولكن هذه الصورة لا تتكون إلا عبر الآخر الشبيه ـ لأن الطفل في البداية لا يميز بينها وبين صورة طفل آخر شبيه، واعتماده لها كصورة نهائية له لا يأتي إلا في مرحلة لاحقة. ووجود هذا الآخر لا بد منه لكي يرتقي إلى التماهي في صورته.

ويصبح العكس صحيحاً. فاعتماده لصورته يمكنه كذلك من الاعتراف بالآخر شبيهه، ويتعامل معه على أنه جزء من الصورة الأولية التي أسرته، وهو ما نمثله بـ(أ)(*). وتبين لنا أن علاقة الذات بالأنا ليست مباشرة، بل يتوسطها الآخر الشبيه الذي تتركز عليه كل تماهيات الأنا المخيالية في علاقتها مع الآخرين. وهكذا يصبح المحور أ ـ أ هو المحور المتخيل، الذي يرهن الأنا في علاقتها بالآخرين. فالأنا في علاقتها بالذات لا بد أن تمر بـ أ' الآخر القرين، والذات لا بد لها في علاقتها بالأنا إلا أن تمر بنفس المحطة. وهكذا تتكون علاقة خطابية للتماهي: ما بين الآخر وذاته. وما بين ذاته والآخر. ويستعين لاكان هنا بالظاهراتية عند هيغل (الشيء من ذاته، والشيء لذاته).

أما الآخر الكبير: فهو يمثل المكان الرمزي: حيث يتلقى الطلبات، كونه المكان الأوحد الذي تحل به رموز الكلام، ويدرك المتكلم خلفية ما يريد. وصلة هذا الآخر الكبير بالذات هي صلة عبر حائط الكلام المتمثل في (آخر كبير ـــ ذات)؛ ولكن هذه العلاقة تصطدم بالمحور المخيالي الذي يربط الأنا بشبيهها المخاطب.

فكل مخاطبة من الذات لا بد أن تمر عبر المحور المتخيل أ ـ أ. ولكن ما هو هدف المخاطبة؟ ليس بالضرورة الآخر الصغير، لأن ذاتاً أخرى حقيقية تكمن وراءه، لأن الكلام إذا كان معبراً وصادقاً، لا بد أن يأخذ تفسيره الصحيح، ويبلغ التعبير المرسل معناه الحقيقي، هو افتراض موجود في كل مخاطبة. فنحن عندما نتكلم مع بعض: يتهيأ لنا أن الحديث يدور ما بين الأنا وأنا آخر، وإنما المقصود بلوغ مكان آخر متمثل بذات أخرى أصلية وصادقة. نرمي من وراء حديثنا مع الأنا أن الآخر يتلقى البلاغ ونستمد منها بالمقابل صدق ما نقول. وهذا ما يشير إليه لاكان في الكلام المليء الذي يعبر أصدق التعبير عن واقع نفسي للذات.

والعلاقة ما بين أنا وأنا أخرى مخيالية، فسواء الأولى أو الثانية كموضوع، لا

(*) استلهم لاكان هذه الفكرة من الشاعر ريمبو عندما قال: الأنا هو آخر: «le moi est un autre».

فرويد بأن يعيد دورا إلى طريق الصواب لكي يحتفظ بمدام «K» فهي ليست بعيدة أيضاً عن هذه الصفقة التي اتهمته بها، كونه رماها في حضن «Mr. K» لكي يحتفظ بمدام «Mme. K» وهذا ما لم يدركه فرويد في حينه، والذي كان يتحكم في سير العلاج لفترة معينة قبل أن ينتهي بمثل ما انتهت إليه العلاقة مع «Mr. K»، أي بالقطيعة.

فرويد اعترف بهذا النقص، ولكن إدراكه أتى متأخراً وناقصاً. فهو يقول[1]: «بأن التحويل كان يحمل في طياته توقف التحليل قبل أوانه، فأنا لم أستطع أن أتحكم في حينه بالتحويل، فتكاثر المواد التي وضعتها دورا تحت تصرفي شغلتني عن توجيه اهتمامي نحو أولى بوادر التحويل التي كانت تحضرها خفية من نفس المواد، كذلك الجزء الذي بقي مبهماً بالنسبة لي...».

العلائم الأولى للانقطاع عن التحليل ظهرت، كما يقول فرويد، في رواية الحلم الأول، أي: أبدت رغبتها بالامتناع عن المجيء عندما تكلمت عن ترك بيت «Mr.K». ويقول فرويد: بأنه كان يجب عليه في حينه أن يستنفر ويأخذ الحيطة لتدارك ذلك: "أنت الآن في حالة تحويل مشاعرك نحو «Mr. K» إلي. هل سبق ولاحظت في تصرفاتي ما يشير إلى نوايا سيئة على غرار «Mr. K»، سواء بطريقة مباشرة أو بطريقة مجردة أو إلخ. من الاحتمالات التي قد تحصل في التحليل من جراء سماع كلام، أو موقف، أو نقل كلام».

المهم في الموضوع أن فرويد قد استخلص ـ وهذا ما سنعود إليه ـ بأن دورا وجهت إليه الصفعة نفسها التي وجهتها إلى «Mr. K». فهي قد وضعته في التحويل في هذا الموقع، وتصرفت على هذا الأساس، أي إعادة لما حدث مع الأول، ولكن بإخراج مختلف، فهي قد هجرت وصفعت «Mr. K» لأنه أعلن حبه لها، ولأنه اعتبر أن زوجته لا تعني شيئاً بالنسبة له. أما فرويد وإن انتبه إلى نوعية التحويل إلا أنه لم يدرك المحرك لهذا التحويل بهذا الاتجاه؛ وهذا اعتراف منه بالهامش الذي زاده سنة 1923. سنأتي على شرحه لاحقاً.

فدورا بدلاً من أن تتذكر، وهذا هو المطلوب في التحويل لاستعادة الحلقة المفقودة في النص حتى يكتمل المعنى، كانت تتحول إلى الفعل. فانقطاعها عن

(1) E. Jones: Biographie de Freud.

التحليل كان نتيجة هذا الفعل الذي يسمى Acting out(*) ـ أي ما هو مكبوت ومرفوض من قبل الطرفين يتحول إلى فعل: كما لو كان يأتي من الواقع.

والسؤال هنا: هل للمحللين دور في مثل هذا الانحراف؟ وهل كان بإمكانه تجنب ذلك؟ وهل بالإمكان منع حصول التحويل؟ فرويد يجيب عن جزء من الأسئلة في حينه، ولكنه لا يجيب عن القسم الباقي إلا بعد فترة زمنية من الممارسة والخبرات العيادية.

يقول فرويد بأن التحويل لا يمكن تجاهله، ولا يمكن منعه، فالتحليل ليس إلا وسيلة مصطنعة للكشف عنه وتوضيحه. وإن كان التحويل يشكل عائقاً وصعوبة قصوى في التحليل من ناحية تعزيز المقاومة، إلا أنه يشكل السلاح الفعال في يد المحلل الذي يمكنه في الوقت نفسه من حل الأزمة، إذا ما أحسن استعماله واستكشف في حينه المطبات التي يمكن أن يتعثر بها.

ويشير فرويد إلى أن انقطاع دورا عن متابعة التحليل كان نتيجة التحويل، لاسيما عندما يصل المريض إلى مرحلة تصبح فيها المشاعر السابقة، والنزوات المكبوتة، مركزة على المحلل، تطاله مباشرة من واقع العلاقة مما يجعل التعبير عنها صعباً، ومصحوباً بانفعالات قوية شبيهة جداً بالحالة الوجدانية المنسية، أي تصبح الآن معاشة في حد ذاتها ضمن الإطار التحليلي. ولا يستبعد في مثل هذه الحالات إذا كان المحلل غير متتبع لما يمكن أن يحصل: أن يوقف المريض العلاج، وفي أحسن الحالات أن يتغيب مؤجلاً ذلك إلى فترة لاحقة(**).

وهذا ما حصل بالنسبة لدورا: حيث إن فرويد فوجيء بإعلانها عن توقف العلاج قبل ساعتين: لأنه تغافل عن الإنذار الذي حمله الحلم الأول.

الحلم الثاني أتى بعد عدة أسابيع من الحلم الأول، وفيه إشارات عديدة إلى نوعية التحويل، وإشارة إلى توقف التحويل.

يقول الحلم: كنت أتنزه في مدينة لا أعرفها، أرى شوارع وساحات غريبة عني

(*) Acting out يعتبر نوعاً من المقاومة، يفضل المريض العقل على الاستذكار . لأن الاول يغيّبه ويغيّب مسؤوليته، أما الثاني فيطال الهوام المحرك الذي يتلطى به في اللاوعي.

(**) عادة عندما يقترب التحليل من الهوام المحرك والذي يطال المحلل بشخصه، تصبح الجلسات مضنية ومحرجة إلى درجة أنه قد يطلب توقيف العلاج لأن وضعه قد تحسن وزالت الأعراض. وهذا ما يسمى الشفاء بالمقاومة.

لها ارتباط بالواقع الحاضر؟ أما الآن نظراً إلى أنها تطال الطبيب بوجوده، بنوعية العلاقة معه، فتصبح إذاً فكرة غائية، يدخل الطبيب طرفاً بها. هل يصعب عندئذ على المريض البوح بها؟. هذا سؤال. أما السؤال الثاني: فكما يوضح فرويد بالمقال نفسه، بأن هذه الفكرة المتحولة إلى الطبيب، أتت لتخدم المقاومة من حيث إنها توقف توارد الأفكار، وتستقطب أهمية خاصة تفوق كل ما حولها.

فانتقال الفكرة إلى الطبيب بنظر فرويد، أتت إذاً لخدمة المقاومة. والدليل على ذلك بمجرد تذليل هذه المقاومة، أي مساعدة المريض على البوح بهذه الفكرة والتكلم عنها، حتى تتدفق المواد الجديدة التي كانت متوقفة حتى الآن.

الجواب عن السؤالين ليس بالسهل إذا ما أردنا أن نتبنى اتجاهاً معيناً. فكلا الاتجاهين يساهمان في خدمة المقاومة، سواء أكان التحويل هو المقاومة بحد ذاتها أو أنه وسيلة تنصب عليها المقاومة لكي تعزز موقفها.

وإذا استقرأنا مقالات فرويد التي أتت لاحقاً، نجد أن التحويل ما هو إلا إعادة لبعض المواقف الطفلية التي كان يستعملها المريض كي يحقق بعض مطالبه، أو أن شخص المحلل أخذ بالفعل مكانة نموذج من النماذج الشخصية التي كان يتقرب أو يحاول الطفل اجتذابها، وكانت تربطه بها علاقة مزدوجة: الحب والمودة من ناحية، والكراهية والعدائية من ناحية أخرى. والواقع في التحليل أن كلا الاحتمالين يسببان مقاومة معينة ـ فالتحبب والاجتذاب لا بد أن يحملا في طياتهما بوادر تؤدي إلى دوافع شبقية ـ يصعب التعبير عنها سيما إذا ما انتقلت إلى شخص الطبيب. وهذا ما يندد به فرويد، بأن لا ينخدع الطبيب في المظاهر الحبية، وأن يمتنع عن إعطائها أي مبرر خوفاً من أن تؤدي إلى حب شبقي يصعب السيطرة عليه، أو حتى إكفائه، وقد يتحول فيما بعد إلى علاقة هيامية من نوع الهذيان الشبقي. فمطلوب منه أن يخفف من غلواء هذا الحب مع الاحتفاظ بالقسط الكافي كي يبقى كلامه مسموعاً.

إلى جانب هذا المنحى الحبي يوجد منحى عدائي متاخم له، وهو ما يسميه بالتحويل السلبي ـ نظراً إلى أن الأول هو التحويل الإيجابي؛ والثاني هو التحويل السلبي الذي يصبح بحد ذاته مقاومة وعائقاً يحول في بعض الأحيان دون متابعة العلاج، وقد يطيح بكل المكاسب التي تحققت فيه؛ وتدهم المقاومة هذا الاتجاه لكي تتخلص من الالتزامات التي يمكن أن تحصل إذا ما تخطى هذا الحاجز. ولكن ما بين التحويل السلبي والتحويل الإيجابي هناك تأرجح من حيث إن كلا الاتجاهين، في

تطرفهما، يستخدمان من قبل المقاومة وهذا ما أسهب فرويد في شرحه في مقاله: ملاحظات «حول حب التحويل».

يقول فرويد بأن الطبيب يتعرض لأن يقع المريض في حبه، ويصبح طلب إشباع هذا الحب ملحاً، ومستمراً بشكل أنه يغطي كل المواد اللاواعية (اللاشعورية)، فتتضاءل أهميتها أمامه. وأمام هذه الظاهرة يقع الطبيب في حيرة من أمره، سيما إذا كان قد اكتشف داخل ذاته أنه يشارك ضمناً هذا الشعور. فالموضوع عندئذ، يقول فرويد، يصبح أكثر تعقيداً لأن المطلوب ليس أن تقنع طرفاً بل طرفين، لكي لا يصلا إلى الطريق المسدود. وأمام هذه الظاهرة، لا بد من اتخاذ مواقف وإعطائه التأويل التحليلي المناسب. فطرح الموضوع من الزاوية الأخلاقية والالتزام المسلكي لا يعطي حلاً، وإلا لكان التحليل وسيلة من وسائل الإرشادات الدينية والأخلاقية. فالحب التحويلي، يقول فرويد، رغم أنه صنيعة عملية التحليل، إلا أنه لا يختلف بشيء عن الحب الحقيقي، وبطبيعة الحال فإن مطلبه النهائي الالتحام الجسدي، أي الإشباع الشبقي. ولذا يشير فرويد إلى أن رغم هذا التشابه، فعلى الطبيب المعالج ألا ينغرّ إذ لولا التحليل لما حصل مثل هذا الشعور. فالحب هو نتيجة التحويل، وليس جاذبية شبابه أو سواد عينيه. والخطأ كبير إذا ما وظف هذا الشعور في مكاسبه الغرامية. فالمحافظة على حياده، وتحديد ما هو مطلوب منه يشكل حجر الزاوية الذي يجب أن ينطلق منه؛ فهذا شعور عابر يترجم انعكاساً لحالة طفلية لا بد للطبيب أن يتفهمها، ويحاول السيطرة عليها، والإمساك بيد المريض كي يجتاز هذه المرحلة.

فالافتتان والانجذاب وسيلة وليست غاية في حد ذاتها، إفتان الآخر ليس لتحقيق مطلب معين، والتجارب التحليلية تفيد بأنه منذ بداية التحليل والمريض لا يفتأ يحاول اجتذاب طبيبه بشتى الوسائل، سواء الجسدية أو الاستعراض الفكري. وهذا الاجتذاب ذو حدين يخدم التحليل من ناحية استعراض المواد اللاواعية (اللاشعورية) في جو من الإلفة والمحبة، ومن الناحية الثانية يصبح عامل مقاومة من ترابط الاجتذاب والإفتتان مع الدواعي الشبقية المكبوتة كون الهدف والوسيلة يختلطان فيما بينهما لكي يصبحا موضوعاً واحداً ؛ وهذا ما يحصل في التحويل العشقي. ويجب ألا يغيب عن فكر الطبيب بأن الهيام التحويلي ليس هناك ما يبرره في الواقع، فهو عادة ما يكون من جانب واحد، ولا يقيم حق التقييم للطرف الآخر، وحتى المشاعر لا تبنى على أساس واقعي.

تقبله لسلبيته، في حال استسلم لإرادة رجل آخر. فهو يشعر بمثل هذه الحالة بأنه مهدد بالخصاء وبأنه سيتخلى عن رجوليته؛ علماً أن فرويد يقر بالازدواجية الجنسية سواء عند الامرأة أو الرجل، على الصعيد النفسي. فكلاهما يحمل في طيات بنيته النفسية عنصراً أنثوياً وعنصراً ذكورياً، دون أن يخل ذلك في توازنه النفسي. فتقبل هذا العنصر المعاكس هو الدلالة على نجاح التحليل، والوصول إلى الوضع النفسي السوي، الذي يمكن كل فرد من العيش بتوازن واستقرار مع الجنسين. فقبول ارتباطه بالغير هو مقياس لتقبل الآخر بأنه يختلف عنه.

وهذه الصخرة لا يمكن الالتفاف حولها، وتخطي الحد الأخير الذي حدده فرويد، وفك عقدتها، إلا بواسطة الاجتهادات «اللاكانية» التي أتت متممة للخط الفرويدي ولكن بمفهوم، ومعطيات جديدة. وتختصر بالتمييز ما بين القضيب كعضو تشريحي وما بين الفالوس كمفهوم مخيالي.

فخاتمة التحليل بقيت معضلة بصورة خاصة عند المحللين، على اعتبار أن التحليل ليس علماً كبقية العلوم، ينتقل من شخص إلى آخر عبر المعرفة، بل هي معرفة مكونة للذات، لا يمكن إدراكها إلا عن طريق البصيرة الداخلية، التي تنقل الذات من حيز اللاوعي (اللاشعور) المكبوت، إلى حيز الوعي (الشعور). وهذه النقلة هي نوعية ومميزة لكل ذات. الأمر الذي وضع أمام المحللين صعوبة قصوى في تحديد هذا الإنجاز العملي الذي يمنح العامل في الحقل التحليلي صفة المحلل أم لا.

وكانت آخر حلقة في هذا المضمار عملية «المرور» (La passe) التي استنبطها لاكان، والتي كانت في رأيه السبيل الوحيد للتأكد من المتحلل بأنه قد أصبح فعلاً محللاً، وأدرك ماهية اللاوعي (اللاشعور).

والنتيجة لم تكن ناجحة، مما أدى في النهاية إلى فرط المدرسة اللاكانية، وتوزعها إلى عدة تجمعات مستقلة. وهذا ما يتطلب بحثاً جديداً.

التعيين أو التماهي

IDENTIFICATION

قبل الخوض في هذا الموضوع الشاق، علينا أن نحدد موقفنا من الترجمات لمعنى «Identification» التي وردت في مصطلحات «فرويد» الألمانية، وأصبحت ركناً من أركان الإنبناء النفسي. وقد حدت الترجمة الأصلية بكثير من المعرِّبين إلى اعتناق مفردات متعددة اختلفت فيما بينها في أداء المعنى الأصلي لهذه العملية النفسية التأسيسية.

والاختلاف الجذري يعود إلى إمكانية إيجاد المعنى الذي يؤمن المفهوم اللاواعي (اللاشعوري) لما يحصل في تركيب الإنبناء النفسي.

وقد اخترت من الترجمات التي وردت إلى حد الآن اثنتين: الأولى، خاصة بالأستاذ مصطفى صفوان في ترجمته لتفسير الأحلام، وهي التعيين: من فعل عيَّن: أي وضع نفسه مكانه وعبَّر عنه، والثانية، التماهي: وردت في ترجمات العاملين في حقل علم النفس في الجامعة اللبنانية.

والواقع أن كلتا الترجمتين، وما سبقهما، لم تؤد واحدة منهما إلى إعطاء المعنى الأصلي لكلمة Identification، بمعنى أن تشمل في معناها كل العمليات النفسية الواعية (الشعورية)، واللاواعية (اللاشعورية) المميزة لهذه المهمة.

وإن وقع اختياري على ترجمة صفوان، فليس إلا لأني وجدتها الأقرب إلى المحتوى النفسي للعملية اللاواعية (اللاشعورية)، رغم أنها لا تعطي التعبير الكامل لعملية Identification باعتراف منه. هذا بالإضافة إلى أن استعمال كلمة تعيين يشترط عدم استعمالها في المجالات التي لا تؤدي التفسير النفسي تجنباً لكل التباس.

ويبرر صفوان ترجمته بما يأتي[1] «وإذا أردت أن تمثل للعلاقة التي يراد التعبير

(1) راجع: تفسير الأحلام. ترجمة مصطفى صفوان.

مركبة من تماهيات ثانوية. ففي كل مرة يواجه الأنا غرضاً يتوجب عليه التخلي عنه لكي يعوض عن فقدانه بأن يدمجه في تركيبه عن طريق التعيين بصفة من صفاته كي تصبح قسماً منه». إجمالاً يرضخ انتقاء الموضوع للدوافع الشبقية اللاواعية (اللاشعورية) التي تختلج في ذاته وتتطلب دائماً الإشباع. والأنا في حد ذاتها تعاني من هذه التيارات التي لا تملك تجاهها حيلة تتوقاها أو تكبتها. وهكذا عندما تضطر تحت ضغط الروادع الخارجية من أن تتخلى عن غرض معين، أن تلجأ إلى عملية التماهي لكي تدمج في تركيبتها صفة من صفاته، تعوض بها على اللاوعي (اللاشعور) ما فقده. ويزيد فرويد: «يمكن أن يصبح هذا التماهي الشرط الذي من دونه لا يتمكن "الهو" من التخلي عن هذه المواضيع».

ويضاف إلى هذه العملية عامل التسامي الذي يلعب دوراً في تجريد الموضوع من غايته الجنسية، ويرتفع به إلى مستوى رمزي يمكن أن يصبح أداة يتعامل بها مع العالم الخارجي، ويعزز بالمناسبة الاستثمار الجنسي الثانوي.

فالأنا في مفهوم «فرويد» كما تناوله فيما بعد «لاكان»، ناتجة أولاً وآخراً عن هذه التماهيات المخيالية التي تكونها، وتصبح صلة الوصل بين الذات والعالم الخارجي[1]. فالانسجام الذي يحصل ما بين العديد من هذه التماهيات هو الذي يؤمن السلامة النفسية للسويين. وتضاربها فيما بينها يؤدي إلى التأزم والصراع النفسي، وإلى حالات العصاب[*].

واكتشاف الطفل (حسب نظرية لاكان) لصورته في المرآة يمثل المهد لكل التماهيات التي تحصل فيما بعد (أي التي أتينا على ذكرها). فهذه الصورة يكتشفها الطفل قبل المرحلة الكلامية (ما بين 6 ـ 18 شهر). وتأثيرها العميق بما تحدث من تغيرات وتحولات في ذاته تنبع من صدمة الاكتشاف. فهو بعد أن كان غارقاً في التجزئة الجسدية، ولا يملك أي فكرة موحدة، أو منسقة عن جسده ويعاني من عدم اكتمال جهازه العصبي الذي يزيد من ارتباطه الحياتي في كل حاجاته بالآخر، يكتشف في هذه الصورة ذلك الآخر، الأنا، المتكامل والمتناسق في شكله الجسدي، والسابق لنموه الفكري والحركي.

---

(1) J. Lacan, Séminaire I.

(*) ظهرت حالة في أميركا وتفشت كالوباء: وهي ما تسمى بسيندروم لشخصيات متعددة. كل مرة يتماهى المريض بشخصه وتنقطع علاقته بالتماهيات الأخرى. فيخال نفسه تلك الشخصية نفسها. هذا النوع من التماهي مميز للبنية الهستيرية.

ويحصل من خلال هذا الاكتشاف ارتقاء تصحبه الغبطة والنشوة، أي نشوة النصر على الضعف والعجز الحركي والالتزام الفموي الذي يفرضه وضعه الطفلي. ففي هذه الصورة سيرتقي الطفل إلى مفهوم الأنا في شكلها الأول قبل أن يدخل منهج التماهي بالآخرين كون اللغة تسنح له الفرصة لاكتساب الصفة المميزة للذات . ويقول «لاكان»: هذا الشكل الذي يتماهى به كأنا مثالي، إذا أردنا إدخاله في منطق معروف، يصبح المنطلق لكل التماهيات الثانوية، حيث نعرف أهميتها في التوزيع الليبيدي السوي. المهم في الموضوع في وضعية الأنا، أنها قبل أن يتأكد شكلها الاجتماعي، تكون قد انطلقت من منطلق مخيالي، لا عودة بعده للشخص. ويتأكد أن كل محاولاته اللاحقة لتحليل اكتماله تبقى دون هذه الأنا المثالي، ويتبين له باستمرار التناقض ما بين هذه الأنا والواقع . فهذه الصورة للجسد ليست إلا سراباً يسبق نضوج سيطرته وإخراجاً لشكل مكون لذاته وليس بواقع حاله المكون.

وعلق «جاك لاكان» أهمية كبيرة على مرحلة المرآة، على اعتبار أنها تمثل المرحلة الأولى التي يتم من خلالها التماهي بهذا الشكل الخارجي للجسد، فيستأثر به بعد أن يخرجه من حالة التمزق البدني، والعجز الحركي؛ ويحقق له وحدة في وظائفه تسبق واقع حاله. الانفعالات العفوية التي تصاحب هذا الاكتشاف ما هي إلا دليل على أهميته؛ وسريعاً ما تتعمم هذه الصورة في شكلها المثالي على الآخر الراشد الذي يسبقه في نضجه، وفي تكامل نموه الحركي الذي يحقق حاجاته في حرية تبرز عجزه وارتباطه. وتدخل الأنا في علاقة مع الآخر شبيهة كمثل يقتدى به، ويرنو للارتقاء إلى مستواه. يتماهى به كلما سنحت الفرصة لاستكمال نضوجه والتطور عن طريق الادماج حتى يؤمن نضجه، أو يزيد من تجميل هذه الأنا.

ومن البديهي أن يطرح السؤال الآن عن علاقة عملية التماهي بعقدة الخصاء، وما ينتج عن ذلك من الانبناء النفسي وتكوين الأنا المثالي.

كنا قد ذكرنا أن الأنا تتكون من خلال التماهيات الثانوية المخيالية التي تصادفها في خلال نشأتها، مما حدا «بجاك لاكان» إلى التأكيد على أن وظيفة الأنا هي منذ البداية وظيفة مخيالية (Fonction imaginaire) فالأنا هي جزء من الهو في البداية، تتكون تدريجياً، كما يقول فرويد، ويحصل التمييز دون أن تنقطع صلة الوصل بينهما؛ باعتبار أن الثاني ما هو إلا امتداداً للأول. وهذا الانفصال (Ich Spaltung) يحصل

المدخن. أفكر في الخروج لكي أشتري شيئاً ما، ولكني أتذكر في عصر يوم الأحد، وأن جميع المحال مغلقة. فأحاول الاتصال ببعض الموردين ولكن التلفون كان معطلاً. وعلى ذلك لا أجد بداً من النزول عن رغبتي في إقامة مأدبة العشاء .

إذا كنت تدعي أن الحلم تحقيق رغبة فهذا الحلم لا يحقق رغبتي.

الزوج: البدانة، التداعي ـ ورغبته بالامتناع عن الولائم. شكل وجهه المعبّر، ورفضه للرسام.

الزوجة: معاكستها لزوجها، ورفضها أن يغريها بالكافيار حتى تبقى تعاكسه.

الصديقة: تحوز على إعجاب زوجها، ولكن مشكلتها أنها نحيفة، وزوجها يفضل الأجسام المليئة، طلبت منها أن تعزمها . طبق الصديقة المفضل السالمون المدخن. تحرمها منه كما تحرم نفسها من الكافيار.

تحقيق رغبتها هي تحقيق حرمانها.

السؤال ماذا تريد هذه الامرأة: كافيار. ولكن هذا ما لا نريده.

الحلم يأتي تلبية لصديقتها بإقامة وليمة عندها.

ماذا يشغل الحالمة: هذا الزوج الذي لا يشبع ولا يحب إلا الاستدارة. الامرأة تماهي ذاتها بالرجل، والسالمون المدخن يأتي في موضع رغبة الآخر.

القسم الثاني

الأنوثة في التحليل النفسي

ولكن فرويد يستدرك أن مفهوم السلبية لا يعني أن الامرأة تخلو في طبعها من جنوح نحوها، وحتى العمل في سبيل هدف سلبي لا يخلو من الإيجابية والفعلية.

هذا إذا ما أخذنا بعين الاعتبار وضع المرأة الاجتماعي، وما يفرض عليها من انطواء على ذاتها، وكبت لدوافعها العدوانية، والاقتصار على الأعمال الجانبية؛كل ذلك جعلها تستثمر هذه العدوانية في نزوات مازوشية أصبحت في حد ذاتها صفة مميزة لأنوثتها، وهذا لا يمنع أن نصادف كثيراً من الرجال يحاكون الامرأة بمواصفات مماثلة.

يستعرض فرويد هذه المقدمة لكي ينفض يده ويصبح في حل من الأحكام المسبقة التي تميز بين المرأة والرجل، سواء كانت تشريحية أو نفسانية، ففي كلتا الحالتين يتبين لنا عدم صحتها، وإن اختلاقها وتعميمها كانا نتيجة التطور الانتروبولوجي أكثر مما هما مطابقان لواقع الحال.

ولكن فرويد لا يخفى عن نظره ازدواجية الجنسين: الشيء المميز للحياة الطبيعية، خلافاً لما هو سائد في عالم الجماد. ولذا نراه يأخذ الموضوع منذ بدايته، فإذا كانت الازدواجية شيئاً مشتركاً بين الطفل الذكر والأنثى، فما هي العوامل التي تطرأ وتحول دون إدراك التمايز المتعارف عليه بين الجنسين، فنقول مثلاً إن هذه امرأة وهذا رجل.

ويتبين لنا أن هذا المنعطف الكبير يحصل قبل سن البلوغ، رغم المقاومة التي يصادفها.

فالطفلة الصغيرة لكي تكتمل أنوثتها، يتوجب عليها أن تمر بتطورات صعبة ومعقدة، أكثر مما هو عند الطفل الذكر.

ولكن بالنسبة لفرويد، وهذا ما اختلف به بصورة رئيسية مع زملائه المحللين، تمر الطفلة بنفس المراحل الأولية التي يمر بها الطفل الذكر. فالاختلافات الجزئية التي لو لوحظت في الفترة الأولى من الطفولة تبدو فيها الطفلة أكثر وداعة، وأقل غطرسة، ومتقبلة بسهولة للنظافة والسيطرة على وظائفها الشرجية؛ كما أنها تبدي ذكاء وإقبالاً على العالم الخارجي، تفوق ما يلاحظ عند الطفل.

ولكن كل هذه الصفات تبقى نسبية، ولا تشكل في حد ذاتها صفة جنسية تميز الطفل الذكر عن الأنثى، فكلاهما كما يقول[1]: «يبدو أنهما يمران في المراحل

(1) المرجع نفسه، ص 155.

الليبيدية الأولية ويتجاوزانها بنفس الطريقة» فالطفلة لا تختلف عن الطفل بدوافعها العدوانية السادية. وفرويد لا يميز بين النشأة الليبيدية الذكروية أو الأنثوية. فبنظره، هناك اندفاعات ليبيدية قضيبية واحدة مشتركة عند الطفل الذكر والأنثى. ولا تميُّز بينهما بما يختص بالاستمتاع. فالفالوس لا يقتصر بنظر التحليل على عضو الذكر، فهذا الأخير ليس إلا صفة من صفاته التشريحية في المرحلة التي تسبق انتصابه وهذا ما يشير إليه لاكان ⊀(∅-) على اعتبار أنه ناقص على السواء، عند الامرأة والرجل. ولا يتواجد بمفهومه الفالوسي إلا في العلاقة الجنسية.

من هذا المنطلق يعتبر فرويد: أن الفتاة والفتى: هما رجلان صغيران، حتى تمر المراحل التي تميزهما عن بعضهما. فالفتى يداعب ذكره، ويحصل من خلال ذلك على متعة كبيرة، وكذلك الفتاة تداعب بظرها وتحصل على نفس المتعة، باعتبار أنها تجهل المهبل في هذه المرحلة.

وصراعها مع الذكر لا يبدأ إلا بعد أن يتأكد لها أنها لا تضاهيه، وأن كل الهوامات التي كانت تغذي هذا الاتجاه، يتبين فشلها فيما بعد. فلذا نراها، على أثر خيبة أمل كبيرة، تتحول عن استثمار هذا الموضوع الشبقي، لكي توظف المهبل تدريجياً. هذا التحول يعتبر منعطفاً كبيراً تتركز عليه نتائج هامة في تكوين أنوثتها. فالطفل الذكر يستمر في توظيف قضيبه دون حاجة إلى هذا التحول.

هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية، هناك تحول آخر ترضخ له الفتاة، فهي في البداية تشارك الطفل في تعلقه بالأم، ولكن في مرحلة تالية، تستبدل الأم بالأب وتشهر لها العداء، مع أن الطفل الذكر يستمر في محبة أمه حتى خروجه من عقدة الأوديب.

فالفتاة كما يقول فرويد: «مجبرة على أن تغير الموضوع الشبقي (البظر) وتتحول عن موضوع (الأم)».

والشيء الذي نبه عليه فرويد هو أن هذه العلاقة الأولية مع الأم بقيت غامضة، أهملها التحليل لأسباب تعود إلى عدم تمكنه، في تلك المرحلة من التعمق بتحليل الامرأة، والوصول بها إلى هذه المرحلة. ولكن يبدو أن فرويد رغم اعترافه بهذا النقص يؤكد أن هناك نقطتين استنتجهما من خلال تجربته وهما:

أولاً: إنه بقدر ما يظهر تعلق الفتاة بحب والدها بقدر ما كان هذا الحب يتصف بالوله والعشق نحو الأم مسبقاً.

ثانياً: إن فترة التعلق بالأم بقيت دون التقدير الذي تستحقه. ففي أكثر الحالات

الامرأة بحاجة إلى الكبت أكثر من الرجل لكي لا تظهر بعض الدوافع المماثلة. ومن هنا، يبيِّن لنا فرويد أن المرأة أكثر نرجسية من الرجل. فالتركيز على جسدها، وإظهار محاسنها، أو إظهار بريقه ما هي إلا عملية تعويضية عن النقص الأساسي.(*)

فالامرأة تتماهى بجسدها بالفالوس. ويصبح لمعانه المحرِّك لرغبة الرجل بامتلاكها، وفي هذا الامتلاك تكمن رغبتها بالرجل، من حيث إن العملية تعني في حد ذاتها إبقاء هذه الرغبة معلقة، كي يضحي على معبدها بما يعادل المراهنة. لذلك نرى دائماً أن رغبة الامرأة تكمن بالرفض المشروط، ورغبة الرجل بالعطاء المشروط (أي أن تبقى له وحده).

ويعود فرويد في آخر المقال لكي يشدد على أهمية نقص القضيب معتبراً أن هذا النقصان هو المحرك لكثير من المواقف، ومن دونه يصعب فهمها. وعلى هذا الأساس يفسر بعض مسالك النساء في الخياطة، والتطريز، والحياكة، معتبراً أن الدافع لذلك هو نسج شبكة حول العضو الجنسي لإخفاء معالم النقصان.

كذلك في اختيار الزوج: الاختيار الذي يعتبره دائماً يرضخ لدوافع لاواعية (لاشعورية) تسيطر على قرار الفتاة. فعادة اختيار شاب أحلامها تتحكم به رغبة من أن هذا الفتى يمثل، أو يقترب من المثال الأعلى الذي طالما تمنت أن تكونه (خيار نرجسي). أو في الحالة التالية، يكون الاختيار نابعاً من تشبيهه بوالدها لأسباب ذكرت سابقاً، فيأتي هذا الخيار على صورة هذا الأب (بالشكل، بالموقف، بالصوت أو بأي صفة تمثله) أو على صورة أخ كانت قد تعلقت به، ويحقق لها ذلك التحدي الأكبر ضد الأم.

وعندما يتم الزواج نرى أن هذه العلاقة تتم بمرحلتين: الأولى قصيرة، ويأخذ الزوج مكان الأب، على الصعيد الهوامي، وتكرر على مسرحه كل ما كان محور طلبات عند الأم. وفي المرحلة الثانية يحل الزوج محل الأم وتحاول أن تكرر نفس المواقف التي كانت تربطها بأمها. والطلبات التعجيزية ما هي في تخيلها إلا النقصان الفالوسي من حيث إن نقمتها على أمها تعود في الدرجة الأولى إلى كونها ولدتها

(*) عندما يقول لاكان "ان المرأة غير موجودة" . يعتمد على الكبت المؤسس الذي يطال المرأة الأولى التي كشفت هيلة الخصاء للرجل. ولذلك حصل ما يسمى"بممثل المتمثل". المتمثل طواه الكبت وهو المرأة الأولى. أما الممثل هو المرأة التي نتعامل معها والتي تأخذ أشكالاً مختلفة حسب مقاييس الجمال في كل عصر.

سنعود إليه في بحثنا عندما يطرأ التحول الرئيسي الذي يحصل في تطورها: من أمها إلى أبيها.

ولكن الفتاة، خلافاً للفتى، أمام اكتشافها لهذا الواقع التشريحي، لا تستطيع أن تتقبل الفكرة. فأملها باستحصال القضيب يبقى الدافع الذي يحرّك رغبتها في هذا الاتجاه. وهكذا في تحوُّلها من الأم إلى الأب في طلبها، فليس إلا نتيجة اكتشافها بأن هذه الأخيرة التي تشاركها هذا المصير، غير قادرة أن تعوض عليها، سيما إذا ما تبيّن لها في الوضع السوي أن الأم تتجه في طلباتها نحو الأب. وأن هذا الأب هو الذي يؤمن المتعة في علاقتهما الجنسية.

وهنالك سبب آخر، فاستخفاف الفتاة بواقعها الجسدي، وشعورها بالضآلة، يتعمم على كل النساء، وبالأخص أمها. أمام هذه الأسباب، تنصرف عن الأم، وتتحول إلى الأب بدافع التعويض والمنافسة. ولذا فعندما تدرك أنها لا تستطيع الاستمتاع بقضيب الأب، كما هو الحال عند الأم، تتجه نحو المعادلة المعروفة. فالوس= ولد.(*)

ويصبح طلبها ولداً من الأب، هو الدال الثاني الذي يعوض عن نقصها. وهكذا يقول فرويد[1] فالرغبتان المتجسدتان في الحصول على فالوس وعلى طفل، تبقيان راسختين في اللاواعي (اللاشعور) وتساعدان على تحضيرها حتى تصبح امرأة في دورها الجنسي المستقبلي.

أمام هذه المعطيات يعترف فرويد بأن العقل يعجز عن توضيح بعض المتناقضات. وأن ما توصل إليه غير كاف وغير مرض، لأنه يحمل الكثير من الغموض في طياته. وهذا ما سيحاول توضيحه في مقالين رئيسيين هما:

1 - Quelques conséquences psychologiques (La vie sexuelle, PUF).

2 - Sur la sexualité féminine.

ولنبدأ بالمقال الأول: حيث يلقي فرويد بكل ثقله الفكري على اكتشاف الفارق العضوي بين الفتى والفتاة. فعلى هذا الفارق تترتب نتائج نفسية هامة. فاكتشافه يؤدي من جهة الفتى إلى اكتشاف الخصاء كتهديد يلاحقه في كل تصوراته، وتصبح العقدة التي يتمحور حولها كل الجدل فيما يختص الامرأة بصورة خاصة، وكذلك مفهومه للأنوثة بصورة عامة. من هذا الباب نرى، إذا حاولنا البحث، أن الكثير من المواقف

(*) فالوس= د1 ولكن ناقص يفتح المجال لد2 بديل ولكن غير كافٍ.

(1) المرجع نفسه، ص 127.

التي اتخذها الرجل، سواء في اضطهاده للإمرأة (*)، أو في اختلاق شتى الوسائل لإخفاء معالم جسدها، كان من أجل الإبعاد عن ذاكرته صورة الخصاء التي كانت تهدده والتي كانت متجسدة بها. وإقصاء النساء في الأزمان الغابرة وحتى الحاضرة، عن مجتمعات الرجل مع تعليل ذلك بشتى الأفكار العقلانية، ليس ذلك إلا تبريراً تجاه الوسائل الدفاعية التي اتخذها الرجل لحماية نفسه من آثار صدمة الخصاء (**). وكانت الفكرة السائدة إذا اجتمع رجل وامرأة، كان الشيطان ثالثهما. فما هو هذا الشيطان؟ وما هي وظيفته وكيف يخاطب الإثنين معاً؟ وإذا سألنا هذا الشيطان لوجدنا أنه الممثل الشرعي لعقدة الخصاء، وما ينتج عنها من شهوة جنسية قد لا يستطيع الطرفان التحكم بها. فالرجل لا يستطيع أن يحتمي من التهديد بالخصاء إلا بتقبل نقص الامرأة والأم بصورة خاصة، على اعتبار أنها المسرح والمكان الذي تدور عليه هذه العقدة الأوديبية، ولذا فالاعتراف بنقص الأم يجب أن يتعدى هذه الرغبة بالتخلي عنها، مما يجرِّد دوافعه نحوها بمحتواها الجنسي، لكي تصبح علاقته معها محبة، ووداً، وحناناً.

فعلاقة الرجل بالامرأة يتحكم بها هذا الوجه المخفي: التهديد بالخصاء. والشيطان: هو الرغبة الجنسية، أي الاغراء كون هذه الدوافع تقفز إلى مسرح العلاقة لتخفي ورائها الخوف الكامن. فإذا كانت الامرأة ناقصة، فإنه يستطيع أن يعوِّضها عن ذلك بعلاقة جنسية، عن طريق امتلاكها لقضيبه، وهذا الالتحام الناتج عن المضاجعة، يمحوان الفارق المهدد ولو لبرهة.

ولذا فكل علاقة يتحكم بها الإغراء الجنسي، إذا ما لم يستطع الرجل أن يسقط هذا الحجاب ليكشف عن الصورة الإنسانية للامرأة، أي يرضى بتكوينها، والاقتناع بأنوثتها، دون أن يثير ذلك في نفسه الخوف أو القلق أو النقيض، أي الإغراء. والمعادلة التي نصادفها في الحياة العامة. أي أن الامرأة معادلة للجنس، ما هي إلا إحدى النتائج المترتبة عن هذا الموقف الأساسي.

قد يؤدي هذا الخوف الناتج عن اكتشاف الفارق الجنسي عند الفتاة في نظر

(*) اضطهاد الرجل للمرأة يعود إلى بداية اكتشافه لعقدة الخصاء والتهديد الذي لحقه بسبب نقصانها، وذلك منذ بداية تاريخ البشرية.

(**) يعتبر فرويد أن أهم صدمة يصادفها الإنسان في تاريخ حياته هي صدمة الخصاء. وتأتي بعدها صدمة اكتشاف موته عن طريق موت الآخر.

فرويد[1] إلى أحد احتمالين: إما القرف والاشمئزاز من هذه المخلوقات المشوَّهة، وإما الاحتقار والتعالي عليها.

وبهذا الفارق الجنسي بين الفتى والفتاة: نجد إذا كان المخرج بالنسبة للفتى هو الخروج كما ذكرنا سابقاً من العقدة الأوديبية، فإنه بالنسبة للفتاة هو المدخل الذي تدخل منه إلى هذه العقدة؛ والذي، كما نعرف، يؤدي إلى شهوة القضيب، التي انطلق منها فرويد كي يبني نظريته حول الأنوثة.

فالفتاة، كما يوضح فرويد[2]، منذ اللحظة التي يتأكد لها فيها هذا الفارق، تحكم وتقرر، وهذان الحكم والقرار يمران بثلاث مراحل فكرية.

أولاً: ترى عضو الفتى: بحجمه الكبير.

ثانياً: يتبين لها نقصها: فهي الآن تعرف أن هذا العضو ينقصها، ولا تستطيع تجاهل هذه المعرفة.

ثالثاً: سريعاً ما تشعر باشتهائها هذا العضو والحصول عليه.

فانطلاقاً من هذه المرحلة الأخيرة تبدأ الرحلة الطويلة في اشتهاء القضيب التي تكوِّن العقدة الذكرية عند الفتاة، أي تعمل كل جهدها على محاكاة الرجال، تريد أن تصبح مثلهم وتضاهيهم في امتلاك وهمي. فهذا الأمل بالحصول على القضيب، يصبح مطلباً لاواعياً (لاشعورياً)، يلاحقها فترة طويلة من حياتها إذا لم تمكِّنها الأحداث من وضع حد له. أو في حالات أخرى، تستعمل وسيلة الإنكار، أي تجاهل هذا النقص عندها، وتعمل كما لو كانت لم تأخذ علماً بذلك، مما يؤدي في النهاية إلى ولادة عصاب نتيجة المواقف المتصلبة .

وفي حال أن المرأة لم تستطع أن تضع حداً لملاحقة غرضها، فإنها لا تكف عن شهوتها في القضيب التي تتمثل في كثير من المواقف المسلكية. وهكذا يتضح لنا مفهوم الغيرة كصفة خاصة عند الامرأة. أو بشعور دائم بالدونية، وحاجة مستمرة إلى التعويض.

في منتهى المطاف، يوضح فرويد في مقال On bat un enfant ـ ولد يُضرب. وهو هوام وجده عند كثير من الفتيات: وأن مصدر هذا الهوام هو غيرة من أخ لتملُّكه القضيب، اعتبار إن هذا الطفل= (قضيب) المضروب ـ المداعب يعبر عن اعترافها

---

(1) (2) المرجع نفسه، صفحة 127.

بالعادة السرية المتاخمة للمرحلة القضيبية. وكثيراً ما نصادف هذا الهوام، سواء في غيرة الفتيات من الصبيان، أو من صراع في الحياة الزوجية كون الزوج يصبح منافساً، تنصب عليه النقمة نتيجة امتلاكه القضيب وحرمانها منه.

وهناك عامل ثالث ناتج عن هذه القناعة التي ترسخت عند الفتاة كونها محرومة من القضيب، فتتحول عن حبها لأمها، بعد أن كانت هدفاً لاندفاعاتها الحبية وتعلقها العاطفي. والسر يكمن، كما يقول فرويد: في أن هذه الأم تتحمل مسؤولية نقصها، لأنها دفعتها إلى الحياة غير مجهزة تجهيزاً كاملاً بأعضائها الجنسية. ومما يعزز هذا الاعتقاد هو إذا ما رزقت الأم بطفل ذكر، أولته اهتمامها، وأغدقت عليه محبتها، بعد أن تكون قد تحولت عن ابنتها.

والعامل الرابع الناتج عن شهوة القضيب، وهو الأهم بنظر فرويد، لما يترتب عليه من نتائج هامة في تكوين الأنوثة، هو موضوع العادة السرية. فالفتاة حساسة جداً بالنسبة لهذا الموضوع، سيما أن علاقتها بها علاقة عميقة الجذور تعود إلى المرحلة الفالوسية، أي المرحلة التي كان يسود فيها الاعتقاد بأنها تملك القضيب على السواء مع بقية أفراد البشر. كما لو أن بظرها هو بمثابة قضيب قائم بحد ذاته. وغالباً ما ترتد الفتاة مشمئزة من هذه الممارسة بعد أن يتبين لها الفارق الجنسي بينها وبين الجنس الذكري. فشعورها بنقصها يرتد عليها بالاشمئزاز والاحتقار لهذا العضو الصغير (البظر)، فيسقط من اهتمامها، كما يسقط القسم الكبير من التوظيف الذكري لهذا العضو؛ وإذا لم يسقط هوام العادة السرية، نراه في التحليل يستمر، مولداً الخوف، ويصبح هاجساً يلاحقها باستمرار.

والكبت الذي يشمله، يشمل أيضاً القسم الكبير من النشاط الجنسي الذكري الذي كان يمثل المرحلة الأولى للنشاط الجنسي عند الفتاة.

ودافع الفتاة على العادة السرية، يستمد قوته من الشعور بالتذلل نتيجة هذه المنافسة التي وقعت فيها، وكانت من نتيجتها أنها أصبحت تنافس الذكر بعضو، تبين لها فيما بعد صغره وقصوره.

فلذا كان لا بد لها حتى لا تضل من أن تخرج من هذا الكمين وتكف عن منافسة الذكر، أن تخرج من هذا الكمين.

ويستنتج فرويد، أنه كان بإمكان الفتاة ألا تصل إلى هذه القناعة المضللة لو

فهمت الفارق الجنسي التشريحي الذي، إن ما تحقق اكتشافه يمكنها التخلص من دوافعها الذكرية، والتوجه نحو الأنوثة الصحيحة.

ولكن، كما ورد في السابق، فإن التخلي عن البظر كبديل للقضيب، لا يعني أنها تخلت عن شهوتها لهذا القضيب بمفهومه الفالوس؛ فهذه النزعة تلاحقها فترة طويلة من الزمن وتستمر حتى في حياتها الراشدة. لذا نراها تتحول إلى الأب، تدافع عن مكانتها، وتطلب مقابل الفالوس بديلاً عنه يدخل في حكم المعادلة المعروفة: فالوس = ولد. فهي تأمل من والدها أن يمنحها طفلاً على غرار ما حصل لوالدتها. وفي حال تحولها عن هذه الرغبة، تتماهى في الأب، وتستمر في هذا الاتجاه فترة من الزمن إلى أن تتمكن بحكم الأحداث الخارجية أن تستعيض عنه بتعويضات جانبية.

على كل، فالمهم في الموضوع، أن هذه المرحلة القضيبية التي سبقت العقدة الأوديبية لا تتحطم إلا بفعل اكتشافها للفارق العضوي بينها وبين الذكر. فإقرارها لهذا الخصاء كواقع حال، هو الذي يمكّنها من الدخول في المرحلة الأوديبية؛ خلافاً للذكر الذي بحكم التهديد بهذا الخصاء يتمكن من الخروج من الأوديب.

فللعقدة الخصائية عند الامرأة أثر هام: أولاً في الحد من دوافعها الذكرية، وثانياً في تحويلها وتشجيعها إلى اكتشاف أنوثتها. ويخلص فرويد إلى القول: بأن الفارق الذي يكمن في هذا القسم من التكوّن الجنسي عند الرجل والامرأة هو نتيجة طبيعية للتميز بين الأعضاء الجنسية، ومن الموقف النفسي الملتزم به، ويختصر الموضوع بإظهار الفرق ما بين التهديد بالخصاء وما بين الخصاء الحاصل.

وهكذا يؤكد فرويد على مرحلة القضيب التي تمر بها الفتاة، والتي، هي بحكم أولويتها، تستأثر بكل التوظيفات الليبيدية. وباكتشاف الخصاء الحاصل فعلاً، يصبح الأوديب بعقدته تركيبة ثانوية، كان مدخلها الخصاء.

ويبدو أنه إذا كان زوال العقدة الأوديبية عند الذكر هو نهائي وشبه تام في المرحلة الثانية من الطفولة، باعتبار أن الأنا الأعلى قد يصبح وريثه الشرعي، فإن الحال يكون مختلفاً عند الفتاة لأن تحطم العقدة الأوديبية لا تزال عملية نجهل مصيرها. فهي لا تتحطم ولكن يشملها الكبت، والتخلي عنها تدريجياً، ولكن نتائج تأثيرها في حياة الامرأة تستمر بشكل كامن؛ مما حدا بفرويد إلى الاعتقاد بأن غياب الصرامة الأخلاقية، وارتباط مسلكها الخلقي والأخلاقي بجذور عاطفية يعود إلى عدم تحطيم العقدة الأوديبية. وهذا ما يفسر الليونة في أحكامها العرفية، ومن ميوعة

شعورها بالعدالة، والنقص في قرارات حاسمة، واستخفافها بما يفرضه واقع الحياة، بالإضافة إلى كونها قابلة للتأثر بالغير في أكثر القرارات التي تتخذها.

وإجمالاً: فإنه لا يوجد مثال أنثوي، أو مثال ذكري صرف فكل مثال يتواجد به مزيج من الأنوثة والفحولة(*) ـ ولذا لا يمكن أن يؤخذ إلا من الناحية النظرية.

(*) نظراً لأولوية الفحولة في المجتمع البطريركي، لا تجد المرأة أي حرج في إظهار رجولتها بل تتباهى بأنها أخت الرجال. أما الرجل فإنه يجد العيب الكبير بإظهار جزئه الأنثوي، فلذلك نراه يخفي ذلك بكثير من الحذر ويشدد عليه الكبت، ويواجهه بالمزيد من مظاهر الفحولة حتى نخاله يتمخطر.

نظريات المحللين المتجانسة مع نظرية فرويد

سنستعرض الآن، في مرحلة أولى، النظريات التي أتت من قبل محللين، جلُّهم من النساء، وكانت متقاربة، أو داعمة للنظرية الفرويدية. وبعدها نستعرض النظريات المخالفة، والتي سببت انقساماً في الموقف التحليلي، لأن الرأي المخالف في هذا المجال لا يمكن أن ينفصل عن موقف المحلل من تحليله الخاص، ومن المقاومة التي يمكن أن يبديها إزاء اكتشافات لا يستطيع أن يتقبلها. وهذا لا بد أن ينعكس على طريقة عمله العيادي، وعلى خط تنظيره لهذا العمل. أستعرض في المناسبة موجزاً لأكثر الآراء شيوعاً في الميدان التحليلي ومن اشتهروا في المرحلة ما بعد الفرويدية.

(1) جانين لمبل دي كروت (J. Lampal - de - groot)

تقول: إن الفتى والفتاة في المرحلة الأولى يتساويان في المسلك الذكوري، وحتى في النمو النفسي فإنهما ينموان بشكل مشابه. التعلق بالأم واحد. فالفتاة كالفتى تتمسك بالأم، وتريد الاحتفظ بها لوحدها عنوة عن الأب، الذي يصبح في مفهومها «منافساً أول» في الموضوع.

وعندما تكتشف الفارق بينها وبين الصبي، تصاب بالشعور بالدونية. وتتوهم بأنها كانت تملك قضيباً ولكنها حرمت منه بسبب دوافعها المحرمة تجاه الأم.

عقدة الخصاء تؤثر على الفتاة بنفس النسبة التي تؤثر بها على الفتى. تولِّد عندها جرحاً نرجسياً نتيجة للدونية التي تشعر بها، وتحول أيضاً دون تحقيق رغبتها تجاه الأم.

في كلا الحالتين تؤدي عقدة الخصاء إلى انحلال الأوديب عند الطرفين (بالنسبة للفتاة، أوديب سلبي). أما الخصاء فهو تهديد للفتى، أما بالنسبة لها فهو أمر واقع محتوم.

يحصل تطور بالنسبة للعلاقة الليبيدية مع الأم، فبدلاً من أن تتماهى بها، تتجه نحو الأب (المنافس السابق) التعويضي، حتى يمنحها طفلاً بديلاً للقضيب المحرومة منه وتتبلسم جروح نرجسيتها عندما تدرك أن أملها سيتحقق يوماً ما: علماً بأن الرجال لا يحبلون، والمرأة هي الوحيدة القادرة على أن تضع طفلاً.

في نفس الوقت يتبدد تشبثها بالبظر، فتقلع عن العادة السرية، وعن المنافسة الذكرية.

في حال الأوديب السلبي، تبقى الفتاة متمسكة بالأم، وانحلال الأوديب لا يكون نهائياً، وتنكر أيضاً واقع الخصاء. وقد تعود إلى وضع نقوصي سابق ـ (منافسة الذكر وتحدي الأب بعد أن تكون قد أصيبت بخيبة أمل منه) وفي أقصى الحالات قد يؤدي هذا الوضع إلى المثلية الجنسية.

وغالباً ما يكون الإنكار جزئياً، فتتجه إلى نشاطات خارجية، مهنية أو اجتماعية، تنافس بها الرجل، وتتحول في نفس الوقت عن جنسيتها. في أحسن الحالات تقيم علاقات مع رجال، ولكن من خلال برودة جنسية، لأن غرضها الكامن يبقى الأم.

ج. لمبل دي كروت، توافق على نظرية فرويد حول موضوع الخصاء، ولكنها تعتقد بأن تكوينه ثانوي لأنه يسبقه أوديب سلبي مطابق تماماً لما يحصل عند الذكر. لأن مصدره التهيج البظري وموضوعه كان الأم.

يبدو لنا من نظريتها التي ظهرت قبل مقالة فرويد عن الجنسية الأنثوية: بأنها تحمل أولى بذور لمفهوم المرحلة الجنسية الماقبل الأوديبية التي طورها فرويد فيما بعد.

مساهمة في حل مسألة الأنوثة، 1933

التباين بين الرجل والامرأة يكمن في التناقض بين الفاعلية والسلبية. الفاعل هو المرء الذي يسعى وراء الفعل الجنسي ويكتسبه، والسلبي هو الذي يستسلم إلى آخر. فهذه الفاعلية والسلبية ليست مقتصرة فقط على الحقل الجنسي، بل كما يقول فرويد معممة على الحقل النفسي في كل مجالاته، فانطباع سلبي يتلقاه الطفل يوقظ عنده ميلاً لكي يتحرك فاعلياً. في الحب نجد نفس التضاد، فالرجل يحب والامرأة تترك نفسها لكي تحب .

الرجل السوي يتخطى جروحه النرجسية، والسيطرة على عقدة الخصاء، لكي يحقق علاقة موضوعية واقعية.

عدوانيته توظف في غزو المرأة، وفي التسامي؛ ميوله السلبية تكون مرتهنة لميوله الفاعلة.

أما الامرأة السوية فهي سلبية في حياتها الجنسية، أما ميولها العدوانية فترتد عليها داخلياً بشكل مازوشي. فأحداث حياتها من فض عذريتها، إلى الولادة يوقظ الألم بحسب قول هيلين دوتش.

المرأة السلبية تظهر القليل من عدوانيتها نحو الخارج في مجالات الحياة.

تتساءل «إذا كان هناك ليبيدو واحد للمرأة وللرجل فلماذا يتباين موقفهما ضمن سلبية وفاعلية».

في المرحلة الأولى من الحياة تكون الفتاة متساوية مع الفتى في فعاليتها تجاه الأم وعندما تتحول عن الأم ما هو مصير النشاط الفعال الذي كانت تتمتع به حتى الآن؟ فهي أحبت أمها بشكل فعال ودخلت المرحلة الأوديبية (5 ـ 6 سنوات)؛ عندئذ تتحول نحو الأب بعدما كانت علاقتها معه على غرار علاقتها مع باقي أفراد البيت (تارة ودية وتارة عكسية حسب مزاجها الآني).

والسؤال، ما الذي حدا بها لكي تتحول من الأم إلى الأب؟ وتجيب تأكيداً على ما قاله فرويد بأن خيبة الأمل، وجروحها النرجسية نتيجة استنتاجاتها بحرمانها من القضيب على غرار الأم، تجعلها تسحب رصيدها النرجسي منها، وتحوِّله نحو الأب لكي تحبه بشكل سلبي .

فالتباين النفسي بين الفتى والفتاة لا يتحقق إلا عندما يكتشفان الفارق الجنسي التشريحي.

فالفتاة تصاب بخيبة أمل نتيجة عدم وجود القضيب عندها. الشيء الذي كان يبرر امتلاك أمها. ولذلك تسقط عندها الميول الفاعلة، وترتد عدوانيتها من الخارج لكي يوظف جزء منها في الداخل، ضمن هوامات مازوشية.

تتساءل ج. لمبل: ماذا أعطى التحليل النفسي من جديد لكي يشرح الحياة البيولوجية الآتية؟

الحياة الجنسية الذكرية تتحقق بواسطة ميول فاعلة، والحياة الجنسية الأنثوية بواسطة ميول سلبية.

المرء يستطيع أن يترك نفسه تتلقى الانطباعات والتهيجات الآتية من الخارج: في مثل هذه الحالة يكون سلبياً. وعندما يحاول أن يرتد إلى العالم الخارجي كي يقتحمه،

ويسيطر ويحقق أغراضه به، يكون في وضع فعال. وهكذا بالنسبة للطفل، فالانطباعات الجنسية الأولى يتلقاها بشكل سلبي، ويحاول فيما بعد أن يكررها على المواضيع الخارجية بشكل فعال، وعندها يصبح فعالاً إذا كان أحد المواضيع هوامه.

لكي تدعم نظريتها، تستعين ج. لمبل بالعلوم البيولوجية، كون السلبية والفاعلية تختزلان في عملية المضاجعة: عندما توضع البذرة في رحم المرأة تتلقاها البويضة بشكل سلبي. عادة في حقل الأنوثة عندما توجد المرأة مع الرجل تتصرف بشكل سلبي ولا يكون لها مكان للفاعلية.

الامرأة، حيث أنوثتها طاغية لا تحب، لكن تترك نفسها تحب. فالنساء اللواتي يحببن الرجل بشكل فعال، يتمتعن بصفات فحولية، والحب الذي توجهنه نحو الطفل هو من النوع الفعلي الذي يدخل في صفات الرجولة ـ وهكذا تكون الامرأة بموقع رجولي عندما تهتم بتربية الأطفال بحكم غريزتها.

والأمهات الطيبات، هن الأمهات المتبلدات جنسياً. لأن الليبيدو غير المستعملة هي التي توظف في أغراض يكون هدفها الفاعلية.

أما بالنسبة للأنا الأعلى: فهو بحاجة إلى توظيف الميول الفعالة والعدوانية. «ولكن الامرأة السلبية ذات الأنوثة النموذجية لا يوجد عندها أنا أعلى».

خلاصة: التباين بين الرجل والأنثى، يأتي من باب السلبية والفعالية.

(2) هيلين دوتش (Hélène Deutch)

سيكولوجية الامرأة وعلاقتها بالوظيفة الإنتاجية

هيلين دوتش: عرضت آرائها في كتاب من جزأين، تحت عنوان سيكولوجية النساء.

تبدأ هيلين دوتش: بتحديد مسيرة تطور الفتى بالنسبة إلى الفتاة: فالفتى، منذ المرحلة الفالوسية، يتابع مسيرته في هذا الاتجاه إلى أن تتكون عنده العقدة الأوديبية، ثم انحلالها وتفككها، لكي ينصرف فيما بعد إلى العلاقات السوية مع امرأة من اختياره. في هذه المسيرة لا يحيد المرء الذكر عن خط المرحلة الفالوسية التي بدأ منها.

أما الفتاة، فإن انطلقت من نفس المرحلة، فعليها أن تغيِّر في فترة ما لكي تتحول عن المرحلة الفالوسية ليحل محلها اكتشاف الفرج (أي اكتشاف أعضاء جنسية جديدة).

الرجل بالنسبة لدوتش: «يدرك المرحلة النهائية من نموه عندما يكتشف وجود الفرج خارج جسده، وتأخذه عندئذ رغبة إيلاجه بشكل سادي».

أما المرأة، فيتوجب عليها اكتشاف فرجها في جسدها. «اكتشاف يرافقه انصياع مازوشي للقضيب، لكي يصبح هذا الأخير الدليل نحو هذا الينبوع الجديد للذة».

فلليبيدو الجنسية للمرأة نحو الرجل جذور بدائية تعود إلى المرحلة الفموية. في الطفولة تكون المعادلة في اللاوعي (اللاشعور)، ما بين القضيب والثدي. وهذه المعادلة تتماشى بشكل متواز مع النظرية الفموية حول العلاقات الجنسية (Fellatio) الخاصة بهذه المرحلة، وحول الهوامات الفموية للحبل. والقضيب في مرحلة لاحقة السادية ـ الشرجية، يفقد خاصته الفموية ليصبح عضو السيطرة. والعلاقات الجنسية تفهم كأنها سادية. والطفلة تتماهى: إما بشكل فعال بالأب، أو بشكل مازوشي بالأم.

هوام الحمل في تلك المرحلة هو «الطفل الشرجي». الشرج يلعب دوراً سلبياً على غرار الفم في المرحلة الفموية.

الثدي، والقضيب، والغائط لهم أيضاً دور فعال. وهكذا تتمهد الطريق نحو الاستثمار السلبي للفرج، (أي الفتحة الثالثة عند المرأة). ولكن الازدواجية الجنسية تعاكس هذا التحول إذا احتفظ بقسط كبير من الليبيدو، مما يجعل التحول من القضيب إلى الفرج أمراً صعباً إنما في الواقع لا يأخذ الفرج دوره الشبقي إلا بعد ممارسة علاقة جنسية.

الطفلة توزع استثمارها الليبيدي على أنحاء الجسد، وانطلاقاً من هذا الجسد ككل، ومن البظر بصورة خاصة، يتم التحول نحو استثمار الفرج. يشكل القضيب المحرِّك لهذا التحول، على غرار ثدي الأم المالىء لفم الطفلة، ويتحول توظيف الليبيدو إلى الفرج، وهكذا يصبح الفرج البديل للفم في وظيفته السلبية للمص.

أما بالنسبة للبظر، فإنه يفقد نشاطه القضيبي، والامرأة (من خلال فرجها) تستعيد هذا النشاط عبر التماهي في قضيب قرينها.

وهذا التماهي على الصعيد الوظيفي للفرج بالقضيب، كونه جزءاً من الجسد، يمكِّن المرء من تخطي صدمة الخصاء.

هذا الوضع الاستقبالي الذي يتميز به الفرج، على غرار الوضع السلبي بالنسبة لاستقبال الثدي في الفم، وما يحصل من ردات فعل مزدوجة، نتيجة الفطام: يمكِّن الفتاة من تخطي صدمة الفراق والفطام.

كل الأفعال المتاخمة للوظائف الأنثوية تمكّن المرأة حسب هيلين دوتش، من تخطي العديد من الصدمات.

الازدواجية الجنسية، (Bisexualité) أو«البظر ومشتقاته الذكرية»، تشكل عقبة في الوصول إلى الأنوثة السوية.

خلاصة: النموذج الأصلي لجنس المرأة، هو المرحلة الفموية. الفرج يبقى مجهولاً إلى أن تكتشفه عن طريق الجماع ـ قضيب. دليل النشاط الجنسي والوظائف التوليدية، تبقى غير منفصلة عن بعضها، وتمكّنها من تخطي العديد من الصدمات . البظر ليس له سوى دور إكفافي.

معنى المازوشية في الحياة النفسية للمرأة، (1930)

«هدف هذا المقال هو البحث في كيفية تكوين الأنوثة. وأعني في ذلك تركيبة «سلبية ـ مازوشية» تتعمم على مفهوم الأنوثة في الحياة النفسية للامرأة». حسب قولها.

لا تختلف هيلين دوتش في رأيها عن فرويد في مرحلة الخصاء، عندما تكتشف الفتاة الفارق الجنسي وتتكوّن عندها «شهوة القضيب». فهي تبادل هذا التمني برغبة الحصول على طفل من الأب. وهكذا تدخل في عقدة أوديب. أما بالنسبة للنزوات الشبقية الفعالة المتمحورة حول البظر، تحاول هيلين دوتش إعطاءها مفهوماً خاصاً. فالنزوات الذكورية ـ النرجسية في امتلاك القضيب تتحول إلى طلب موجَّه إلى الأب بإخصائها، وذلك عن طريق الإغتصاب. وهكذا تتحرك «السادية ـ الفعالة» إلى «مازوشية ـ سلبية».

تتمحور حياة المرأة حول مثلث مازوشي:

خصاء ـ اغتصاب ـ ولادة. وهذه المعادلات ملازمة لمرحلة من مراحل نموها. مرحلة عقدة الخصاء.

البرودة الجنسية تحصل من الميول المازوشية. والتماهي بالأب يمكن أن يؤدي إلى موقف انطوائي أمام مخاطر التماهي بالأم بشكل مازوشي. وحتى اختيار الموضوع الجنسي يخضع لهذه الحاجة المازوشية، من حيث إنّ الإشباع الجنسي لا يتم إلا إذا رافقه، أو التزم بمازوشية لا يمكن تجاهلها.

كثير من النساء لا يعرفن الرعشة، ومع هذا نجد أنهن يقمن علاقات اجتماعية جيدة، ويقمن بواجباتهن المنزلية، وتربية أطفال على أحسن ما يرام. وفي حال الجماع يبدون سعيدات بالعطاء من حيث كونهن منبعاً للذة الرجل؛ ويعتبرن أن العلاقات

الجنسية لا أهمية لها إلا بالنسبة للرجل. هذا النوع من النساء أصبح في حالة الإنقراض، وبدأ يحل محله نوع آخر عصابي من حيث إنّ البرودة أصبحت مرتبطة بعقدة ذكورية.

وتقول دوتش: «لم يكن باستطاعة المرأة أن تتحمل عبر التاريخ عبء تهميشها في المؤسسات الإجتماعية، نظراً لضعف إمكانية تساميها من جهة ومن الإشباعات الجنسية من جهة أخرى، لو لم تجد في عنصر الحمل والولادة التعويض الرائع لمثل هذا القهر».

فالمازوشية الأنثوية هي نتيجة التحول من الخارج إلى الداخل للنزوات البظرية الفاعلة التي تفتح الباب نحو الأنوثة، لكن بسبب الخوف الذي يطال الأنا في يقظته، تصبح مصدراً للبرودة الجنسية.

حول موضوع البرودة الجنسية، (1960)

موضوع البرودة هام، انطرح في مجالات عدة، طبية واجتماعية وأنتروبولوجية وتضاربت الاراء حوله، سواء في تحليله أو في علاجه.

وتقول دوتش: «بأنها فوجئت باتساع موضوع البرودة الجنسية عند الامرأة، وبخيبة أمل في نتائج علاجه. ووجدت أن الكثير من العصاب الشديد يتحسن دون أن يظهر أي تقدم، في المقابل، على صعيد هذا الموضوع، وتبين لها أن هناك نساء ذهانيات، ونساء عصابيات ومترجلات ومع ذلك يتوصلن إلى الرعشة الجنسية، بالمقابل هناك نساء مكتفيات، أمهات ناجحات، وسعيدات في حياتهن، لا يتوصلن إلى ذلك دون أي تذمر».

تتساءل دوتش عما إذا كان الفرج: هو عضو اللذة الجنسية أم أن مهمته الرئيسية هي الإنجاب، على اعتبار أن البظر هو الذي يستأثر بالأحاسيس الجنسية منذ الطفولة الأولى، والتحول من البظر إلى الفرج لا يتم إلا بملامسة العضو الجنسي الذكري له.

والسؤال يطرح بطريقة معاكسة: فبدلاً من أن نتساءل ما سبب برودة الامرأة، يجب أن نسأل كيف يتيسر لتلك الامرأة أو لغيرها الرعشة الجنسية؟ أي تطرح دوتش عامل البرودة عند المرأة: كما لو كان عاملاً طبيعياً وسوياً بحكم تطور الجنس البشري.

وتعتبر أن للفرج مهمة سلبية استقبالية، مرتهنة بالقضيب، يرافقه في تقلصاته واسترخائه، في حركاته الذهاب والإياب. وعند غالبية النساء اللواتي لا يعانين من

اضطرابات معينة، فالعمل الجنسي يقتصر على استرخاء في الفرج ضمن نهاية سعيدة.

وتقول إن الرعشة الجنسية التي ترافق العمل الجنسي إذا ما حصلت، يعقبها أحلام مخيفة. أما الاكتفاءات التي تحصل من جراء استسلام الفرج إلى عملية استقبال سلبية تولد ارتياحاً، ونوماً هادئاً، نتيجة التفريغ الجنسي الملائم. «وتقول إذا نظرنا إلى الموضوع من هذه الزاوية الأخيرة، كون اللذة الجنسية مقتصرة على وظيفة الفرج الاستقبالية ـ السلبية مع ما يرافق ذلك من استرخاء. فإننا سنجد عندئذ أن قليلاً من النساء مصابات بالبرودة الجنسية. فمصدر الاضطرابات الجنسية يكمن في الطلبات الملحة، وفي تحقيق الرغبة الجنسية عبر الإشكال الخاصة. وطموح من هذا النوع يعطل الوظيفة السوية للفرج».

وتتوصل إلى النتيجة التالية: إن الرعشة الجنسية هي صفة ذكورية، وأن قمة الشهوة ليست من صفات الأنوثة. وإذا ما انوجدت، فهي تتمحور حول البظر وليس على الفرج الذي ينحصر دوره في وظيفة الإنجاب.

المرحلة الماقبل أوديبية

ركزت برنزفيك بصورة خاصة على المرحلة الماقبل أوديبية.

عقدة الأوديب لا تقتصر فقط على التعلق بالأم أو بالأب، بل متمثلة بصورة خاصة بالحالة الثلاثية، فالمرحلة ماقبل الأوديبية، تكمن في علاقة ثنائية: التعلق بالأم من كلا الطرفين، طفل أو طفلة، قبل أن يدخل الأب في العلاقة بشكل مزاحم.

عند الطفل: المرحلة ما قبل الأوديب قصيرة المدى، فسريعاً ما يدخل في الأوديب، وتأتي بعدها عقدة الخصاء التي تحطم الأوديب.

عند الفتاة: المرحلة الماقبل أوديبية،تتحول إلى التعلق بالأم، واتخاذ الأب كمزاحم، كما هو الحال عند الفتى. ولكن اكتشافها للخصاء يدخلها في الأوديب الإيجابي. وتصبح سلبية تجاه الأب، ومنافسة للأم.

وعلى غرار فرويد: تعتبر أن الفتاة ذكر في البداية سواء في ميولها، أو في أغراضها. فهي سلبية وفعالة في آن واحد. وعندما تصل إلى المرحلة القضيبية (الإيجابية)، فالمرأة السوية لها ميل في البقاء.

فمقاومة الأوديب الأنثوي لانحلاله يدخل في حساب تكوين الأنا الأعلى الأنثوي أو الذكري.

الفتاة لها عضوان جنسيان وموضوعان (البظر والفرج- والأم والأب) ـ أما الفتى فما عليه إلا أن يغير موقفه تجاه موضوع الأم من سلبي إلى فعال. أي له عضو واحد- ولا يغير موضوعه: الأم.

حتى الثلاث سنوات، الطفل لا يميز بين الجنسين، فاهتمامه مركَّز بصورة خاصة على أعضائه الماقبل جنسية (شرجية ـ فموية ـ سمعية ـ نظرية وغيرها).

الطفولة تقع تحت تأثير عاملين متضادين: فعال وسلبي ـ قضيبي ومخصي. والمراهقة تقع تحت تأثير عاملين مرادفين: الرجولة والأنوثة.

السلبي والفعال: في بداية الطفولة: الطفل يكون سلبياً، وكل تطور يحصل في اتجاه الفعالية يكون نتيجة التماهي بالأم. وهكذا يلعب الطفل دور الأم ليس بالنسبة للآخرين فقط بل كذلك بالنسبة لها.

دور الأم في هذه المرحلة دور فعال وليس أنثوياً: على اعتبار أن الأعضاء الجنسية لم تدخل في حسابه بعد، فجميع المخلوقات تتمتع بنفس التكوينة.

البشر مقسمين إلى قسمين: قضيبي ومخصي: يكتشف الطفل الخصاء عند الفتاة، في البداية كان يتهيأ له أن الأم تتمتع بقضيب. واكتشافه في النهاية لخصاء الأم، يدخل في حسابه إمكانية حصول نفس الشيء له، فيرتد ويحطم الأوديب.

الطفل السوي يتخلى عن تعلقه بأمه، وهكذا يفلت من الخصاء. أما العصابي، لا يستطيع التخلي عن تعلقه بالأم، ويبقى خطر الخصاء يتهدده بأشكال مختلفة، فإما أن يختلق الحلول الوسط (العوارض) المرضية ـ وإما أن يقلب المعادلة لكي يسلم من الخصاء فيأخذ الأب موضع حبه، ويدخل في الأوديب السلبي.

في البداية تقول: إن الطفل سلبي تجاه الأم، ولكن في تطوره الطبيعي تنقلب هذه السلبية تدريجياً إلى فعالية تجاه الأم. هذه الفعالية مميزة أكثر وأكثر لنمو الطفل على الطفلة. التماهي هو فعالية الأم هو أول التماهيات، فسريعاً ما يكسبه ذلك نوعاً من الاستقلالية تمكِّنه في النهاية من التخلص من الأم.

وفي مقالها، تعيد ماك برنزفيك طرح فرويد لموضوع انهيار الأوديب وحله. وتكون الأنا الأعلى عند الطفل.

وكذلك بالنسبة لاكتشاف الفتاة لخصاء الأم ـ وتكوُّن أنوثتها: يتبين أن نظريتها مطابقة لنظرية فرويد، حيث إن الفتاة تصاب بخيبة أمل كبيرة، وتتحول من الأم إلى الأب لكي تعوض عن حرمانها من القضيب.

أما بالنسبة للأنوثة والرجولة: فهذه لا تتميز بشكلها السوي إلا في سن المراهقة، عندما تستيقظ الدوافع الليبيدية، وتأخذ شكل تصور إيلاج في الفرج .

هذه المرحلة تتميز بالتوهم الذي يسيطر على الطفل بأن المخلوقات مكونة مثله، وبصورة خاصة الأم؛ فهي تتمتع بقضيب مثله: الأم القضيبية: وهذه التسمية تعني الأم المتسلطة القوية، القادرة على كل شيء، والتي تملك كل الصفات القيمة.

والعادة السرية يكتشفها الطفل عن طريق عناية الأم بجسده. في هذه الفترة يتمنى من أمه أن تلامس أعضائه الجنسية. وفي فترة لاحقة تظهر عنده حشرية اللمس ومعرفة أعضاء أمه. والمشهد الأولي أن ما تصوره أو شاهده، يشكل الهوام الأساسي في العادة السرية.

وهذا الاهتمام بالعلاقات الجنسية بين الأهل، متاخم لعقدة الأوديب. ويجب أن لا ننسى أن فقدان المعرفة، بالتباين الجنسي في هذه المرحلة، يخلق هواماً حول المشهد الأولي بأن العلاقات الجنسية قائمة على شكل علاقة فموية أو شرجية أو قضيبية.

في هذه المرحلة يجهل الطفل وجود الفرج، وبالمناسبة الإيلاج. فلذلك تنحصر دوافعه الجنسية في هوام الملامسة المتبادلة.

تمنِّي الحصول على ولد، هو هوام مشترك عند الطرفين. وقبل مرحلة «اشتهاء القضيب» وذلك بالتماهي بالأم القوية.

وأما «شهوة القضيب» فلها جذور نرجسية وموضوعية، فالطفلة تتمنى أن تملك القضيب لكي تملك الأم. ولكن تتخلى عن هذا التعلق بعدما تكتشف بأن بظرها لا يحل محل القضيب وبدون قضيب لا يمكن أن تنجب.

تعتبر برنزفيك أن النشاط الجنسي عند المرأة يتعرض للكبت والقمع أكثر من الرجل، وهذا ما يدفعها إلى كبت جنسيتها ـ وعدم التباهي بها ـ . والعقدة الرئيسية التي تمثل نقطة تحول في نموها الجنسي، هو اكتشاف الخصاء عند الأم، الشيء الذي يولِّد عندها كراهية مضاعفة نحوها إضافة إلى أنها خلقتها من دون قضيب مما يدفعها إلى التوجه نحو الأب.

هناك العديد من النساء لم يتم نموهن الأوديبي بعد، ويبقين متعلقات بالأم بشكل مرضي، ويصعب عليهن الاختلاط، أو معاشرة الرجال.

وتتكلم عن الأوديب السلبي عند الطفل فتقول: بأن الطفل قد يتعلق بالأب بشكل سلبي على غرار تعلق الفتاة بأبيها، لكي تتلقى منه القضيب كتعويض. وقد يكمن سبب هذه النواة السلبية في عوامل تكوينية. ولكن بصورة خاصة يلعب العامل النفسي الدور الأساسي. وهو عدم قدرة الطفل على تقبل خصاء الأم. أو أنه يتماهى بالأم المخصية، وينتظر بشكل سلبي ومثلي استقبال القضيب من الأب.

أخيراً الشيء المميز عند فرويد: هو أن الرغبة في الحصول على ولد تسبق شهوة القضيب، وهذه على علاقة بوضعية الأم المتسلطة: أما اشتهاء القضيب فله جذور موضوعية مرتبطة بتعلق الفتاة بالأم.

نظريات المحللين المغايرة لنظرية فرويد حول جنسية الامرأة

لعب العامل الجغرافي دوراً في تكوين النظريات. فأصبح هناك مدرسة ڤيينا التي يترأسها فرويد، ومدرسة لندن الانكليزية التي يترأسها جونس وميلاني كلاين. وباعتقاد جونس أن الواقع الجغرافي، واختلاف اللغة ساهما في عدم الاتصال بين المدرستين. إضافة إلى قلة الاجتماعات المشتركة. مما حدا بكل طرف أن يعمل لوحده دون المشاركة في البحث للوصول إلى مفهوم مشترك.

الواقع أن الخلاف يتعدى عامل الجغرافيا واللغة، لكي يطال المحلل في موقعه الفكري، ومن المستوى الذي وصل إليه في تذليل المقاومة الداخلية. فموضوع الخصاء ليس بالموضوع الجانبي، إنه محور يدور حوله التحليل، ويمثل العقدة الرئيسية قي بنية الذات. وهو، كما يقول فرويد، الصخرة التي تتحطم عليها الأمواج دون أن تزحزحها. ومقاله الذي كتبه في آخر حياته «تحليل منتهٍ وتحليل غير منتهٍ» ـ أتى تعبيراً عن الصراع الدائر في الاوساط التحليلية حول مقاومة المحلل التي تشكل العقبة الرئيسية في سير التحليل، وتتحكم في التنظير الذي يصبح أشبه بوسيلة دفاعية كان يمكن أن تتبدد لو طالها التحليل الذاتي. وهذه المقاومة عانى منها فرويد في صراع عنيف مع المحلّلين في تمرير نظريته حول الجنسية الأنثوية. ويتبين أن عقدة الخصاء هي الصخرة الكامنة وراء هذه المقاومة.

ونكتفي هنا بتلخيص نظريات ثلاثة محللين اشتهروا بمواقفهم المتميزة والمغايرة للنظرية الأنثوية لفرويد:

1- كارين هورني (Karen Horney)، 1932 ـ الخوف من الامرأة

تبدأ كارين هورني في الحديث عن الخوف الأسطوري المتحكِّم بالرجل تجاه الامرأة منذ نشوء الإنسان. وهذا الخوف يأخذ تعابير أسطورية متعددة: الساحرة، العجوز الشمطاء، بنات البحر، إلخ. أو في رموز الماء والبحر، وهي ترفض التفسير الذي أعطاه فرويد حول خوف الرجل من البكارة (تلبية لرغبات لاواعية (لاشعورية) في إخصاء الرجل). تقول إن لهذا الخوف مصدراً أعمق وأبعد.

مصدره الأم، لأنها في فترة من الفترات تكون موضوع رغباته العدوانية وذلك في مرحلة الطفولة الأولى. وتتمكن الأم من السيطرة عليه بحكم تأديبه ومعاقبته مما يولد عنده إحباطاً. والطفل يدرك بحداثته، أمام امتلاك ذكره بأن للأم عضواً استقبالياً مهيأ لذلك ومتمماً له. (هذا الإدراك ينمو شعورياً أو لاشعورياً).

لكن نظراً لصغره ولضآلته، يشعر بالدونية والعجز أمام الأم، وأنه غير قادر على النفاذ إليها. فأمام هذا العجز بالقصر، تنتابه رغبات عدوانية عنيفة للثأر منها، في نفس الوقت الذي نفذ فيه إسقاط عدوانيته على الأم وعلى فرجها ينتابه على أثر ذلك الخوف. وهكذا يسحب الليبيدو عن الفرج، يستعيد النرجسية القضيبية، ويكبت بالمناسبة معرفته لوجود هذا الفرج. أي كبت معرفته بالفرج ناجمة عن خوفه منه.

ولكي يعوض عن فشله أمام الأم ويبدد مخاوفه، ويستعين بحلول متعددة منها:

إما أن يجعل من الموضوع مثالاً لا يستطيع بلوغه، وإما أن ينزِّله إلى الحضيض، ويقلِّل من أهميته؛ وإما أن ينصرف إلى تجميع عدد ممكن من النساء، أو يبتعد عن لمس الامرأة (كما يحصل في الموضوع المثلي). وإما أيضاً أن يعمم احتقاره على جنس حواء بصورة عامة.

وتنتهي هورني إلى القول: بأن تجاهل الفرج المزعوم ناتج عن خوف أمام الأم بسبب إسقاط دوافعه العدوانية والجرح النرجسي المتاخم للرغبات الأوديبية.

فالنرجسية القضيبية تحصل بشكل ثانوي كردة فعل. هذا فيما يختص بالطفل.

أما بالنسبة للامرأة: فتخصص لها كارين هورني مقالاً سنة 1932 تحت عنوان «إنكار الفرج».

في هذا المقال تحاول أن تجيب عن هذا السؤال من الزاوية الأنثوية وليس من الزاوية التقليدية المعتمدة من قبل الرجل. فهي تحاول أن تبرز بوضوح مخاوف الامرأة المرتبطة بعضوها الجنسي.

وتبدأ مقالها في دحض آراء فرويد القائلة:

1 ـ بأن على المرأة السوية أن تنقلب على ميولها الذكورية في مرحلة من مراحل نمو أنوثتها (العادة الشهرية، الجماع، الحمل، الولادة، وسن اليأس).

2 ـ السحاق عند المرأة أكثر من اللواط عند الرجل. لأن النكوص يؤدي عند الامرأة حتماً إلى الجنسية المثلية.

3 ـ الأمومة حسب فرويد، هي تعويض أو بديل، وليست تلبية لدوافعها الغريزية.

4 ـ تتميز حياة الامرأة بكاملها بالشعور بالحسرة.

كارين هورني ترفض هذه المعطيات، وتعتبر أن الطفلة أنثى منذ ولادتها، ليس كما يتصور فرويد عند البلوغ. ومقابل اشتهاء القضيب عند الفتاة يوجد رغبة الحصول على طفل عند الولد. وهذه الرغبات لا تلغي المواقف المتجانسة مع التكوين الجنسي عند الطفل تميز ما بين الرغبات المبكرة والتي تظهر من دون خجل، والرغبات من نفس النوع والتي يشملها الكتمان.

أما بالنسبة لمعرفة الفرج المبكرة، فهي تستشهد ـ على غرار روزين ميلير ـ بأطباء الأطفال، بوجود عادة سرية فرجية عند الطفل في الأشهر الأولى من الحياة؛ بالإضافة إلى هوامات ممارسة العادة السرية عند الطفلات الصغيرات وأحلامهن التي تؤكد وجود معرفة غريزية للفرج.

وعلى ضوء هذه المعطيات تفسّر البرودة الجنسية عند الامرأة بأنها ناتجة، ليس كما يعتقد فرويد، عن عدم تمكن انتقال الإثارات الجنسية من البظر إلى الفرج، بل ناتجة عن مسألة الكبت التي تطال الإثارات الفرجية.

والفتاة تتعرض لمخاوف نتيجة وجود دوافع خصائية باتجاه الأب مرتبطة بالإحباط الأوديبي، وهذه المخاوف شبيهة بما يتعرض له الفتى مع الاحتفاظ بفوارق مميزة:

ـ خشية من تفاوت الحجم ما بين قضيب الأب وعضو الطفلة، فالطفل يخشى من سخرية الأم أمام ذكره الصغير وبالمقابل تخشى الفتاة أن تدمر نتيجة الجماع الأوديبي.

ـ العادة الشهرية والولادة، وفض البكارة، والإجهاض، تؤكد المخاوف الحميمة عند الطفلة.

ـ والشيء الذي يؤكد مخاوفها هو كون أعضائها مخفية عن النظر خلافاً للطفل الذي يطمئن إلى سلامة ذكره بمشاهدته وملامسته. وهي نقطة مهمة تدعو إلى الغموض

والتستر الذي يحيط بالرغبة الأنثوية وهكذا يستخلص من نظرية كارين هورني بأن الطفلة تخشى من التعديات المدمرة التي يكون هدفها داخل جسدها.

تكبت نزواتها بالفرج، وهكذا تحوّلها إلى البظر، العضو الخارجي والظاهر، ليس إلا لأسباب دفاعية.

2) ميلاني كلاين (Mélanie Klein) التحليل النفسي للأطفال، 1932

حاولت ميلاني كلاين إزالة الغموض عن موضوع الخصاء عند الفتاة، وما يترتب على ذلك من خوف يعادله خوف الفتى من الخصاء.

وكانت قد بدأت بشرح أدائها حول هذا الموضوع في مقالها، 1928 «المراحل الأولى للنزاع الأوديبي» وهو الخوف الأساسي عند الطفلة المتعلقة بداخل جسدها.

وهي تركّز منذ البداية على الإحباط الفموي الحاصل من الأم فتتجه نحو ذكر الأب، تحاول استبداله بالثدي، عن طريق الالتهام الفموي؛ وفي نفس الوقت تتدخل الدوافع الجنسية تجاه ذكر الأب لكي تلعب دورها. فهذا التحوّل الاستثماري من ثدي الأم الممتع إلى ذكر الأب، يمثّل النواة للنزاع الأوديبي المبكر. ولكن يتبين لها أن الأم تحتفظ بذكر الأب بجوفها، وهكذا تحوّل هجماتها السادية إلى جسد الأم محاولة بذلك انتزاع الغرض المشتهى. وفي المقابل ينتابها الخوف من أن ترتد إليها هذه الهجمات السادية، وتدمّر أعضاءها الداخلية.

ميلاني كلاين تجد أن هناك تقارباً بين نظريتها ونظرية فرويد، حول موضوع الخصاء. فالفتاة ترتد على أمها بكره شديد لأنها لم تمنحها ذكراً. كذلك: الفتاة تكره الأم لنفس الأسباب، ولكن بدل أن يكون طلبها للقضيب لأسباب نرجسية، كما يقول فرويد، فهي تعتبر أن هذا الطلب يرضخ لحاجات ليبيدية.

فالأوديب لا يتكوَّن عند الفتاة بطريقة غير مباشرة، إرضاء لميول ذكروية، ولكن يتكوَّن مباشرة تحت تأثير عوامل غريزية ـ أنثوية. ويتبين أن نظريتها مطابقة لنظرية كارين هورني. إضافة إلى أن الرغبة الفموية لامتلاك قضيب الأب تصبح النموذج الذي تأسّست عليه الجنسية الفرجية لاحتواء القضيب.

وتفسِّر هذا الاتجاه، بأن القضيب موظف بقوة سحرية، يمكنه أن يلبي كل النزوات المثارة بسبب إحباط الأم للشهوة الفموية. إضافة إلى أن قضيب الأب يمكن أن يصبح موضوعاً عدوانياً حاداً بسبب الإحباط الذي يفرضه، وبالمقابل ترتد هذه

العدوانية المتوجهة إليه، ويصبح ذكر الأب خطراً وشرساً ومهدِّداً لها عن طريق الإسقاط.

اندماجية هذا العضو الذكري في الذات يكوِّن الأنا الأعلى الأبوي والسادي المقترن به مما يجعل من هذا الأنا الأعلى مرعباً.

والطفلة انطلاقاً من نزواتها الأنثوية الاستقبالية، تعمل على الاحتفاظ بقضيب الأب وإدماجه في داخلها، أي الموضوع الأوديبي. فانصياع الطفلة لأبيها المندمج في ذاتها يعزز من قوة الأنا الأعلى، الذي يزيد قسوة عما هو عند الطفل.

التناقض الوجداني للقضيب المندمج في ذاتها، يمكن أن يدفع الطفلة، ولاحقاً الامرأة إلى تعدد العلاقات الجنسية، سواء كانت واقعية أو هوامية، كي تفصل ما بين الذكر الطيب، وتحارب الذكر السيّئ المتواجد في الداخل.

العلاقة الجنسية هنا تقتصر على تبديد الخوف، ويمكن أن تكون وظيفة هذا الفعل هي عملية اختبار(*). وبسبب نزواتها السادية تخشى الطفلة من أن تتحطم، أي حسب تعبير جونس تخشى أفانيزيس (Aphanisis) الجماع يمكن أن يطمئن الامرأة سيما إذا اقترن ذلك بولادة طفل سليم وقدرتها على إرضاعه الحليب الطيب. اختيار الجنس عند المرأة يتوقف على طريقة معالجة مخاوفها الطفلية. يمكن أن تختار ذكراً طيباً لكي تهدىء من مخاوفها المناطة بجسدها. المتعة التي تحصل عليها من العلاقة الجنسية تتعدى مفهوم الإشباع الليبيدي الذي ينادي به فرويد، بل يتعدى في نفس الوقت إلى تهدئة خوفها الداخلي كي يفتح المجال أمام علاقات غرامية ثابتة وأكثر إشباعاً.

إذا كان القضيب المندمج في ذاتها سيئاً فعندئذ لا يمكن اختبار الواقع إلا عن طريق قضيب مؤذ قد يهدم إدماجاتها السيئة. وتتوصل ميلاني كلاين إلى الاستنتاج بأن المازوشية الأنثوية ما هي إلا ارتداد للسادية أي ليست ضدها، ولكن ضد المواضيع السيئة المندمجة في ذاتها. اختيار الواقع من هذا الباب يؤدي إلى نشاط جنسي قسري. ولكن إذا لم تستطع احتواء خوفها الداخلي فإن ذلك قد يؤدي بها إلى البرودة الجنسية؛ لأن مخاوفها على الأنا تصبح، إلى درجة ما، مقترنة بالقضيب الخارجي

(*) بعض النساء يرفضن العلاقات الجنسية بعد الزواج، وتبقى البكارة كما هي، لأن الإيلاج يدخل من باب الهوام المتخيل، بأن فض البكارة سيؤدي إلى تفجير الجسد، وتصبح العلاقة الجنسية مرادفة للخوف من الموت.

وعلاقته بالقضيب الداخلي المخيفين. عندئذ تتحرك في هذه المناسبة كل النزوات الهدامة.

الهجمات التي توجّهها الطفلة إلى جسد الأم تنمّي عندها شعوراً بالذنب يدفعها إلى العديد من الأفعال الإصلاحية، التي تصبح بمثابة الأرض التي تنمو عليها جذور الأنثوية المتسامية.

وهكذا تحاول أن تتوقى ردة الفعل الانتقامية عندما تخشى ارتداد ساديتها الموجهة إلى الأم إليها، ولا تملك كما هو الحال عند الطفل الذكر، البرهان للتأكد من بطلان مخاوفها. فعضوها الجنسي غير مرئي، لأن الفرج المكبوت لحساب البظر، تستثمره كل المخاوف المناطة بالجسد.

كل الطفلات لهن معرفة لاواعية (لاشعورية) مبكرة بالفرج. وهكذا يتجه الاستثمار نحو البظر العضو الظاهر، وتسقط عليه كل الهوامات الأنثوية المرتبطة بالعادة السرية معبرة بذلك عن رغبتها في إدماج ذكر الأب.

تتوصل ميلاني كلاين إلى الاستنتاج بأن عقدة الخصاء عند الطفلة، واشتهاء القضيب يتوقفان على سببين رئيسيين:

1 ـ رغبة الفتاة بامتلاك عضو جنسي يرضخ لاختبار الواقع.

2 ـ عدم الإشباع الناتج عن رغبتها في إدماج ذكر الأب، يجبرها على أن تقوم بعملية تماهي بالأب القضيبي السادي، أي تستعمله كسلاح حتى تتمكن من تهديم الأم التي ولّدت عندها الاحباط نتيجة انتزاع الثدي منها واحتفاظها بذكر الأب. هذه الفترة المتاخمة للتبول اللاإرادي (إغرائها، وإفساد جسد الأم بمساهمة الذكر السادي). هذا المنحى يشكل الميل السادي لجنسيتها المثلية؛ ولكن بالمقابل قد يكون التماهي الأبوي هو الوسيلة التي تمكّنها من إصلاح الضرر اللاحق بالأم، عن طريق الذكر الذي سلبته الأم. هذه المواقف يمكن أن تؤثر بشكل نهائي على مصير التطور الجنسي عند الطفلة.

موقف الطفلة من هذه المواضيع، ووظيفة عضوها الجنسي السلبي (الاستقبالي) والأهمية الكبرى لنزواتها الفموية، تعطي للأنا الأعلى المندمج في ذاتها دوراً مرجّحاً يعزّزه غياب القضيب الفعال، المصلح ويجعلها أكثر التزاماً بهذه الأنا الأعلى. فالطفل يستثمر قضيبه بقدرة نرجسية هائلة. والطفلة بالمقابل بذكر الأب المندمج في ذاتها.

تواجه الطفلة موانع أكثر من الطفل في تكوين أناها الأعلى نتيجة تماهيها بالأم، لأن هذا التماهي يتم بصعوبة إذا اقتصر فقط على التشابه التشريحي.

فالأعضاء الداخلية لا تخضع للإمتحان والإختبار الواقعي. يجب أن لا يغيب عن الذهن بأن علاقة الطفلة بالأب وبالأنا الأعلى مرتهنة بعلاقتها الأولية بالأم (صورة الأم).

خلاصة: أوديب الفتاة مبكر، يتكوّن في المرحلة الأولى الفموية نتيجة النقلة الحاصلة من ثدي الأم إلى قضيب الأب. فمخاوفها التي تحيطها داخل جسدها تدفعها إلى الهروب من الأنوثة (في اشتهاء القضيب).

اشتهاء القضيب هو في النهاية عملية ثانوية، يسبقها موقف أنوثي استقبالي يمهد له، في البداية الوظيفة الاستقبالية للفم. وبعدها الفرج. وهذه أولية.

الأنا الأعلى عند الطفلة أقسى من الأنا الأعلى عند الطفل.

3- إرنست جونس (Ernest Jones)

نظرية جونس في الأنوثة

التطور المبكر للأنوثة، 1927

يبدأ جونس حديثه بالتعرّض إلى المنطق الذي انطلق منه المحلّلون لكي يقدّموا نظريتهم عن الأنوثة. فهذه النظرية تخضع للشك والالتباس كونها اعتمدت على حكم مسبق على الأنوثة: سواء أتت من قبل محللين أو محللات، ففي كلتا الحالتين: اعتمد القضيب في مفهومه النظري كزاوية ينظر من خلالها إلى الأنوثة، مما يضيع على هذه الأخيرة فرصة استقلالها، وحدودها وواقعيتها ويحيطها بوشاح من الغموض.

انطلاقاً من هذا الواقع يطرح جونس سؤالين:

الأول: ما هو العامل المماثل للخوف من الخصاء عند المرأة؟

والثاني: ما الذي يميِّز تكوين الامرأة السحاقية عن الامرأة السوية؟

ويحاول الإجابة عن هذين السؤالين معتمداً من ناحية على بعض الحالات العادية، ومن ناحية أخرى على استنتاجه النظري.

يحاول جونس إيجاد صيغة تعمِّم، سواء على الذكر أو الأنثى، بما يخص الخوف من الخصاء. على اعتبار أننا لا يمكن حصره في النشاط الجنسي، انطلاقاً مما ورد عند فرويد الذي ركّز تهديد الخصاء على القضيب فقط دون غيره. والدليل على ذلك:

إن هناك بعض الحالات التي يستغني فيها عن استعمال القضيب دون أن يطال ذلك النشاط الجنسي. وهكذا فالتهديد بالخصاء ليس إلا تهديداً جزئياً لا يطال الطاقة الجنسية بأكملها(*).

وللمناسبة يستنبط جونس كلمة[1] «Aphanisis»، يونانية الأصل، لكي يشمل القدرة الكاملة المعتمدة من قبل الإنسان في نشاطه الجنسي والعاطفي. أي بمعنى، زوال الرغبة الجنسية. يعلق لاكان على هذا التحديد «يتجاهل جونس في المناسبة الخصاء الرمزي المرتبط بالرغبة نفسها، فهذه الرغبة إن لم تتحدد بما هو محرّم عليها، يطالها التهديد من خلال قدرتها على الاستمرار، وذلك بمجرد أن تصبح في حل من المحرمات. فمن هذا التحريم، أي النقصان، تتكون وتتحدد وتنطلق في آن واحد».

(Aphanasis - Abandon total - Disparition) فهذا الزوال: يهدد الطفل عن طريق الخصاء، ويجد ما يعادله في أفكار الموت، والرغبة في الموت. وانطلاقاً من هذا التعميم: يكتشف جونس التقارب المشترك ما بين المرأة والرجل، اعتباراً منه أن الخوف من زوال الرغبة (Aphanisis)، هو شيء مشترك ما بين الاثنين دون الأخذ بعين الاعتبار الفارق بين الجنسين.

أما كيف يتكوّن هذا الخوف: فالأمر يختلف ما بين الرجل والامرأة. فالرجل يقول لنفسه: أريد أن أحصل على لذة بتحقيق فعل معين، ولكن أخاف من جراء ذلك أن أعاقب عليه بالخصاء، وهذا ما يعني بالنسبة لي انتزاع اللذة الجنسية باستمرار أي (Aphanisis).

كذلك عند المرأة تريد الحصول على إشباع عن طريق خبرة معينة، ولكنها لا تجرؤ أن تتخذ بعض الترتيبات لتنفيذها، فتكون قد حققت الاعتراف برغبة مذنبة، لأنها تخشى أن يتبع ذلك زوال رغبتها (Aphanisis).

جونس يؤكد منذ البداية أهمية العامل البيولوجي، معتبراً أنه المحور الذي يعزز المفهوم البسيكولوجي. وعلى هذا الأساس، يعتبر أن الأنثى ملتزمة أكثر من الرجل،

(*) مثلاً في بعض الأديان يقتضي الالتزام الكهنوتي أن يمتنع الرجال والنساء على تعاطي الجنس، ومع ذلك نراهم مهددين بالخصاء مثل غيرهم. إذن الخوف من الخصاء، يستنتج جونس، لا يمكن أن يقتصر على الوظيفة الجنسية للقضيب.

(1) أي زوال الرغبة.

بقرينها؛ فاكتفاؤها الجنسي يصبح مقترناً بموافقته ورضاه على أخلاقيتها. أما الرجل فنجد عنده استقلالية لا نجدها عند الامرأة. ولا يوازي الامرأة إلا إذا انوجد تحت سلطة رئيس له (موقف أنثوي بين رئيس ومرؤوس).

وهكذا يتوصل جونس إلى الاستنتاجات التالية: الرجل يخاف منذ البداية من الخصاء كخطر يهدد استقلاليته وحريته الجنسية.

والامرأة تخاف Aphanisis أي هجرة الآخر لها، أي قرينها، مصدر اكتفائها الجنسي.

والرأي السائد في الأخلاق العامة، أن الامرأة تتساوى مع الرجل في الإذعان للمثل الأخلاقية، ولكنها لا تتساوى معه في الواجبات.

هذا الخوف من أن تُهجر يلاحق الامرأة فترة طويلة من حياتها، ومصدره في البداية: الخوف من أن تُهجر من قبل الأم التي تصبح منافسة لها، أو الخوف من أن تهجر من قبل الأب فيحرمها من الوعد في الإشباع.

ويتوصل إلى الاستنتاج بأن الحرمان (Privation) يوازي في مفهومه الاحباط (Frustration) على اعتبار (اعتماداً على فرويد) أن زوال عقدة أوديب لا يتم عند الامرأة إلا على أثر خيبة أملها المستمرة، التي تؤدي إلى الإقرار بنقصها.

فالأنا الأعلى ليس إلا وليد شعور بالذنب الذي يتفرع في حد ذاته من الخوف من الخصاء.

ويزيد في استنتاجه أن الأنا الأعلى، والشعور بالذنب المرتبط بها، يتواجدان بهدف حماية الطفل من ضغط الحرمان لكي يبعد عنه رعب زوال الرغبة الذي يرافقه دائماً. وهكذا يقمع الرغبات غير المهيأة للإشباع، وعدم الإشباع يرتبط بالخطر من الرغبة الممنوعة فيسقطها على العالم الخارجي، ليجعل منها خط دفاع بشكل إنكار يحتمي به كي لا يتعرض لخطر الاعتراف.

يعود جونس فيما بعد كي يتكلم عن النشوء الجنسي عند الفتاة: فيضع في المقارنة على المحك نظرية فرويد التي تقول: إن الفتاة تنتقل بالتدرج من المرحلة الفموية إلى المرحلة القضيبية: الثدي أولاً ثم الإصبع وأخيراً البظر ـ أي مقارنة بما هو عند الذكر، تسقط أوهامها كي تفتش في الخارج ما يعوض عما هو ناقص عندها.

أما نظريته: انطلاقاً من خبرته وخبرة ميلاني كلاين (دون تحديد هذه الخبرة) يقول

بأن الانتقال يكون مباشراً: إما نحو البظر وإما نحو(Fellatio)(*) أي الفم[1]؛ ويوضح فكرته بشكل يستدعي التساؤل لما يكتنفها من غموض: فيقول إن الانتقال من المرحلة الفموية إلى المرحلة الشرجية، يتم بشكل تسلسلي بحيث إن هاتين الفتحتين التابعتين للجهاز الهضمي تصبحان فيما يبدو عضوي الاستقبال الأنثوي.

وينتقل إلى القول من دون إثبات: إن الشرج يصبح البديل للفرج، والانتقال من الأول إلى الثاني يتم في مرحلة مبكرة يكتنفها الغموض. وإن المرحلة الشرجية تتميز بارتباطها بهوام سادي: (أي الاغتصاب الشرجي الذي يتحول فيما بعد إلى هوام الضرب). بمعنى أن الفتاة تدخل الأوديب من هذا الباب عن طريق التسوية ما بين النزاعات الليبيدية والنزعة الاقتصادية.

ولذا يقول جونس: تنتقل الفتاة من مرحلة الفم ـ الشرج ـ الفرج عن طريق التماهي بالأم. ويتبين لنا أنه يُطلق هذه المعطيات دون أن يكشف لنا التسلسل المنطقي الذي مكّنه من فرضها. فهي معطيات تقبل أو ترد أن التساؤل حولها يبقى دون إجابة.

ويرى أن شهوة القضيب تتمثل بموقفين: إما قبل الأوديب أو بعده. وهو يرجح الثانية حسب خبرته العيادية ـ حتى العادة السرية والنشاطات الشبقية تأخذ أهميتها من الاستثمارات الشبقية المرتبطة بالغير.

وهكذا فالفتاة يجب أن تختار ما بين الموضوع، وما بين أنوثتها. (أي ما بين الأب وما بين فرجها). فلكي تحصل على أنوثتها يتوجب عليها التضحية بالأب، وإن احتفظت بهذا الأخير فيجب أن تضحي بفرجها؛ ومن هنا تنشأ عندها عقدة القضيب التي تلازمها دائماً بقدر ما يستمر تشبثها بأبيها. ولا يحصل ذلك إلا بالتماهي بالأب.

ويعمّم جونس هذه العملية على الذكر والأنثى: فعلى الذكر أن يختار ما بين موضوعه، وبين غرضه: رجولته وأمه ـ (أي قضيبه أو أمه). وهكذا يحصل أن زوال الرغبة أتى نتيجة حرمان لا مهرب منه:

يرضخ كلا الجنسين له ويحدد خيارهم: ما بين الرغبة الجنسية وما بين المحرم. خيار الأخير يؤدي إلى زوال الرغبة.

(*) Fellatio: ممارسة الجنس عن طريق الفم بدلاً عن الفرج.

(1) أي الحصول على القضيب عن طريق الفم.

وعلى ضوء هذا الاختبار يبني جونس نظريته حول نشوء الدوافع الجنسية المثلية عند الامرأة.

وحسب أرجحية الخيار يتقيم اهتمامها بالجنس الآخر (الرجال)؛ فهي تتأرجح ما بين التخلي عن موقف الليبيدو الغرضية المتمثلة بالأب أو التخلي عن الليبيدو المتجردة (أي الجنس). وهكذا يبدو أن التحوّل نحو الدوافع الجنسية السوية أو الدوافع الجنسية المثلية ما هو إلا عملية درجات، يصنّف اثنين منها[1]:

1 ـ هناك صنف من النساء يحافظ على اهتمامه بالرجال والتعامل معهم على أساس المساواة. ويمثل الشريحة من النساء اللواتي تطالبن بحقوق المرأة.

2 ـ وقسم يحافظ على اهتمام بسيط، أو يتخلى عن هذا الإهتمام تجاه الرجال ولكن القسم الأكبر من الليبيدو يتحوّل نحو النساء.

وهكذا يستخلص أن القسم الأول من النساء يتخلّى عن جنسه.

أما القسم الثاني فيتخلّى عن الأب، بعد أن يستبدلنه بأنفسهن عن طريق التماهي.

ويستطرد جونس فيقول إذا ما أمعنا النظر فإن التماهي بالأب هو عملية مشتركة في كل الحالات السحاقية. وهذا التماهي لا يتصدر مسرح الأنا إلا على حساب الرغبات الأنثوية. وهي تكون في حد ذاتها إنكاراً تاماً بدافع الاحتماء لكل ما يمكن تصوره من الاحتماء في رغبات أنثوية محرمة.

وهكذا يتوصل إلى القول بأن المرحلة القضيبية التي توصَّل إليها فرويد ليست إلا تفسيراً للمرحلة الأخيرة من التطور. لأنه يتهيأ له بأن المرحلة القضيبية عند الفتيات ليست إلا شكلاً مصغراً لما هو التماهي بالأب. فهذه المرحلة القضيبية خلافاً لما يقول فرويد أولية إنما هي في صميم طبيعتها ثانوية ودفاعية. وهذا ما سيأتي على توضيحه لاحقاً.

يرى فرويد أن خلفيات هذا التماهي تتمثل: بتشبث ولعي في المرحلة الفموية والسادية. فالفتاة التي تتحول إلى سحاقية، نراها تستبدل على التوالي القضيب باللسان، وحتى التشبث بالثدي هو أحد الدواعي الجنسية المثلية لكي تصبح الامرأة موضوع الليبيدو.

يستخلص جونس بأن العاملين المذكورين: (الفموية والسادية) يطابقان الحالتين

---

(1) E.Jones: Œuvres complètes, Payot, p.406.

السحاقيتين المذكورتين سابقاً: إذا مالت الدفة باتجاه الشبق الفموي صبت الشهوة باتجاه الثاني: (أي الاهتمام بالامرأة). وإذا اتجهت نحو السادية فتتجه نحو الأول (أي الاهتمام بالرجل على حساب أنوثتها).

على كل حال فالفتاة تقيم العديد من الحواجز ضد أنوثتها خوفاً من زوال الرغبة سيما التماهي بالقضيب. وهذا مما يدعم الموقف أن كثيراً من الرجال (خاصة الأب) يتصدون بشدة للرغبات الجنسية المثلية. وهذا مما حدا بالفتاة إلى الاعتقاد بأن الرجال يكرهون الأنوثة.

في الخلاصة يميّز جونس ما بين الخصاء وما بين زوال الرغبة ـ الأول يعني تهديد القضيب، بينما الثاني يهدد بزوال الجنس أي الرغبة.

فالفم، والشرج والفرج، يمثّلون، على صعيد المتخيل، معادلات للعضو الأنثوي. فالكبت للرغبات المحرمة، يولد حالة نكوص تعود بالشهوة القضيبية إلى مرحلة ماقبل القضيب؛ وهكذا فشهوة القضيب تتولد من ردة فعل. والتماهي بالأب إنكار لدوافع أنوثتها.

ويتوصّل إلى اليقين التالي: بأن مرحلة القضيب عند فرويد هي في الواقع مرحلة ثانوية دفاعية، ومرحلية، بدلاً من أن تكون أولوية مؤسسة للذات أو أصلية.

المرحلة القضيبية، 1933

يميز جونس مرحلتين بالنسبة للمرحلة القضيبية، الأولى: التي طرحها فرويد ـ أي Proto-phallique حيث إن الطفل على جهله، يعتبر أن كل العالم مكون على شاكلته: أي متمتع بقضيب. وهي مرحلة نرجسية.

الثانية: Deutro-phallique، عندما ينتابه القلق ويتبين له أن العالم مقسم إلى قسمين: قسم يتمتع بقضيب، وآخر محروم منه. وذلك قبل أن يصنِّف الناس صنفين: أنثى وذكر.

والمرحلة الثانية: تتميز بالعصابية، لأن الطفل ينتابه الخوف والنزاع الداخلي نتيجة إدراكه لهذه الحقيقة وهو أن: الخصاء يهدد قضيبه فتتعزز نرجسيته حول قضيبه، والفتاة يتنازعها الأمل واليأس في آن واحد.

ينطلق جونس من نظرية فحواها أنه يوجد معرفة لاواعية (لاشعورية) عند الطفل بوجود الفرج، على اعتبار أن نزعة الاختراق تظهر عنده في الطفولة الأولى قبل معرفته

البصرية بوجود الفرج. ولذا لا يمكن أن نفترض وجود القضيب ونحذف وظيفته الأساسية: الإيلاج. فتمسك الطفل بقضيبه والتوظيف النرجسي له يعودان إلى الخوف من الخصاء، وليس العكس. وهي المرحلة القضيبية التي إذا ما امتدت إلى سن الرشد تصبح مولّدة للعصاب.

وهذه المرحلة على صلة بنفر من النساء عندما يتكوّن لديهن هوام يجمع في معادلة واحدة ما بين الجماع والخصاء انطلاقاً من فكرة أنثوية مكبوتة: الجماع مع الأب.

ـ هناك احتمالان لتفسير المرحلة القضيبية:

الأول مبسّط: الطفل يعتقد أن الأم تتمتع بقضيب على شاكلته، واكتشافه لحرمانها يبدد هذه الفكرة، ويعتبر أن الأم قد خصيت. غير أن هذا الاحتمال يتجاهل الافتراض الأول الذي يربط ما بين الجماع والخصاء.

الاحتمال الثاني: للطفل معرفة مسبقة ولاواعية (لاشعورية) بوجود الفرج. فخوفه من الخصاء عن طريق الإيلاج يجعله يعزز نرجسيته بالقضيب ويفترض بإلحاح أن للأم قضيباً.

يرفض الطفل معرفة الحقيقة الواقعية وهي أن للأم عضواً أنثوياً بدلاً من المتخيل أي أن لها عضواً ذكرياً ـ لأنه في مثل هذه الحالة تصبح الدعوة إلى الإيلاج بمثابة محرم يهدد بالاخصاء. فلذلك يتمسك بالافتراض الثاني.وهذا يعني بأن معرفته بوجود الفرج سابقة لعقدة الخصاء. فلو لم يكن هناك فتحة خطرة في حال الإيلاج، لما كان هناك ضرورة للخوف من الخصاء.

كيف يمكن للطفل بأن يتوهم للأم قضيباً مثله؟ جونس يستعين بالأفكار الواردة من الخبرة الفموية، كونه يفترض معادلة رمزية ما بين الثدي والقضيب. على اعتبار امتلاك الأم للقضيب يؤمن له اكتفاءً وإشباعاً، وتغذية، أكثر من الثدي، نظراً لتفاوت الحجم. ومصدر هذا الهوام يضعه أمام احتمالين:

الأول: اما المشهد الأولي وتدخّل الأب بقضيبه.

الثاني: وإما قبل إدراكه لقضيب الأب، أي عندما يدخل في مرحلة العادة السرية التي تتكون على غرار رضاعة الثدي، يدخل القضيب عندئذ من باب التماهي.

ويرجح جونس الاحتمال الثاني.

أما فيما يختص بالموقف الأنثوي للطفل فإن جونس يؤكد بأن الطفل يمر في

مرحلة سلبية هي "أنوثة الرضاعة"، وتوظيف معرفته اللاواعية بالشرج الشيء الذي يجعله يتشبث بالأم قبل أن يكتشف قضيب الأب، وتظهر عندئذ نزعة الإيلاج.

يتوصل جونس إلى الاستنتاجات الآتية: إن المرحلة القضيبية هي في الأغلب حل وسط عصابي بدلاً من أن تكون تطوراً طبيعياً. كما ذكر فرويد.

المرحلة القضيبية هي إذن جزء من العصاب الطفولي. والسؤال كيف يمكن أن نقي الأطفال هذه العقدة؟

الإجابة تقع على عاتق المحللين النفسيين المختصين بالأطفال.

يتساءل جونس من أين أتى قضيب الأم؟ يجيب بأنه تركيب اصطناعي يلبي رغبات الطفل الفموية المذكورة آنفاً. ولكنه في الواقع هو قضيب، رغم أنه يمكن القول في معنى آخر بأنه قضيب الابن لأن النزاع مع الأب يهدد الاثنين بالخصاء.

ثم يضيف أن وجود القضيب عند الأم يطمئن الطفل بالنسبة لرغباته الفموية البدائية، فهو يشكل إنكاراً لأية نزوة سادية خطرة يمكن أن يواجهها من جراء حرمانه منها، وبالمناسبة إطمئناناً بأن الخصاء لم يحصل: إذاً لا هو ولا والده يمكنهما أن يواجها هذا الخطر.

ويؤكد جونس أن المرحلة القضيبية الناتجة عن Deutro-phallique هي مرحلة زمنية مؤقتة وعابرة، وهي بمثابة حاجز عصاب يعترض النمو الطبيعي للطفل؛ وعقدة أوديب تجد حلها بالعودة إلى المرحلة الأولى Proto-phallique التي تعتبر بأنها مرحلة طبيعية مهمة يتابع نموه على أساسها(*).

(*) تعليق لاكان: من هذا المنطلق: هناك احتمالين: الاحتمال الأول: إما أن الطفل له معرفة مسبقة بالفارق الجنسي ـ وهنا نتساءل من أين أتت هذه المعرفة؟ لأن جونس يعتبر أن هناك معرفة لاواعية(لاشعورية) لهذا الموضوع. وإذا كان هذا صحيحاً فما الداعي لكبتها؟ علماً أن الطفل لا يعلم حتى الآن الدواعي لمثل هذا الكبت. وما دامت هذه المعرفة موجودة عنده فلماذا الخوف من الخصاء علماً أن الله خلق البشر على أساس أنثى وذكر؟ ولماذا التركيز على القضيب إذا زال الخطر الذي يتهدده، طالما أن هناك نزوات فموية تؤكد له التجربة حرمانه منها؛ يمكن أن تتهدده أكثر بكثير؟ وهو على كل حال لا يستبعد أن يكون التهديد الفموي بالحرمان، أو حرمانه، وراء هذه التركيبة إذا اعتبرنا أن علاقته بالقضيب أصبحت متممة، وتركيبة متخيلة للعقدة الأساسية والمركزية: عقدة الحرمان الفموي.
وأما الاحتمال الثاني: وهو عدم معرفته، (وهذا ما يستدعي هذه المعرفة) ـ والتي لا بد أن تحصل، فعندئذ يأخذ موقفاً متأرجحاً حيث «يستجد احتمال خسران هذا القضيب ونستطيع أن نقول أنه يمكن أن يخسر شيئاً لا قيمة له: فلا داعي عندئذ للخوف. وأما أن نعتبر القضيب باستثمار موظف نرجسي قوي يفوق كل الاعضاء: عندئذ يصبح احتمال فقدانه مصدراً لخوف شديد Angoisse de castration.

الحياة الجنسية الأنثوية

جونس يضع كذلك احتمالين مختلفين:

أ ـ الاحتمال الأول وهو ما يسميه (أ): الجنسية عند الفتاة تكون في بداية الأمر ذكورية كما ورد عند فرويد.

ب ـ الاحتمال الثاني (ب): وهو عكس الأول، تكون منذ البداية أنثوية محضة ـ ولكن فشل ب ـ الإحتمال الثاني (ب): أي فشل هذا المسلك الأنثوي، لسبب من الأسباب، يؤدي بها إلى اعتماد موقف قضيبي ذكوري. أي اعتماد الموقف القضيبي الذكوري ما هو إلّا عملية ثانوية ناجمة عن فشل الموقف الأنثوي الطبيعي.

يطرح ارتباط تمني الفتاة لاحتواء القضيب وكرهها العميق للأم.

و هنا نرى جونس ينتقد نظرية فرويد: فيقول بأن المرحلة الثانية في النمو (Deutro-phallique) ما هي إلا تكوينة ثانوية، عصابية، دفاعية.

كذلك بالنسبة للعادة السرية البظرية، يزيل عنها الصفة القضيبية لأن ممارستها ليست مطابقة على الصعيد النفسي. سيما أن العادة السرية البظرية عند الفتاة الراشدة يرافقها هوام جماع جنسي طبيعي. وهذا ما يدحض نظرية فرويد.

ويعتمد جونس على أن كثيراً من الهوامات المتوافرة في تحليل الكبار والصغار تشير إلى التجويفات الداخلية في الجسد: الفم ـ الرحم ـ المهبل ـ الشرج، إلخ. مما يدل على أن هناك معرفة لاواعية (لاشعورية) للتجويفة الفرجية. كذلك هو الحال بالنسبة للطفل الصغير ـ أما بالنسبة للفتاة ينطلق جونس من عملية الفطام التي تولّد عندها حقداً تجاه الأم، ونتيجة لهذا الفطام تحصل النقلة من الثدي إلى القضيب على اعتبار أنه أكثر إشباعاً وتعويضاً ونظراً إلى أن الأب لا يحتل مكانة قوية عند الفتاة في هذه المرحلة، لذا تنقل الفتاة رغبة إشباعها إلى الأم وتحمّلها قضيباً وهمياً. إن هذا القضيب حسب جونس ناجم عن إحباط فموي بيولوجي يعد بعطاء أكثر من الثدي. ولكن من أين أتت فكرة القضيب؟

في مرحلة لاحقة تتأكد عندها هذه الفكرة الوهمية، ويتحول هذا القضيب إلى قضيب من الأب، اقتنته الأم عن طريق الفم (Fellatio). امتصاص القضيب من دون هدف، بعدما كان للحصول على الحليب أو المني).

علاقة الفتاة بجنسيتها منذ البداية هي علاقة استقبالية Allo érotique ـ أما هذه المعطيات المثيرة لنظرية جونس فجعلت لاكان يطرح السؤال الآتي لكي يبرز التناقض فيقول «من هذه المحتويات الموجودة في بطن الأم لماذا يختار الطفل القضيب لكي يجعله موضوع رغبته الأصلية؟ فهنا كما يبدو عند المحللين، تجاهل لأفضلية القضيب واستئثاره على باقي الأعضاء. وهذا ما يفاجىء به الطفل عندما يلتقي برغبة الآخر، لأن رغبة هذا الآخر هي التي كانت وراء اختياره وتحديد موضوع رغبته".

ويمكن أن نعتبر هذا الآخر الكبير المحذوف من تحليلاتهم هو الذي أدى إلى هذا الالتباس في التنظير.

يلتقي رأي جونس وميلاني كلاين في المعادلة قضيب = طفل ـ وهذه الفكرة تتمحور حول شهوة بدائية تدخل في إطار عملية الإستقبال. أي تستقبل القضيب من الفم لكي تجعل منه طفلاً لها.

ففعالية القضيب تتجسد عند الطفل بازدواجية كوسيلة للحصول على الحب، ووسيلة تجسدها بآلة مدمرة كي تعبر عن حقدها وانتقامها من أمها، نتيجة المعاكسات والإحباط الحاصل. فهذه السادية تولِّد عندها بالمقابل خوفاً معادلاً.

يتولَّد عند الطفلة شعور بالقرف، والاشمئزاز والحقد على القضيب، وتعتبره آلة هدامة تنوي تحطيمها وانتزاعها. وبالمقابل، ينتج شعور بالخوف الشديد من جراء إدخاله، يهددها في الداخل، وعندما يتبين لها أن الأب هو حامل القضيب تحوِّل إليه نقمتها وحقدها الذي كانت توجهه سابقاً إلى الأم.

يستعرض جونس الاحتمال الأول(أ) (أنوثة قضيبية) الذي يطابق نظرية فرويد ويشرح كيف تتحول الفتاة من المرحلة القضيبية بعد أن يتبين لها الفارق وبأن قضيبها وهمي، إلى المرحلة العلاقية مع الآخر Allo-érotique، وتدخل في صلب المرحلة الأوديبية في علاقة محرمة. هذا الاحتمال يعتبره ناقصاً ولا يلم بكل جوانب الموضوع. ويقول إن الاحتمال الثاني(ب) (أنوثة طبيعية) هو الإجابة على هذا النقص.

الفتاة منذ البداية ترغب في القضيب على صعيد علاقة مع الآخر Allo-érotique، ولكنها ترتد إلى علاقة شبقية مع ذاتها، «Auto-érotique» على غرار الفتى، احتماء من المخاطر الناجمة من الرغبات المحرمة مع الآخر (Allo-érotique). وتعتمد الفتاة هذا الاتجاه لأن الأنوثة التي ترغب في تحقيقها يرافقها شعور بالخطر، وخوف لا يحتمل.

يحصد هذا الاحتمال صراع ما بين الأم والفتاة كون الأب لا يزال مستثنى. في هذا الصراع تخاف الفتاة من أنوثتها نظراً لما يمكن أن يتولَّد عندها من مخاطر من جراء استقبال القضيب وما يمكن أن يهددها من أثر إيلاجه في جسدها، لأن عدوانيتها موجهة في اتجاهه منذ أن تأكد حرمانها منه.

الاحتمال الأول (أ) والثاني (ب) يؤكدان على دور الإحباط الصادر من الأم، ولكن الخلاف يأتي من تقييم هذا الإحباط وتأثيره على الصعيد الجنسي والنفسي.

يلخص جونس محور الموضوع حول المقارنة ما بين الصبي والفتاة ـ في المرحلة الثانية (Deutro-phallique) ـ يقول: نجد عند كلا الطرفين غياب الشبقية ـ العلائقية، وتوجهاً إلى الشبقية الذاتية، إضافة إلى قرف واشمئزاز من الفرج، يقابل ذلك تركيز نرجسي على القضيب. ويجيب جونس أن لهذه الظاهرة أسبابها، هناك طرحان: الأول، حصول هذه الظاهرة يبين الفارق الجنسي وما ينتج من رفضه. الثاني، هناك خوف من الفرج نتيجة الهوام المتكون سابقاً حول العلاقة الجنسية بين الأب والأم. والخوف يتحرك عند رؤية العضو الجنسي المقابل.

انطلاقاً من هذين الطرحين: تتفرع الأجوبة وأبحاث المحللين. وهو يؤكد على النظرية المكتشفة من قبل المحللين والتي تدور حول الهوام البدائي القائل: باقتناء الأم في جوفها لقضيب الأب. (ميلاني كلاين). انطلاقاً من هذا الهوام ينتاب الخوف كلا الجنسين من (الشبقية ـ العلائقية) التي تهدد قضيب الطفل وفرج الطفلة ورحمها؛ وتتحول بالمناسبة اهتمامات الطرفين من الجماع وعملية الإيلاج، لكي تتركز على المظهر الخارجي للجسد.

الخوف إذاً واحد عند الجنسين: هو خوف من الإيلاج عند الصبي، تهديد بالخصاء من الأب ـ وخوف من الإيلاج عند الطفلة، خوف من التشويه من قبل الأم.

وهنا يبدو التناقض واضح مع فرويد: عندما يعتبر المرحلة القضيبية عند الطفل المتمحورة حول (Proto-phallique)، والتي تركز على الشبقية الذاتية، بأنها مغايرة تماماً للمعرفة (الشبقية العلائقية) التي تسبق ذلك في السنة الأولى من نموه. وكذلك بالنسبة إلى الفتاة، هنالك معرفة لاواعية (لاشعورية) بوجود الفرج وما يتعلق بذلك من معرفة «شبقية ـ علائقية»، يكون هدفها استقبال القضيب.

وبالمقارنة يعتبر جونس أن المرحلة «الشبقية ـ العلاقية»، أي العلاقة الجنسية مع الآخر، هي بمثابة المميزة للمرحلة الأولى، والتي تتحول، تحت تأثير المرحلة الثانية (Deutro-phallique) إلى شبقية - ذاتية مثلية تحل محل الأولى. وهكذا يتوصل إلى الاستنتاج أن هذه المرحلة الأخيرة التي يعتبرها فرويد مؤسسة لكل ما يتطور في النمو الجنسي، ليست في الواقع إلا حلاً وسطاً، أو تسوية ما بين الخوف والليبيدو؛ أي بين النزوات الليبيدية السوية وبين الخوف من التشويه. ويعتبرها مخالفة للتطور الطبيعي الذي يعتنقه فرويد وأتباعه، ويقول إنه تصح تسمية هذا التحول بالانحراف القضيبي.

إذاً الخوف الكامن وراء هذا التحول ناتج عن الإسقاطات العدوانية على كلا الزوجين ـ الأب والأم ـ والسادية والجنسية المتفرعة من السادية الفموية التي تم شرحها سابقاً .

وهذه المرحلة Deutro - phallique هي انحراف يهدف إلى انقاذ الإشباعات الليبيدية بانتظار الفرصة التي يستطيع الطفل بها تخطي خطر هذا التشويه، والعودة إلى التطور السوي، أي الشبقية ـ العلائقية. لذلك، يؤكد بأن هذا التطور هو انحراف محض حالة دفاعية.

الجنسية الأنثوية البدائية (1935)

يقول في هذا المقال مستشهداً بأبحاثه السابقة، داحضاً للمقولة الفرويدية التي تنادي بالمرحلة القضيبية كمرحلة مؤسسة لكل التطورات الجنسية، سواء بالنسبة للفتاة أو الفتى: إن الأنوثة، خلافاً لما يعتقد، متواجدة منذ البداية، وإن المرحلة ليست إلا مرحلة «دفاعية» عصابية تجاه الخوف من الخطر الكامن في الأنوثة .

إنه يعتمد في البرهان على نظريته تلك بأبحاث ميلاني كلاين، وبالنظرية القائلة بوجود إزدواجية جنسية عند الطفل أو الطفلة منذ البداية؛ معتمداً بذلك على البراهين البيولوجية.

فالسؤال الأول والبديهي الذي يطرح نفسه: ما هو سر هذا التعلق الشديد بالأم؟ وهل هو نتيجة للموقف القضيبي والتشبث بالبظر كما يقول فرويد؟

إن هذا المنطلق يعقّد تحليل النمو الجنسي سيما لدى الطفلة عندما تضطر إلى تغيير موضوع جنسها وموضوع حبها.

إنطلاقاً من هذه الاكتشافات التحليلية للأطفال، يعتمد جونس النظرية القائلة بأن للطفلة جنسية أنثوية أكثر منها قضيبية، وهي تتجسد في رغبتها الاستقبالية، وبالاحتفاظ على ما تجمع من أشياء؛ اهتمامها مركَّز على داخلها أكثر من خارجها.

إن علاقة الطفلة مع الأم تتميز منذ البداية بالإحباط الناجم عن إحجام الثدي. وهكذا يخلق عندها الهوام المبكر، باستبدال القضيب بالثدي، على اعتبار أنه أكثر إشباعاً. ومصدر هذا القضيب هو من ضمن محتويات الأم التي استحصلتها من الأب نتيجة الجماع الفموي.

يدخل الأب في العلاقة بشكل أقوى ابتداء من آخر السنة الأولى، وتدخل الفتاة في علاقة أوديبية ابتداء من السنة الثانية. فالسادية تجاه الأم تأخذ مظاهر متعددة: فموية ـ بولية ـ شرجية.

نتيجة لذلك، يتولد عندها خوف. ولكن نظراً لتكوينها لا تستطيع درء هذا الخوف كما هو الحال عند الطفل عبر القضيب (آلة هدامة) ودفاعية، لأن بظرها دون هذا المستوى؛ هذا بالإضافة إلى أن الطفل يعبِّر عن ساديته في تنافسه مع الأب. أما هي فتركِّز ساديتها على الأم التي تمثل بالنسبة لها عنصراً غذائياً لا غنى عنه. إذا ما تحطم هذا الموضوع يرتد عليها بضرر لا يحتمل لما يولِّد عندها من خوف داخلي.

إذاً، العلاقة الفموية، تشكل بالنسبة للطفلة المرحلة الأولى للتطور الجنسي الأنثوي. ودعماً لذلك، يستشهد ببعض أطباء الأطفال والمحللين بأن الإحساسات الفرجية تبدأ منذ فترة الرضاعة.

ولكن الخوف الذي يكمن وراء اكتشاف الفرج هو أقوى من أن يجعله مدركاً لذلك، يبقى مكبوتاً إلى فترة العادة الشهرية.

أما فيما يخص استبدال الفرج بالقضيب، يقول جونس: إن ذلك يعود في الدرجة الأولى إلى السادية الموجهة إلى الأم؛ وهي سادية تهدف إلى فتح الطريق إلى جوف الأم لالتهام قضيب الأب. هذه المرحلة هي المرحلة الماقبل الأوديبية، ولكنها تدخل في صلب تلك المرحلة؛ وهذا ما يرتد عليها بخوف على جسدها بأن تعامل بالمثل.

فتمسكها بالقضيب يعود بالدرجة الأولى إلى تفريغ ساديتها عبر تدفق البول. وهي عملية اقتصادية توفر عليها دمار القضيب لأنها تقتصر على نشر البول، خلافاً للطفل الذي يلهو بقضيبه ويبول فلا يخشى تدميره.

ولهذا السبب يبدو أن للقضيب الوهمي وظيفة مزدوجة: فهو من ناحية حبي ومغذٍ، ومن ناحية ثانية مؤذ ومدمر. سادي تستعمله لمواجهة الأم والحصول منها على ما تريد على غرار الأب؛ إضافة إلى العديد من الهوامات المعقدة والمرتبطة بتوهمها السادي سواء للأب أو للأم.

لكن الوظيفة الأساسية تكمن في رغبتها السيطرة على ساديتها وإبطال الخوف الداخلي الناجم عن ذلك. إذاً القضيب هو دفاعي، أكثر مما هو نمو طبيعي. إن الجواب على المقولة الفرويدية، هو أن أمنيتها في القضيب موجودة: ولكن في استقباله، في إدماجه والحصول عليه عن طريق الفم أو الفرج، أما كبتها لأنوثتها فناتج عن ساديتها تجاه الأم. إن ميلها إلى استقبال القضيب يؤدي بالضرورة إلى تكوُّن هوام الحصول على طفل، نتيجة تحوُّل هذا القضيب في داخلها.

يتطرأ جونس إلى علاقة الفتاة بالأب فيقول: إن الشعور بالذنب والخوف الذي كان موجّهاً إليها نتيجة استئصال ذكرها بطريقة سادية، ينتقل إلى الأب، وكذلك تشعر بأنها ابتلعت ذكر الأب، وبالمناسبة أحدثت جرحاً عنده. هكذا يحدث عندها خوف كبير نتيجة احتواء هذا الذكر المؤذي في جوفها.

أما فيما يختص بالمرحلة القضيبية، فإنه لا يؤمن بوجودها، ويعتبرها عابرة؛ ممكن أن تتبدد وتعود الفتاة إلى النمو الأنثوي السوي. وهو بهذه التسمية، يناقض المدرسة النمساوية غير المنطقية.

ويصح القول بتسميته «بوضع قضيبي» عوضاً عن مرحلة قضيبية، لأنه ينتج عن موقف عاطفي، ولا يمثِّل مرحلة في نمو الليبيدو. فهناك عوامل معينة أوجدته، يستمر باستمرارها، ويتقهقر ويمّحي إذا زالت العوامل التي كانت سبباً في تكوينه.

هذا الوضع القضيبي يظهر في المرحلة الثانية (Deutro-phallique) كوسيلة دفاعية كما أتى الشرح سابقاً، وهي تزول وتنتهي كما يزول الخوف الذي يتكوَّن عند الطفل بشكل عام وهو في الأساس هوام دفاعي ومرحلي.

هذا الهوام يشبِّهه جونس بالهلوسة التي تحصل عند الحرمان من الحاجة الملحة، والتي تتبدد بمجرد أن تقوى الأنا ويدخل الواقع بشكل حقيقي فتتقبله. وبالمناسبة تتحول ساديتها التي كانت موجهة إلى الأم، إلى الأشخاص المحيطين بها. وهي بدلاً

من أن تكبت هذه السادية، تعبِّر عنها بشكل صريح نحو الأم نفسها؛ وبدلاً من أن يكون موضوع حبها جزئياً، يصبح كلياً فيمكنها حينئذ توطيد علاقة جامعة مع الأب أو الأخ.

الخلاف مع فرويد يتلخص، بأن العقدة الأوديبية تسبق الإحباط الفموي الصادر من الأم. ونتيجة لعدم قدرة الأنا على تخطي هذا الخوف الناتج، تتخلى الطفلة عن المواجهة وتحتمي بالمرحلة القضيبية، حتى تقوى وتعود إلى أنوثتها السوية. لأنه خلافاً لفرويد الذي يقول إن الأنوثة تتكوَّن عن طريق معرفتها للفارق الجنسي، فهي على العكس متواجدة قبلاً بحكم تكوينها الغريزي.

السؤال هو إذا كانت الامرأة خلقت امرأة أم أنها تصبح امرأة. إن الجواب على ذلك يستشهد به من حكم القدامى، من أفلاطون عندما قال: في البداية خلقهم ذكراً وأنثى.

و لكن السؤال الذي لم يطرحه جونس هو: إذا كان الأهل يعرفون أن طفلهم ذكر أو أنثى عن طريق تسمية ظهور الفارق الجنسي: هل بالمقابل يعرف الطفل ذلك دون معرفته باللغة؟ واذا كان لا يعرف فلا بد أن يستمد معرفته لتحديد جنسه من معرفة الآخر وهي ليست بالضرورة مطابقة للمعرفة التشريحية. هذا ما يؤكده لاكان ان الالتباس الذي وقع به جونس هو جهله لموقع الآخر الكبير الذي يحدد أولوية الفالوس.

الخاتمة

يتبين لنا من خلال هذا الاستعراض لتكوُّن الأنوثة أن التباين وارد عند معظم المحللين ـ وحتى فرويد يعترف بقصر نظريته ـ وأن الموضوع أعمق مما يمكن أن يطاله التحليل النفسي بكل جوانبه. فلا تزال هناك نقاط يحيطها الغموض ولا يطالها التحليل إلا من خلال الترميز، لأن واقعها لا يدركه الاستحضار الوجداني، فهي تبقى في حكم المخيلة، غير قابلة لأن تطابق واقعاً مرئياً ونهائياً.

وهذا ما دعا بعض المنظرين بوصف الأنوثة بـ: Mascarade، أي مجموعة أقنعة تعبِّر عنها، كلما سقط قناع ظهر آخر حتى القناع الأخير في مفهومه الجمالي يغطي حقيقة الموت. الجمال هو الخط الفاصل ما بين الواقعي والموت. وهنالك نقطتان يجب التوقف عندهما، لأنهما تمثِّلان المفترق الأساسي لما يميز المرأة عن الرجل:

أولاً: الإنجاب. فارتباط الوليد بالأم، هو ارتباط عضوي لا مجال للشك به، أي أنه واقع يربط الجنين مباشرة بالمصدر الذي أخرجه إلى هذه الحياة. ولا يتحمل أي شك. وهذه العلاقة الاندماجية ترمز إلى أسمى ما يمكن أن تعطيه الامرأة عن سر كينونيتها، لا يقبل أي تصور بيولوجي أو سيكولوجي نهائي. ولكن انفصال المولود عنها يضع حداً لهذه النرجسية، لأن الصورة المتكاملة التي كانت تكوّنها تصبح ناقصة بمجرد خروج هذا المولود إلى العالم، وكي تتمحور العلاقة بين الطرفين حول هذا النقصان المشترك سواء من دواعي رغبة الأم لاستعادته إلى أحشائها، وحنين الثاني إلى هذا المكان الذي تركه بحكم القوانين الطبيعية.

والإنجاب عند الامرأة له قيمة رمزية عميقة الآفاق تتفاخر بها على الرجل. ويظهر ذلك من خلال الأساطير والدراسات الأنتروبولوجية في بعض الشعوب البدائية أن الرجل تنتابه الغيرة إلى درجة أنه يحاكي الامرأة أوجاع المخاض كي يتهيأ له أنه ساهم في الإنجاب.

وإذا كانت علاقة الابن بانتمائه العضوي إلى الأم لا تقبل الشك، فالموضوع يختلف بارتباط الابن بالأب، فلا شيء يثبته سوى شهادة الأم (أي قولها)، مما حدا بجاك لاكان إلى تسمية هذه العلاقة بمجازية أبوية (Métaphore paternelle)[<]، كونها تحافظ على سرها وتبقى مبهمة وغامضة وموضع تساؤل عن ماهية الأب، أي كون هذه التسمية والارتباط بها غير مطابقين لأي براهين بيولوجية[*]. إن العامل الوحيد والدليل على هذا الارتباط هو رغبة الأم به واعترافها بدوره .

ثانياً: التكوين التشريحي للأعضاء الجنسية التناسلية عند المرأة، فبما أنها مخفية عن النظر، خلافاً لما هو عند الرجل، جعلت الناظر المجرد من أي معرفة لها سواء صاحبتها أو غيرها، يتخيل ويتصور، يخدع وينخدع حسب التركيبة الهوامية ودون أن يصل إلى حقيقة الأمر. لأن ما هو ظاهر عند الرجل يأخذ أولية مطلقة، تخدع الطفل والطفلة عن حقيقة وضعها بالنسبة لهذا التباين.

وإذا كان الإفتتان المبكر الذي يظهر عند الفتاة يأخذ منحى أنثوياً مميزاً فيما بعد، فيعود بدرجة أولى إلى شعورها بنقصها وأن الآخر لا يعطي اهتمامه لها وتقويم نرجسيتها إلا بقدر ما تجعل من هذا النقصان مطلباً يتعمم على كل جزء من جسدها يشير إليه، وعلى شخصيتها بكاملها. فكل عملية الإفتان تتمحور حول قدرة الامرأة بجذب الرجل إليها، عبر إمكانية نجاحها في إعطاء أكبر قيمة ممكنة لما هو نقصان عندها، سواء كان ذلك بإخفائه أو بالتلميح إليه ـ فكشف أي جزء من محاسنها لا يأخذ معنى الإغراء إلا بقدر ما يلمح إلى هذا النقصان.

وهذه القوة الجاذبية بين الطرفين لا تصبح فعالة إلا بقدر اعتراف الطرفين الضمني

(*) يتأرجح الإنسان دائماً في تفكيره بين الشك واليقين. فالشك باتجاه الأب ولا شيء يثبته سوى اسمه ودوره الرمزي. أما اليقين فهو باتجاه الأم، لأن العامل البيولوجي لا يحتمل الشك.
بعد التطور العلمي بدا أنه أصبح بالإمكان إثبات الهوية للأب. ورغم أن الأبحاث محصورة في بعض الحالات القضائية، إلا أنها تفتح المجال أمام سابقة لم يشهدها التاريخ وقد يكون لها آثار اجتماعية ونفسية متعددة. رغم ذلك يبقى الثابت في الموضوع هو اسم الأب ودوره الرمزي، بغض النظر عن هوية الأب البيولوجي. في الحمل الطبي المفتعل، لا يؤخذ بعين الاعتبار إلا الأب الرمزي الذي أعطى اسمه للمولود المختلق، وما يدعو إلى القلق هو تضاؤل حجم الأب ودوره في التأثير على الطفل، مما أحدث تغييراً في المعطيات العيادية: من اهمها ظهور ما يسمى بالحالة الحدودية: أي على مفترق طرق ما بين العصاب والانحراف والذهان . ظاهرة مرضية تبدو مرتبطة بافول دور الاب.

بالتباين الجنسي بينهما (فمثلاً هذه القوة الجاذبية تفقد فعاليتها عند اللوطيين والسحاقيين). والمرأة تعرف بأن نقصانها هو ثروتها وموضوع رغبة الرجل، فلذلك تحاول أن تستمد أكبر قوة منه ممكنة عبر مظاهرها الجذابة والفاتنة التي تكشف مظهر أنوثتها دون أن تكشف سرها.

وإذا قلنا إن الله خلقهم أنثى وذكراً ـ فهذه معرفة في ذات الخالق ـ ولكن هل يعني ذلك بأن الإنسان منذ ولادته يدرك هذه المعرفة؟

مما لا شك فيه أنه يخلق مع تراث غرائزي شأنه شأن أي حيوان. ولكنه ينفصل عنه في مرحلة لاحقة حيث إن الحيوان يبقى ملزماً بغريزته الطبيعية، أما الإنسان فينفصل عن المسيرة الطبيعية، ليتبع الارتقاء الحضاري الثقافي غير الطبيعي (Lévi-Strauss - Nature et culture). فالحيوان عندما يبلغ مرحلة النضوج الجنسي يكتشف التباين الجنسي عند أمثاله من نفس الفصيلة، عن طريق حاسة الشم أو النظر: وهي معرفة غرائزية تتملك بالحيوان ولا يتملك بها. أما بالنسبة للإنسان فهذه المعرفة، وإن كانت حقيقة بيولوجية، إلا أنها لا تصبح معرفة بالنسبة له إلا بعد نضوج وتطور نفسيين؛ أي خلافاً للحيوان حيث تقتصر المعرفة الغريزية على استمرار الجنس. تحصل عند الإنسان معرفة إدراكية لهذه المعرفة الغريزية، تمكّنه من التملك بها والتحكم بها حسب تطوره الحضاري، وهو كلما ارتقى في هذا الاتجاه كلما تطلب منه جهداً إضافياً في كبت غرائزه ولجمها وتحويلها عن الإشباع المباشر أو حتى عن أهدافها، كي يستثمرها في ميادين تساهم في التقدم العلمي والثقافي.

ويتبين لنا أن مرحلة الكمود التي تأتي مباشرة بعد المرحلة القضيبية ـ الأوديبية ـ هي مرحلة انتقالية نشوئية خاصة بالإنسان فقط. فالحيوان (Mammifère) يرافق الإنسان في نموه الجنسي حتى المرحلة القضيبية وبعدها يكتمل نضوجه. أما الإنسان فيصاب بكف في المرحلة الأوديبية التي تلي الأولى، حيث يصاب بالكمود ويؤجل كل نشاطه الجنسي حتى بلوغه سن المراهقة. ففي خلال هذه الفترة تخمد عنده كل النزوات الجنسية التي كانت تثيره في الفترة ماقبل الأوديبية.

ويظهر من هذا التباين في النشوء الانتروبولوجي أن الإنسان عندما يصاب بحالة الكف المميزة بالعقدة الخصائية تتكون عنده فجوة نفسية يستحيل ردمها، إنها استحالة لأي علاقة جنسية يمكن أن تستعيد ما هو نقصان أساسي. وهذا ما حدا بلاكان إلى

القول بأنه لا يوجد علاقات جنسية Il n'y a pas de rapprot sexuel. فهذه الفجوة Béance، هي بمثابة النقصان الأحادي (1 ـ) أو (∅ ـ)(*) من حيث يبدأ العد الارتقائي للتطور الحضاري.

وهذا المد الحضاري المعتمد أساساً على البنية البطريركية (أي الأبوية) وصل باستنتاجاته العقلانية إلى إفرازات تقنية حديثة لا بد أن يكون لها الأثر العميق في تغيرات البنية الاجتماعية التي كانت سائدة حتى الآن، والتي على أساسها قوَّمنا العديد من الاكتشافات النفسية.

وسأقول على سبيل المثال: ليس الوصول إلى القمر هو الحدث، بالرغم من أهميته ـ فأثر ذلك يبقى محدوداً في إطاره التقني ـ ولكن ما يثير التساؤل هو التقدم التقني الحاضر فيما يخص الإنجاب الاصطناعي وتأثيره على علاقة المولود بالأم أو بالأب.

فهناك ثلاثة احتمالات وكل منها يطرح سؤالاً على حدة:

الاحتمال الأول: الزوج عقيم والزوجة خصبة: فيزرع في رحمها من صلب رجل آخر حسب اختيارها ـ أي تستثني علاقة الحب في الولادة.

الاحتمال الثاني: الزوج خصب والزوجة عاقر. فيزرع من صلب الزوج «مني» في رحم إمرأة تتبرع لمثل هذه المهنة مقابل حفنة من المال؛ وينتظر إلى حين بلوغ الجنين مرحلة الولادة، فيستعيده الأب ويضعه في حضن زوجته بدلاً من أمه البيولوجية.

والاحتمال الثالث: هو طفل الأنبوب: أي أنه يجمع بويضة امرأة ومني رجل مجهولين في أنبوب تتهيأ به كل الشروط البيوكيميائية التي تؤمن تكوُّن الجنين واستمرار الحياة حتى يصل إلى مرحلة الفصل.

فكل هذه التطورات التقنية لا بد أن تنعكس بشكل من الأشكال على البنية الذاتية للإنسان الغربي. وهنالك العديد من الأسئلة التي تطرح نفسها. فمثلاً ما علاقة الأب الشرعي بالأب البيولوجي وكذلك بالنسبة للأم؟ وما هو دور الباحث والقائم على مهمة الحمل الاصطناعي؟ أي في هوامه والتي تجعله يوجِّه اكتشافه في هذا الاتجاه. فإذا حقق رغبة فهل هذه الرغبة مطابقة لمفهومه لذاته، وهل بإمكانه تحمِّل نتائجها

(*) (1-) تشير إلى الهوية العددية - كنقطة انطلاق- أي يبدأ من نقصان لوجوده. و∅ ـ وهو ما يمثل عقدة الخصاء. على اعتبار أن الخصاء الرمزي يطال المتخيل لكي يلغي الفالوس الذي كان يتماهى به كي يتمم نقصان أمه.

وحصرها فيما بعد. كل هذه الأسئلة التي يمكن أن تطرح، لا يسهل الجواب عليها نظراً لأنه لم يتسن للباحثين ولعلماء النفس البعد الزمني الكافي لكي يقوِّموا نتائجها.

إضافة إلى تفتت البنية البطريركية للأب، بعدما سمح في بعض البلدان الغربية، للطفل غير الشرعي، أن يصبح شرعياً ـ أي بدون زواج ـ وأن يحمل إسم الأم إذا لم يتسن له اعتراف الأب به، أو حتى له الخيار في أن يحمل اسم الأم أو اسم الأب.

إن التطور النوعي سواء كان على الصعيد التقني أم على الصعيد الاجتماعي لا بد أن يترك بصماته في تغييرات نفس ـ اجتماعية.

فإذا كان التطور الحضاري قد أخذ منحى مغايراً للطبيعة، فالبادىء هو أوديب(*) عندما اعترضه السفينكس لكي يطرح عليه لغزاً: فإما يحله وتنفتح عليه آفاق المعرفة والحقيقة وإلا فإنه سيهلك.

وهكذا عندما أجاب بأن الحيوان الذي يبدأ حياته بالمشي على أربعة أطراف، ثم على اثنين ثم على ثلاثة، هو الإنسان. لم يكن يعرف بأنه قد خط طريق الإنسانية في الاتجاه المغاير للطبيعة، وبأنه قد حدد موعده مع القدر على غير علم منه.

(*) أنظر: أسطورة «أوديب الملك» حيث إن أوديب قبل أن يخلق كان القدر قد حدد مصيره.

المصطلحات اللاكانية

أب: ركَّز لاكان بعد فرويد على دور الأب في تأسيس بنية الذات، رغم أنه ألغى سيمينيره المخصص لهذا الموضوع، إلا أنه تكلم في مناسبات عديدة بصيغة اسم الأب كمجاز محوري يشير إلى انتقال السلطة من الأم إلى الأب واعتبره دال 1 يتماهى به الطفل ويصبح الحجر الأساسي لبنيته.

الأب الرمزي:

بنظر فرويد ولاكان هذا القانون الأولي الذي حل على الأبناء بعد جريمة قتل الأب. فحرَّموا في مماته كل ما كانوا يتمنّون الحصول عليه في حياته. وعلى رأس هذه هّو التحريم الأساسي للأم.

الأب الرمزي إذاً هو القانون أو الأب المقتول (الميت). لا يمكن لأحد أن يحل مكانه إلا في حالات الأنظمة الديكتاتورية، حيث يصبح الحاكم هو القانون والقانون "هو" ويشرِّع القوانين على هواه. الأب الرمزي يشير إلى الفراغ أي إلى النقصان، أي عمل يملأ الفراغ يحيي الشعور بالذنب المرتبط بقتل الأب.

الأب المخيالي:

هي الصورة التي يكوِّنها الطفل عن أبيه بمعزل عن شخصيته الواقعية. وهذه الصورة تستمد تكوينها من الهوامات اللاواعية سواء كانت في اتجاه التقديس للأب أو في اتجاه إذلال الأب وتحقيره. على أساسها تترتب مسالك الطفل في علاقاته الاجتماعية . وفي هذا الأب المتخيل يكمن التهديد في الخصاء أو في الموت، أو في الالتهام. الأب المتخيل يحمل في طياته كل هذه الصفات التي تعود إلى الأب البدائي. مما لا شك ان تصرفات الأب الواقعي ومكانته الاجتماعية قد تساهم في هذا الاتجاه أو في التخفيف من وطأة تأثيره. أهم إفرازاته العيادية هي الأب المثالي.

الأب المثالي:

حدده صفوان بالآتي:

- من الناحية البنيوية: هو من صنع الحقل المخيالي رغم احتوائه عنصراً رمزياً بما يخص التحريم.

تقاس أهميته وتأثيره: بالمسافة التي تبعد الأب المخيالي عن الأب الواقعي.

- من موقعه ومكانته:

1- هو أب ميت: نجد هذه الصفة في طيات المتخيل على اعتبار أنه صنم نعبده لوجوده ولعدم قدرته على التحرك.

ميت أيضاً: نتيجة حسم الصراع والمنازعة التي سبقت ظهورها.

2- هو أعمى: تجاه حقيقة الرغبة، لا يريد أن يعرف شيئاً عنها.

3- مجرد من الرغبات الجنسية: مما يحمي الشخص من تأثير هوام المشهد الجنسي الأولي الذي يلغيه.

4- تتجسد به سلطة الأنا الأعلى: يصبح الشخص تحت رحمة الممنوعات المفروضة عليه من الخارج. لأن الأب المثالي يتجاهل الرغبة "لا يعرف".

الأب الواقعي:

يقول مصطفى صفوان: في الأساس بعيداً عن التحكم الوحيد لقانون الجماع الشائع، يتبين أن تكاثر البشر يخضع بالدرجة الأولى إلى قوانين القرابة. على رغم اختلاف المجتمعات البشرية، إلا أنها تبقى مشاركة بصفة واحدة وشاملة وهي ما يختص بتحريم الأم. قبل أن تصبح رباطاً مفصلاً أو حتى موضوعاً للتذكير. يبقى هذا التحريم للأم مرتهنا باسم الأب. وتأخذ هذه الوظيفة أهميتها بقدر ما تعطي الأم وزناً للأب. في خطابها الموجه إلى الطفل. تظهر هذه الحالة الفريدة بوضوح عندما يتبين بأن القانون يستمر مرتبطا باسم الأب كدال بغض النظر عن وجوده جسدياً. هذا لا يمنع بأن الرجل الذي يحمل هذا الاسم يدعم نفوذه بالقدر الذي يسمع به كلامه للأم.

عندئذ يجد الطفل نفسه ملزماً بدين، من خلال علاقته بالأب الواقعي، يحمل في فحواه الخصاء الرمزي. فبنظر لاكان تكمن وظيفة الأب الواقعي في كونه عميل الخصاء (Agent de la castration).

إشارة signe:

خلافاً لما يعرِّف لاكان الدال، فالإشارة تتميز عن المفهوم الألسني: فهي بنظر لاكان ما يمثِّل الشيء بالنسبة إلى الذات - عندما نقول: لا يوجد دخان من دون نار - أي الدخان هو اشارة عن وجود النار بالنسبة للناظر أي الشخص. بالنسبة لسوسير Saussure الإشارة تتكون من مفهوم يجمع ما بين الدال والمدلول.

دال = الدال أي الشجرة. أي فكرة الشجرة هي فكرة واقعية تشير
مدلول إلى مادية وجودها . أما كلمة شجرة فهي المدلول كونه واقعاً نفسياً لتصور هذه الشجرة، بمجرد أن ينطلق الصوت اللفظي: المكوّن من ش.ج.ر.ة . فالكل يشكل وحدة تسمى إشارة.

أنا Moi:

تشير إلى الهوية التي لا يمكن أن تأخذ معناها إلا عن طريق نفي الآخر، على اعتبار أنه غير الأنا. اعتبرها فرويد الأنا المحاور الأساسي مع الآخر ومع الواقع الخارجي.

في مرحلة لاحقة (مقدمة في النرجسية) اعتبرها سلطة مضللة عندما تؤججها المشاعر الملتهبة. لاكان حسم الموضوع بين الموقفين:

اعتبر الانا في بنيتها الأساسية مخيالية انطلاقاً من مرحلة المرآة، وهي مضللة إذا سلبت الصورة المرئية الإنسان عن ذاته. وهنا ليس ببعيد عن الموقف الفرويدي الثاني، ولكنه أكثر حسماً.

أنا مثالي: Moi idéal

نجد اختلاطاً والتباساً عند فرويد في التوضيح ما بين الأنا المثالي ومثال الأنا والأنا الأعلى .

بالنسبة للاكان الأمور أكثر وضوحاً: فالأنا المثالي هي حالة مثالية يريد الإنسان أن يتوصل إليها، تشعره بالإكتفاء التام ويحظى بها على محبة الآخرين، بالشكل الذي يتمنى أن ينظر اليه.

هذا التصور للحالة المثالية يدخل في إطار العمل الخيالي المبني على النرجسية. ويتبين في العيادة إذا ما تتطور لا يتحقق إلا على حساب إلغاء الآخرين.

مثال الانا: Idéal du moi

وصل الأنا في مثال أعلى، يضعه الإنسان نصب عينيه، لا يتوخى إلا الاقتراب منه والوصول اليه، او تحقيقه.

وهذا المثال رمزي قد يأخذ أشكالاً مختلفة: دينية، فكرية، مهنية، أخلاقية، الخ، أي موضوعها أيديولوجي. إذا ابتعد عنه المثال يشعر بضغط شديد وبدونية محبطة، وإذا اقترب منه كثيراً تفقد الحياة قيمتها. هذا التجاذب يستمر مدى الحياة دون أن يبلغ حده الأقصى، إلا إذا بلغت التضحية في سبيله الحياة نفسها.

ضياعه يؤدي إلى حالات اكتئابية، عندئذ قد يتحول إلى أنا أعلى يلاحق ويضطهد.

انعدام Forclusion:

مفهوم استعان به لاكان لكي يميِّز العمليات النفسية المؤسسة للذهان psychose. والكلمة تأتي من عدم: تشير إلى غياب أي مؤشر أو مرجع يشير إلى وجود مسبق للشيء. المعروف أن كل المجتمعات الإنسانية تنبني على مجموعة من المعتقدات السابقة والتي تشكل البنية الأساسية للتراتب الرمزي (صفوان). في صدارة هذا الموروث الثقافي يحتل الجهاز العائلي وتنظيم العلاقات المكانة الاولى . وهذا الجهاز يتمحور حول اسم الأب على اعتبار أنه ينظم قوانين الزواج وتسلسل النسب انطلاقاً من المحرم الأول (أي الأم). فانعدام اسم الأب المميز للذهان يفقد الذات مرجعيتها في تحديد هويتها وفي ترتيب الجهاز الرمزي الذي يفقدها القدرة على التعامل مع الواقع (le réel). ويشير لاكان بالمناسبة، إلى أن هذا الأخير إذا لم يحصل على الترميز من الجهاز الداخلي يرتد من الخارج بشكل هذياني، ويفقد ارتباطه بالواقع النفسي الداخلي- فيظهر غريبا عن الذات، إما بشكل ملاحقة أو اضطهاد أو رؤية الواقع الخارجي بشكل هذياني أو هلوسي.

هذا الانعدام لاسم الأب يأتي نتيجة لعاملين:

إما بإلغاء إرادي من الأم كي تتملك بمولودها وتخضعه لقانونها الخاص (نزواتها)، ولا شيء يؤثر عليها.

وإما لأن الأب قد غاب كلياً عن اسماع صوته وقوله حتى لو كان موجوداً جسدياً، فيفقد اسم الأب حينئذ فعاليته، وإما لتشبهه بشكل كاريكاتور تتجسد به القدرة والسلطة كما لو كان هو مصدر القانون وصاحبه.

في كل هذه الحالات تنعدم فعالية اسم الأب وتفقد الذات محور نظامها الرمزي. ويخلق فجوة في الحقل الرمزي تهدد الذات بالفناء إذا ما اقتربت منها فيتدخل الهذيان لملئها، بالنسبة لفرويد الهذيان كناية عن محاولة علاجية لردم هذه الهوة.

إحباط: Frustration

هو تعبير عن الانزعاج الشديد الذي يطال الحالة النفسية عندما لا تحصل الذات على الموضوع الذي يؤدي إلى اكتفائها، رغم الإلحاح أو الجهد المبذول للحصول عليه.

مثلاً الطالب الذي يبذل جهداً كبيراً للنجاح في الأمتحان، فيحصل على الفشل. يقال أصيب بإحباط شديد. أو العاشق على موعد مع عشيقته فيطول انتظاره دون ان تأتي إليه، يصاب بالاحباط. كذلك الأم عندما ترفض لطفلها موضوع طلبه، يحصل كما يقول لاكان تضرر نفسي.

هذا المفهوم يشكل إحدى الزوايا الثلاث للمثلث الذي تتمثل به الحالة النفسية بالنسبة لموضوع طلبها. وقد تناول لاكان في السيمينير "4" علاقة الإنسان بالموضوع. يتميز هذا الأخير بكونه نقصان يحاول الطفل منذ وعيه للعالم الخارجي أن يزيل النقصان عن طريق الحصول على موضوعه. إذا في الاساس، وهو حجر الزاوية، هنالك نقصان لموضوع يؤدي إلى ثلاث حالات من النقص: الإحباط، الحرمان، والخصاء.

كل حالة من هذه الحالات الثلاث لها عاملها المؤشر في عملية البناء الأولى، ولها موضوعها الذي يتميز حسب التعريف اللاكاني بنوعيات مختلفة: إما أن يكون واقعياً، وإما أن يكون مخيالياً وإما رمزياً.

الإحباط يدخل في المفهوم اللاكاني عندما تتأسس العلاقة الأولى مع الأم. فهو الممهد البدائي للأوديب، لأنه يحدد الموضوع والفاعل الذي يتحكم بتلبية الطلبات أو رفضها. الطفل يدرك موضوعه قبل الأم الملبية. فهذا الموضوع يقول لاكان بأنه واقعي (Réel). لا يدرك الأم بوظيفتها لتلقى الطلبات إلّا بعدما يتحقق شرطان: الأول حضور غياب الأم يجبره كما الحال في FOR-DA إلى ترميزها.

الشرط الثاني: بما أنها تلبي طلباته يضفي عليها السلطة بأنها قادرة على تلبية كل طلباته. أي تقصير يحصل يؤدي إلى الإحباط من منطلق مخيالي. لذلك اختزل لاكان العلاقة الأولى: بأن الإحباط هو حالة مخيالية.

موضوعها: واقعي يطال أحد مواضيع العالم المحيط به.

الفاعل: هو الأم بشكلها الرمزي: أي الأم الرمزية لأنها تتمتع بالسلطة العليا القادرة.

الآخر (الكبير): Autre

يميِّز لاكان بين الآخر الكبير والآخر الصغير عن طريق المخاطبة. ويختلف موقع الذات حسب المرسل إليه. إذا كان بمثابة الآخر الكبير أو الآخر الصغير.

يتكون الآخر الكبير في البداية عن طريق الأم، حيث توجه اليها كل الطلبات التي تؤمن له حاجاته الحياتية. وفي مرحلة لاحقة يأخذ الأب هذا المكان على اعتبار ان الطفل يدرك انه نظراً لصغره غير قادر من ان يلبي كامل نقصها. موضوع رغبتها يتعدى وجوده لكي يطال الأب على اعتبار انه يحمل القضيب الذي يتمم نقصها. هذه النقلة تؤدي إلى عملية يدرك الطفل من خلالها انه نقص موجود وأن الأب كمؤسس أول للقانون، يعطي للرغبة حق انطلاقتها الأولى.

ويحصل على غير علم منه ان هذا الآخر الكبير، حتى ولو تجسد في البداية بالأم والأب، إلا أنه لم يكن ليحصل لولا نسيج اللغة التي أعطته قدرة التعبير، وتكون منها في آن واحد.

انطلاقاً من هذه العلاقة تتكون الذات من شبكة دوالي لغوية، لكي يصبح الآخر الكبير المرسل إليه "حكماً" لكل طلب ولكل رغبة. هو المحطة التي تعطي للكلام معناه وتفك رموزه وهو كنز الدوالي Trésor du signifiant..

وهو موقع موجود في استمرار في كل مرة يتحاور طرفان.

يقول لاكان: إن بدى أن الآخر الكبير خارجي في البداية إلا أنه سريعاً ما يدخل في حوار الذات مع نفسها، لكي يصبح ذاتياً داخلياً، أو في مرحلة لاحقة مخزن الرغبات المكبوتة. أي بتعبير آخر اللاوعي وممكن أن يسمى الـ «هو».

الآخر (الصغير): autre

هو القرين الذي نتعامل معه كل يوم ويمثّل الفرد من رابطة عائلية أو اجتماعية. يدخل في بنية الذات منذ الطفولة الأولى على أساس أنه منافس وذلك حسب لاكان انطلاقاً من مرحلة المرآة التي تظهر له لأول مرة أن هذا الذي يحتل مكانه ويزيحه، هو آخر، من هنا المقولة المعروفة: بأن الأنا هي الآخر، وهو في البداية المؤسس الأول للصراع الذاتي، لأنه يدخل إلى العلاقة الاجتماعية من باب المنافسة. ولكن

إصلاح الأمور يأتي عن طريق اللغة الآخر الكبير، الذي يدخل كوسيط لكي يعطل المنافسة المميتة.

هذا الآخر الصغير يدخل في تكوين الحقل المخيالي للذات، عن طريق التماهيات التي تحصل من خلال مقارنته بالآخر القرين أو من خلال إدماجه والحلول مكانه.

انها عملية نفسية مستمرة، لأن هذا الآخر الصغير يعكس دائماً صورة للأنا تتحكم بردات الفعل عنده إن كانت حبية، كراهية أو صدامية.

الآخر الصغير (a) يدخل دائماً في تكوين الأنا.

إنكار- نفي Dénégation- VERNEINUNG

اعتماد فكرة معاكسة لما يرغب الشخص به. أي هي كناية عن وسيلة تعتمدها الأنا كي تحافظ على كبت الفكرة المعكوسة لها. يعطي فرويد مثالاً على ذلك: عندما يسرد مريض حلماً يقول بأنه ظهرت امرأة تريد اغراءه ـ ثم يزيد لا تقل لي إنها أمي ـ يجيب فرويد بالتأكيد هي أمك. اعتمد على هذا التأويل على أساس أن النفي اللاحق جاء ليؤكد الفكرة المكبوتة "تعلقه الشبقي بالأم".

تدخل هذه العملية الفكرية في إطار نسق الكبت. وينبني عليها الحكم بالنفي على اعتبار أنها آتية من الخارج ولا علاقة له بها.

وهذا الحكم ينبني على عمليتين فكريتين:

إما أن ينفي الموضوع كلياً: وتلفظه الأنا لكي يصبح خارجاً. وإما أن يطال النفي صفات الموضوع المميزة له ويدمجه بالأنا لكي يتوحد بها.

تتحقق وظيفة الإنكار بفضل العامل الرمزي الذي يتناول الموضوع ويعطيه الرمز المناسب، الشيء الذي يمكن الأنا من الاعتراف بما هو مكبوت في اللاوعي، عن طريق إخراجه المعاكس.

بورومیه- العقدة البورومية.

استعان لاكان بالرياضيات الموضعية (Topologie) لكي يعطي تصوراً للعمليات الدائرة في الحقل النفسي. واستعان بالعديد من النظريات الرياضية لكي يستخرج منها صيغاً تؤمن تعليم التحليل النفسي دون تحريف، على اعتبار أن الصياغة الكلامية يطالها الوهن من كثرة التكرار ومعرضة دائماً للتأويل المنحرف بسبب العامل الذاتي.

آخر مبتكراته: كانت العقدة البورومية التي أدخلها في دراساته سنة 1972- وهي كناية عن عقدة مؤلفة من ثلاث حلقات: منعقدة فيما بينها بشكل إن قطعت إحدى العقد تتحرر الثلاث في آن واحد. عائلة "بورومیه" الإيطالية جعلت منها شعاراً لتؤكد تحالفها مع عائلتين أخريين، وكانت تطرزها على القمصان المشتركة.

استعان لاكان بهذه العقدة لكي يبرهن نوعية الترابط ما بين الواقعي والمتخيل والرمزي. انطلاقاً من ان دخول الإنسان عالم اللغة أعطى تحقيقاً لوجوده. وهذا ما عبر عنه في كلمة "parlêtre" أي المتكلوجودي. أي الوجود مرهون بالكلام.

هذا الوجود، وهو واقعي، لا يمكن استخراجه من الكون إلى حيّز الاعتراف إلا عن طريق نوعية تشابكه مع المتخيل والرمزي.

وهذه النوعية تعطي تصورها النهائي في العقدة البورومية. فإما تكون أو لا تكون.

هدف هذا التحول والاستعانة بالأدوات الرياضية هو تسهيل مهمة التحليل، لا كما يتصور البعض نقل التحليل النفسي إلى الحقل الرياضي أو حتى الفلسفي. هذا ما ضلل العديد من المنظرين، وغيَّب عنهم العمل العيادي.

تحويل: (Transfert)

عملية نفسية تحصل في العلاج التحليلي على غير علم من المتحلِّل، تجعله يحوِّل إلى شخص المحلل صفات ومشاعر حبية أو عدوانية، تعود إلى أشخاص لعبوا دوراً مهماً في بناء تاريخه، ولكن طواها الزمن، ولم يبق منها سوى الهوامات المتكوِّنة المحصورة في اللاوعي لأن الكبت قد عزز مقاومة الوعي.

وضَّح لاكان الفرق بينه وبين المحللين الذين أخطأوا في تأويل فرويد للتحويل. في نظره التحويل لا ينطلق من المشاعر تجاه المحلل، إنما من المعرفة على اعتبار أن هذا الأخير يمثل بالنسبة للمتحلل: الشخص المفترض عارف لما يجهله من أسباب معاناته. على هذا الأساس يبدأ المتحلل بالكلام بالتعريف عن نفسه كي يلق من الآخر مزيداً من المعرفة.

في هذا المجال ينشأ من التحويل شيء لم يكن في الحسبان: أي أن المحلل يحتل من خلال تسلسل الأفكار، مكان موضوع الرغبة أي موضوع ألف ـ الذي ـ

يصبح المحرِّك الأساسي للتحويل ـ والمحلل لم يعد شخصاً عادياً إنما الشخص المميز أي الآخر الكبير الذي يحمل موضوع رغبته ويعرف أكثر منه عن هذه الرغبة التي كانت إلى حد الآن مكبوتة.

إذاً التحويل هو المسرح الذي يفسح المجال للاوعي أن يصبح فعلاً. يشير هنا لاكان أن المحلل غير معني بشخصه إنما بالخطاب الموجه إليه والمقصود به آخر.

نهاية التحليل تحصل في استئصال موضوع "أ" أي يسقط عن المحلل ـ يعود بعدها في نظر المتحلل إلى إنسان عادي، دال كبقية الدوال. موضوع "أ" هو سر بريقه ولمعانه وجاذبيته على غرار آغالما (Agalma) كما وردت في وليمة سقراط.

تحويل مقابل:

هو ما يخالج المحلل من توارد افكار من جراء سماع خطاب المتحلل، على اعتبار أن هذا الأخير موجَّه إلى لاوعيه أكثر من وعيه.

قد يشعر من جراء ذلك بمشاعر مختلفة لم تكن في حسبانه:

شعور بالمودة، بالحب، بالعطف، أو بالعداء، أو بالاشمئزاز، الخ

المهم ليس ظاهر هذه المشاعر، إنما استقراء مصادرها ليعرف ماذا في حديث المتحلل قد أثير عنده. من هنا قد يأتيه مفتاح التأويل، ويصبح على موعد مع المكبوت عند المتحلل.

المهم في الموضوع في نظر لاكان أن لا تحول هذه المشاعر المتقلبة عن تغييب رغبة المحلل في التحليل.

هدف التحليل التعليمي هو تمكين المحلل من اكتشاف وتثبيت هذه الرغبة، التي تخوِّله العمل حتى تتمكن من التغلب على كل ما هو ناجم عن التحويل المقابل، فلا يضحِّي بها من أجل نزوة جانبية، لأنها في الأساس غير معادلة لرغبة المتحلل.

تواصل: (Transitivisme) صفوان

وسيلة اجتماعية للتواصل تتميز بصفة syncrétique أي بتناقض في مفهوم العلاقات، بين الأنا والآخر، على غرار ما يحصل للطفل في سن مبكرة. مثلاً إذا سألنا طفلة لماذا ضربت تجيب لأن "الطفلة " "المضروبة" "قد ضربتني" . هنا يجب أن نميز بأن هذه الحالة لا تصنف بالإسقاط (Projection) إنما هي ناجمة عن بنية

أساسية عند كل طفل في البداية لا يفرق بين الأنا وصورة الآخر شبيهه، بشكل أنه يظهر عندما يعتدي، كأنه هو المعتدى عليه، أي هو الذي تلقى الضربة. الطفل يبدو مأخوذاً في استعراض الآخر قرينه، فيتماهى به في شكل غيرة منافسة، إما تكون غيرة محببة أو تحبب في غيرة.

كذلك يتبين ان الثاني يتماهى بالأول، حيث يتأمل نفسه بشكل مرآتي . يتحكم بهذه العلاقة ما بين الذات والذات الاخرى، انقسام أساسي جواني خاص بكل طرف.

من خلال التطور اللاحق، تتمكن الأنا من الانفراد وتمييزها عن الآخر. ولكن يتبين انه رغم النضوج، تبقى هذه البنية قابعة في أساس الأنا ولا تلغى كلياً، وهي كما يبين لاكان، تتحكم بعلاقة السيد والعبد (كما ورد عند هيغل) وتظهر في وضح النهار عندما تصبح العلاقة عشقية.

فيقول العاشق للمعشوق: أنا أنت وأنت أنا.

خصاء: أو بما يسمى عقدة الخصاء

فرويد:

يعتبر أن الطفل سواء كان ذكراً أم أنثى، يتعرض إلى التهديد بالخصاء عندما يبلغ المرحلة القضيبية. أي عندما يستقطب القضيب على كل الملذات ويحتل مكانة الأفضلية- عندئذ- ينتاب الطفل الخوف من فقدانه.

هذا الخوف من انفصال القضيب عن جسده، يتأكد عندما يدرك أن الفتاة لا تملكه، يعزز ذلك خبراته السابقة الفموية: انفصال الثدي عنه. والشرجية: انفصال الغائط عن جسده في خلال علاقته مع الأم.

التغيُّر والتهديد الحاصل يأتي هذه المرة من الأب. على اعتبار أنه المحق والمالك لجسد الأم. من المحرم إذاً أن تكون موضوع رغبة جنسية عند الأبن. يصبح الطفل عندئذ أمام خيارين: إما الاحتفاظ بموضوعه المحرم: الأم، فيتعرض للتهديد بالخصاء وفقدان قضيبه، وإما الاقلاع والامتناع عن الأم فيحفظ قضيبه، ويوجّه استعماله لامرأة أخرى في المستقبل. أي يطال وظيفة الفالوس حد في متعتها وخيارها الجنسي.

هذه العملية النفسية، رغم أنها تحمل التهديد والخوف إلا أنها تحضر الطفل إلى

طريق المخرج الثاني إلى حياة جنسية سوية، تؤمن له الاستقرار والطمأنينة في متعة محددة.

لاكان:

نقل هذه العملية على المستوى الرمزي وحددها عن طريق الموقع الذي يحتله الطفل بالنسبة لنقصان الفالوس عند الأم، ويتبين للاكان بأنه لا فرق بين الطفل الذكر او الأنثى أمام هذا الموقع الرمزي. فكلاهما يواجهان نفس المشكلة، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار ان هذا الأمر يتعدى القضيب بمفهومه التشريحي، لكي يتحول إلى الفالوس في مفهومه الرمزي.

وهذا ما يسميه بالخصاء الرمزي. أي أن الطفل لا يستطيع أن يتماهى بالفالوس لكي يتمم نقصان الأم، ويكون معها وحدة متكاملة (لا يحصل ذلك إلا في الذهان) انما يدرك ان التماهي يبقى ناقصاً، لأن رغبة الأم تتعداه لكي تؤكد أن ما يشبعها ويعوض عن نقصها، هو امتلاك الأب للقضيب (او أي رجل آخر). عملية الخصاء عند لاكان، تطال موقع الطفل الوجودي بالنسبة لعلاقته بالأم، وتفرض عليه التخلي عن التماهي الفالوسي، لكي يصبح هذا المكان بحكم الخسارة، أي نقصان لوجود، موضوع ضائع ألف يؤسس رغبته في مفهوم آخر سواء بالنسبة للفتاة أو الذكر: الإقرار بنقصان الأم بفضل تدخل الأب كعامل أساسي.

ولكن تجب الاشارة في هذه العملية، التمييز بين الفتاة والفتى:

الفتاة: تنطلق من حرمانها لكي تحتل مكانه في العلاقة مع الرجل أي الفتاة تتماهى بجسدها بالفالوس وليس بذاتها. وبالنسبة للذكر: ينطلق من امتلاكه للفالوس دون أن يحتل مكانه.

تجب الإشارة إلى خصوصية المجتمع الشرقي:

المحرمات الجنسية وبصورة خاصة المحرم الأول الأم تأتي بأمر إلهي- مما ينقل عملية الخصاء والالتزام، من حقلها التشريحي إلى الحقل الرمزي الديني.

خطاب:

حاول لاكان تحديد العلاقة الاجتماعية انطلاقاً من الموقع الذي تحتله الذات لكي تخاطب الآخر. على هذا الأساس استقر بأربعة أنواع من الخطب:

خطاب المعلم «د1»، خطاب الجامعة (الخطاب العلمي) «د2»، خطاب الهستيريا «$=/» وأي بمعنى انقسامها على ذاتها ما بين وعي ولاوعي)، وأخيراً خطاب الرغبة

"أ" 4 المتمثل في موضوعها. انطلاقاً من احتلال أي خطاب مكان الصدارة تتحدد أمكنة الخطب الثلاثة في منطق شبه دائري. أي في كل مرة ننطلق من صدارة خطاب إلى تصدر خطاب آخر، نكون قد أنجزنا ربع دائرة.

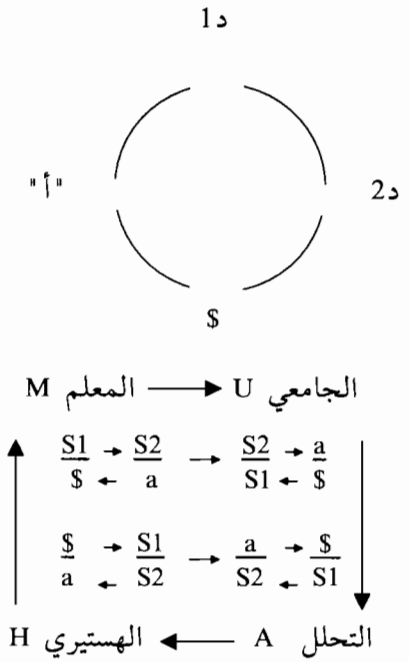

الفائدة من هذا التنسيق، هو أن المتكلم لا يستطيع أن يحدد الأنا والنتائج لكلامه إلا من خلال موقع الخطاب الذي يحتله. على سبيل المثال: عندما يتكلم الأستاذ الجامعي يحتل مكان المعلم- مكان الفيلسوف الحكيم سابقاً- يتوجه إلى الطلاب لكي يغنيهم بالمعرفة العلمية الأكاديمية. والهستيريا تتوجه إلى المحلل أو المريض أو الطبيب، لأنه بموقع السيد (المعلم) الذي يعرف ما لا تعرفه عن موضوع رغبتها، ولأن هذا السيد هو مفترض عارف. وأخيراً التحليلي الذي يضع موضوع الرغبة «أ» في أولياته ويتوجه إلى الهستيريا ليتساءل معها. وهكذا - فهذه الخطب الاربعة متواجدة دائماً في العمل التحليلي لا تنفصل عن بعضها على اعتبار أنها محركة ومنسقة لشبكة الدوالي ضمن منطق يخضع لقانون اللغة.

دال Signifiant

استخرجه لاكان من دراسة الالسنية. وفصَّل لكي يبين أن عمل التحليل يقوم أساساً على لغة الكلام. لا مخرج للمتحلل الذي يعاني من أعراض إلا عن طريق الكلام. فبمجرد أن يطال هذا العارض عبر التحليل بالكلمات التي تكوَّن منها، فلا بد عندئذ إلا أن يتبدد هذا مع كل انفعالاته.

أفرد لاكان الدال من الخبرة الفرويدية في علاجه للهستيريا، لكي يجعل منه تكوينة لاواعية وواعية اعتباراً من أن العارض يتكون من سلسلة دوال لاواعية.

وقد استطاع التحليل النفسي، عبر فتح المجال للتداعي الحر، أن يستدرج هذه الدوال من حقلها اللاواعي إلى حقل الوعي كي يتملك بها المتحلل بدل أن كانت تتملك به سابقاً.

وأصبح واضحاً بالنسبة إليه أن الذات لا تخرج إلى حيز الوجود والتعريف إلا عن طريق الدال، ولكن الدال بحاجة إلى دال آخر يعترف بها. لذا قال لاكان التحديد التالي:

الدال هو ما يمثل الذات بالنسبة إلى دال آخر. أي يستخرج الذات من العملية الانتقالية من دال 1 إلى دال 2 .

يشدد لاكان على استقلالية الدال وانفصالها عن مرجعية المعنى سيما عندما يرتبط بسلسلة من الدوال تكون في النهاية محتوى لاوعيه، حيث تكمن بها الذات في حقيقتها الأولية، وهذا هو هدف التحليل.

ولكن هذا الدال يبقى مرتهناً بمدلوله وفي نفس الوقت مفصولاً عنه بخط لا يمكن اختراقه، إلا في الذهان.

دال

مدلول

ويعود ذلك إلى كون الإنسان حيواناً ناطقاً، وكل كلمة تحمل في طياتها دالاً ومدلولاً، غائباً وحاضراً.

عندما نقول فلان: فهو حاضر في نفس الوقت الذي تلفظ اسمه، ولكن في نفس الوقت أيضاً يعني غيابه عن الحضور.

ما يميز الدال في تعريفه عن الذات، هو الاختلاف عن الدال التالي. وهذا الفارق يشكل ميزة تجعله ينتقل من دال إلى دال آخر دون أن يلغي الفارق: د1- د2- د3- د4 ـ إلخ. كل واحد يختلف عن الآخر وهكذا. وهذه ميزة اللغة، تفتح آفاقاً

واسعة لا يمكن لدال(*) أن يستأصل المعنى النهائي للمدلول، فالخط الفاصل يبقى قائماً.

بما أن البداية في تكون اللاوعي قائمة على الكبت البدائي، فإن الدال الأول ينطلق من هذا الكبت البدائي المتمحور حول الفالوس، موضوع التماهي الأولي في رغبة الأم، ولكن عندما يطال الفالوس الكبت يصبح في خانة النقصان (الاستحالة) لكي يحل ما يمثله دال رقم واحد.

ذات (انقسامها): الانقسام الذاتي:

نظراً إلى احتكام الإنسان إلى اللغة، وهذا ما يميزه عن الحيوان، يتبين أن ما يتفوه به يتعدى حدود المعرفة التي انطلق منها، يقول دائماً أكثر مما كان يبغي، أي الكلام يحمل في طياته انقساماً ذاتياً يعود مصدره إلى اللاوعي، وبصورة خاصة إلى رغباته المكبوتة، التي تكونت منذ مرحلة عقدة الخصاء.

عندما يخاطبك شخص ما، تقول له أستنتج من كلامك أنك تعني غير ما قلت. فهذا الاستنتاج في السمع هو ما يميز العمل التحليلي على اعتبار أن كل خطاب كلامي يحمل في طياته انقساماً ما بين ذات في البيان الظاهر وذات في المبين كقطعة النقود: واحدة في الأصل: ولكن تحمل انقساماً ما بين وجه وقفا.

لاكان يسير هنا على خطى فرويد عندما حدد هذا الأخير أن الأنا منقسمة في أداء وظيفتها إلى قسم واع على علاقة بالمخاطب، وقسم لاواعٍ على علاقة بالمكبوت. هذا ما تؤكده الأفعال المغلوطة، وهفوات (زلات) اللسان.

عبَّر لاكان عن هذا الإنقسام في الرمز التالي $ الخط القاطع يشير إلى الانقسام الحاصل في الذات المكتملة.

شيء: La chose

فكرة بنى عليها لاكان مفهوم بداية العمليات الفكرية.

تناولها لاكان بإيضاح في سيمينير: "خلق التحليل النفسي" عندما تكلم عن الفراغ في كوب الخردل. فهو مجاز يشير إلى أنه لا ينتظر إلا أن يملأ. يشير هنا إلى اللاوجود الذي ينطلق منه الوجود أي ما قبل التسمية، لأن الغرض كان في حكم

الشيء. كذلك فرويد يشير إلى أن الكلمة قبل أن تعرِّف عن مضمونها، كان هذا المضمون شيئاً، والشخص قبل ان يصبح ذاتاً تعرِّف عنه، كان شيئاً.

ينطلق هذا التأويل من التأكيد، أن التمثل ينبع من الشيء، الذي في الأساس لم يكن له وجود سوى في القوة. كذلك أشار لاكان في سيمينير من الآخر الكبير إلى الآخر الصغير، أن علاقة الرجل بالمرأة هي علاقة تنحصر في متمثل الممثل في المرأة، أي في آخر المطاف في الشيء الذي كان مصدراً للمرأة- لأن الممثل الأساسي طاله الكبت منذ البداية. كما في الخصاء، على اعتبار أنه نقصان، لا يأخذ فاعليته في تكوين الذات إلا عن طريق "ممثل المتمثل" وهذا المتمثل هو الشيء الذي طاله الكبت، ولم يكن موجوداً قبلاً.

في أماكن أخرى يشير لاكان أن الشيء هو بمثابة الموضوع الضائع الذي يتمثل بموضوع "أ" (objet a).

في مجال آخر يقول إن الرمز هو قتل الشيء أي يحل محله بعد استغنائه عن وجوده. الشيء خارج اطار اللغة ولكنه قابل أن يدلج حقل ما قبل اللغة عندئذ يمكن أن توضع عليه التسمية (الكلمة).

فالوس أو قضيب: Phallus

يجب التمييز أولاً ما بين الفالوس وما بين القضيب (ظبر). فهذا الأخير هو عضو جسدي، يشير منذ الولادة إلى تصنيف جنس الطفل ـ وجوده يعني ذكراً وغيابه يعني أنثى. أما الفالوس حسب تصنيف لاكان: فهو رمز للحيوية التي تميز القضيب أو الظبر في حالة الانتصاب. على هذا الأساس أصبح الفالوس الرمز لكل القدرة الليبيدية. حصل توافق ما بين فرويد ولاكان على أن الأولوية هي للفالوس، ولكن لاكان ذهب أبعد من ذلك لكي يعطي للفالوس الموقع المحوري في النظرية التحليلية.

ميَّز ما بين الفالوس الرمزي الإيجابي، رمز القوة والسلطة، صولجان الملك. الاصنام المنتصبة باشكال قضيبية عامودية، إلخ. من كل معالم حضارات الأقدمين - والفالوس الناقص- المخيالي- وهو مشترك ما بين الرجل والمرأة - لأن الأول يتخيله لأنه وعد لمزيد من المتعة، والثانية تتخيله لأنه يشكل الحرمان عندها. في كلا الحالتين: الفالوس الناقص يشكل نقطة التقاء ما بين الرجل والمرأة.

إذاً الفالوس بنظر لاكان هو الدال الأول الذي يطاله الكبت الأولي لكي يصبح φـ، ويحل بديلاً عنه دال ثانٍ، البداية هي الانتقال من د1 إلى د2.

لكن الخط الفاصل ما بين د1 ود2، يبقى حاسماً على اعتبار لا يمكن استئصال كل المعاني الواردة في الفالوس المخيالي. لذلك تستمر السلسلة د3، د4، الخ.

على أساس هذا التمييز ما بين د1 ود2 حاول لاكان تفسير البنية الهستيرية: فعندما لا يطال الكبت د1 يصبح د2 العارض أي البديل عن الفالوس المرمز بـ د1 . أي أن مخيال الهستيريا يستمر نشاطه من وجود فالوس مخيالي يبين عليه الواقع النفسي: أي أن الهستيريا تستمر بالاعتقاد بأنها ذكر في مظهر أنثى.

توغل لاكان كثيراً في توسيع نظريته حول الفالوس. تكلم في القواعد الرياضية، عن وظيفة الفالوس والتي على أساسها يتبين الفارق بين الرجل والمرأة.

وفي مرحلة لاحقة - أي بعد سنة 1972- تكلم عن متعة الفالوس مميزة عن كل الاستمتاعات، لأن لا شيء يضاهيها. وأدخلها في أبحاثه حول العقدة البورومية.

يبقى أن الفالوس في أشكاله الثلاثة: واقعي، رمزي، متخيل: يشكل المحور الأساسي الذي تدور حوله كل النظريات التحليلية.

قانون: Loi

استعمال سلطة القانون في التحليل النفسي لا تتطابق مع المفهوم الشائع كما هو الحال عند القانونيين والمشرعين حول التأويلات انطلاقاً من القوانين المكتوبة. إنما تتخطى هذه القوانين المعروفة والمكتوبة، لتطال القانون غير المكتوب والمتعارف عليه والذي كان مصدراً لكل القوانين المنظمة للشؤون الاجتماعية: وهو القانون المحرم الأساسي لعلاقة الأم بالإبن. وهو قانون بشري يطال كل المجتمعات رغم تنوعها، ويدخل الإنسان في حقل اللغة. هذا القانون غير معلن، تبقى معرفته في اللاوعي، لأنه يرأس التنظيم البنيوي للذات، والتوازن الليبيدي، انطلاقاً من المحرم الأول. وهو المؤسس الأول لكل القوانين التي تشرع العلاقات الاجتماعية، لذلك يتبين في العمل العيادي، أن أي انتهاك له أو لمشتقاته، الأب والأخوات، إلخ، يعتبر إثماً يهدد الخلية الأولى للعلاقة الاجتماعية، ويترتب عليه العديد من الاضطرابات المسلكية والليبيدية.

الإنسان منذ ولادته يرتبط بعقد دين تجاه المجتمع على غير علم منه لأن دخوله وارتهانه بحقل اللغة يقتضي ذلك. فكل إنسان مديون للغة التي كونته.

متعة- استمتاع: Jouissance

يختلط الأمر عند المحللين في استعمال كلمة متعة (من تمتع) - ويشيرون دائماً إلى صفتها الجنسية، من حيث يصعب أمر فصلها عن اللذة الجنسية. رغم أنه قد يكون لها علاقة جزئية باللذة، إلا أن لاكان يفصلها ويضعها "ما بعد مبدأ اللذة" اعتماداً على مقالة فرويد- شدد لاكان على وظيفة اللذة، أنها قد تكون في بعض الأحيان وقاية من المتعة.

السبب في طلب هذه الحماية يعود إلى بنية كل واحدة على حدة.

من الممكن السيطرة على اللذة لأنها تدخل في إطار الواقع وتلجمها حدودنا الجسدية، اما المتعة فتدخل في تركيبة الهوام ويكون مسرحها المخيال الذي لا حدود له. على سبيل المثال ممكن لشخص أن يتذوق الطعام وتبقى لذته محصورة في حدود حاجته، ولكن إذا ما دخلت هذه اللذة في إطار المتعة، تتحول إلى شهية لا حدود لها (Boulimie) تؤدي إلى التهام الأكل وليس التذوق. يصبح الشخص أسيراً لها، مدمناً على الأكل بشكل مرضي، ويصاب بسمنة خطرة. كذلك بالنسبة لمتعة المخدرات.

من الممكن أن نعمم هذه المتعة في هوام الشخص عندما تؤدي إلى تكرار تصرفات وأفعال مضرة لا يعرف كيف يتصدى لها، سوى انها تأتي من متعة مخيالية تسيره ولا سلطة له عليها. وهذا ما يتأكد في الإطار العيادي، حيث تبدو المتعة المحرك اللاواعي للعارض بعد أن تكون قد تخلت عن حدود ضريبة اللذة.

مجاز - كناية:

قوة الكلام تعتمد على قدرتها على التعبير عبر محورين أساسيين: المجاز والكناية، مما يشكل البلاغة.

المجاز هو استبدال كلمة بكلمة أخرى مما يؤدي إلى ولادة معنى جديد: مثلاً: ثعلب الصحراء تشير إلى شخص القائد الالماني رومل، أو عاصفة الصحراء، أفعى الصحراء، عقرب الصحراء... كلها تشير إلى معارك التحالف ضد العراق.

الكناية هي استعمال جزء بكلمة تعني الكل أو التعبير عن المحتوى بالمحتوى: مثلاً: ثلاثون شراعاً: تعني ثلاثون مركباً. أو جملة: أشرب كأساً: تعني المحتوى بالكأس.

استعمل لاكان هذين المحورين لكي يؤكد الترابط ما بين استعمال اللغة المتداولة والبنية اللغوية في اللاوعي، اعتباراً منه أن اللاوعي مركب على غرار اللغة. اعتمد في ذلك على ما ورد عند فرويد في تأويل الأحلام: إنها لا تفهم إلا إذا اعتبرنا أن مجمل الحلم يقوم على التكثيف من ناحية (أي المجاز في اللغة المتداولة - والنقلة - أي الكناية). من هذا المنطلق بنى لاكان نظريته للدال في اللاوعي وتجمع الدال في سلسلة ضمن شبكة تشكل النسيج لبنية الذات اللاواعية.

أول مجاز: حدده لاكان "بالمجاز الأبوي". يأتي بعد أن يحل الأب مكان الأم. النتيجة ذات الأثر التأسيسي تأتي عن طريق الأوديب، عندما يحل الأب مكان الأم كمرجع أساسي في علاقته مع نفسه أو مع المجتمع . هذه العملية لا يمكن أن تنجح إلا إذا احتل الأب المكان الأول الذي يملك الفالوس..

أما الكناية فقد حصرها لاكان في التعبير عن الرغبة أن موضوعها يطل علينا من نقصان لموضوع أساسي، كان الطفل في نشأته الأولى قد تماهى به. لذلك تأتي الرغبة كدعوة لاستعادة هذا الموضوع، ولكن سريعاً ما يتبين أن هذا التحقق لا يحصل إلا جزئياً، لأن أي بديل عن الموضوع الأساسي الضائع، لا يمكن أن يعادله - لذلك فالجزء يعبر عن الكل ضمن كناية مستمرة منذ ولوج الإنسان عالم اللغة وأي موضوع يحققه في رغبته يظل دون الموضوع الضائع. هذا مما يجعل الرغبة مستمرة مدى الحياة لأنها غير مطابقة لإشباع الحاجة.

يبرهن لاكان أن وظيفة المجاز، تتحول إلى انقطاع عن مصدرها إذا قلنا مثلاً عائلة النجار أو الزبال أو الحداد. يصبح المجاز أو الاستعارة مقطوعاً عن مصدره (المهنة) لكي يتحول إلى دال يعبر عن الذات بالنسبة إلى دال آخر. أما الكناية فوظيفتها تؤمن استمرارية في رغبة لا تنضب مدى الحياة.

مزيد من المتعة: Plus de jouir

تختزل ماهية المحرك الأساسي لعلاقة الإنسان بالحياة. فهو يسعى دائماً إلى المزيد من اللذة، على غرار ما نظر ماركس حول plus-value الربح الإضافي، وهو العامل الدافع إلى مزيد من الإنتاج مما يعادل مزيد من الربح أي مزيد من المتعة.

اختزلها لاكان في البداية في وظيفة موضوع "أ": سبب الرغبة هي المؤشر الأول لبزوغ المتعة القضيبية ويعتبرها متعة آخر، أي تدخل في إطار حقل الآخر الكبير: سريعاً ما يطالها الكبت وتتحول إلى نقصان، وتصبح في حقل، مميزة بغيابها بسبب المكان الفارغ الذي تتركه- عندئذ يتماهى الطفل بهذا الموضوع الناقص لكي يتمم الآخر.

إذا تمكن الكبت في تغييب نهائي لهذا الوعد بلذة إضافية، يستطيع الطفل أن يعتمد بدائل تعبر عن ذاته. أما إذا بقي هذا الوعد زائداً (+) يلوح باستمرار إلى لذة اضافية، عندئذ يتعرض الطفل في المستقبل إلى حالة العصاب. التحليل النفسي بعد نهاية العلاج قد يتمكن من تحويل هذه اللذة الإضافية: من حالة الزائد إلى حالة النقصان أي (+) ← (-).

موضوع (أو غرض): Objet

مفهوم اوجده فرويد لكي يبين علاقة الإنسان مع العالم الذي يحيط به انطلاقاً من فلسفة الكون. وهذا ما يبين الفرق بين التحليل النفسي وعلم النفس. فالأول يطال شرح وتأويل ديناميكية العلاقة بالموضوع. أما الثاني فيكشف شكل الأنا دون أن يكشف تحركاتها باتجاه الموضوع. والملاحظ هو أن هنالك عدة أنواع من المواضيع:

الموضوع الطيب والموضوع السيئ لميلاني كلاين.

الموضوع المتحول transitionnel لڤينينكوت.

والموضوع الجزئي لأبراهام.

والموضوع "أ" لجاك لاكان (سيمينير 4).

تناول لاكان "العلاقة بالموضوع" من زاوية تختلف عن فرويد. انطلق من فكرة النقصان الذي يشير إلى غياب الموضوع. وهذا الغياب يبقى حاضراً في كل مرة يختار الشخص موضوعاً بديلاً، لكي يؤكد له أنه لا يمكن أن يحل محل الضائع. أي بالنسبة للاكان لا يمكن التعبير للموضوع عن وجوده إلا من حالة النقصان التي تميزه. وهي ثلاث:

وهذا النقصان يتميز بحالات وجدانية مختلفة:

إما ان يؤدي إلى الحرمان وإما إلى الإحباط وإما إلى الإخصاء.

وكل حالة نقصان لها موضوعها الخاص.
- الخصاء رمزي ولكن موضوعه مخيالي (فالوس).
- الإحباط هو مخيالي ولكن موضوعه واقعي.
- الحرمان هو واقعي: ولكن موضوعه رمزي.

موضوع "أ" : Objet a

هو من اختراع لاكان، لكي يميز الموضوع الذي يكون في آن واحد سبب الرغبة وغايتها. لا يأخذ موضوع «أ» أهميته وحيويته إلا من كونه ضائعاً.

في البداية يتمثل بقطعة من الجسد انفصلت وأصبحت نفاية، أو فاقدة الأهمية.

يشير لاكان إلى أن "موضوع أ" يتكون منذ الولادة، عندما ينفصل الطفل عن المشيمة، فتسقط في النفايات فيحصل من خلال ذلك الانفصال النهائي عن جسد الأم.

على هذه التجربة الأولى تتكرر تجارب اخرى تؤكد ضياع الغرض. يتعلق في الثدي ثم ينفصل عنه كما لو كان جزءاً منه، كذلك في الغائط كقطعة مهداة إلى الأم. أضاف لاكان فيما بعد النظر أو السمع على اعتبار أنهم من المواضيع الضائعة التي تميز النزوات.

"موضوع أ" يتواجد ما بعد العطاء، وراء الذات وليس أمامها، يحث الحصول على المزيد من اللذة وعلى الموضوع الضائع. ولكن لا يحصل الإنسان، إلا على البدائل التي تضله عن جوهر الموضوع "أ"- مثلاً يعمل بجد للحصول على المال كي يساعد الفقراء لأنه كان فقيراً. عندما يحصل على الثروة يصبح المال بديلاً عن الموضوع الضائع أي حرمان الفقراء من الإعانة. أو البخيل يجد في الصندوق "موضوع أ"، لأنه يحتوي على بديل الغائط الذي انفصل عنه.

هوام:

تكوَّنت فكرة الهوام عند فرويد بعد تأكده من فشل نظرية النيروتيكا أي الإغواء. اعتبر انطلاقاً من هذا الاكتشاف، أن مصدر العصاب لا يحصل من أثر الأحداث في الطفولة، صحيحة كانت أم وهما، إنما من الهوام المتكون وهو كناية عن سيناريو بقي محفوظاً في المخيال، يطاله الكبت ولكن يبقى فاعلاً وناشطاً في سلك الشخص وفي

إنتاج عوارضه العصابية وهذه الحيوية المميزة تعود إلى محرك الرغبة الذي يحتوي الهوام موضوعها. الهوام يتحرك انطلاقاً من أحلام اليقظة الواعية لكي يطال التمثلات اللاواعية التي تنظم حياتنا النفسية.

بهذا المعنى يبدو جلياً أن هدف العمل التحليلي، هو كشف النقاب عن هذه الهوامات المكبوتة، لكي يخرجها من حيز اللاوعي حيث لا سلطة للمتحلل عليها، إلى حيز الوعي كي يتمكن من السيطرة عليها، بعد أن يتبين له أن اكتشاف الذات القابعة وراء سيناريو الهوام. كي يتيسر ذلك بين لاكان صلة الوصل ما بين الهوام واندراجه في عمل اللغة. شدد أولاً - اعتماداً على فرويد - أن طبيعة الهوام هي أصلاً لغوية. هذا ما يؤكده العمل العيادي: إن جملة تأتي في سياق الكلام لكي تعبر بوضوح عن الهوام يرمزه لاكان بالتالي: (a < > $). الفاصل بين التقارب والتباعد.

إضافة إلى ذلك ذهب لاكان إلى التأكيد بأن هنالك هوامات عديدة، ولكن تؤدي في النهاية إلى "هوام أساسي" حيث تقبع الذات اللاواعية متخفية.

وهو بمثابة النواة المرضية عند فرويد.

"الهوام الأساسي" يشكل بالنسبة للذات النافذة التي يرى من خلالها العالم الخارجي. إذاً في نظر لاكان هذا هو المستهدف في كل عمل تحليلي. الغاية ليست إزالته لانه تأسيس لا يزول، إنما التعامل معه على بينة من أمره، تخفيف أو توقيف الانزلاق به أو تهميشه.

واقع

يتميز عن الواقعي (réel) وحسب المفهوم الفرويدي هنالك الواقع النفسي الذي من خلاله نرى الواقع الخارجي . والاثنان يتداخلان معاً حيث تلعب الأنا دور الوسيط. أما بالنسبة للاكان: فان هذا الواقع لا نستطيع أن نطاله إلا عبر الواقعي (réel) عن طريق تمخيله وترميزه.

واقعي- رمزي- مخيالي: RSI Réel- Symbolique- Imaginaire

ثلاثة مجالات فصلها جاك لاكان منذ بداية تنظيره لعلاقة الإنسان مع نفسه، مع الآخر، مع العالم.

وربطها فيما بعد بتصور العقدة البورومية، ارتباطاً وثيقاً لا يفصل أحدها عن

الأخرى دون أن يتم تحريرها جميعاً، ويشكل تشابك المجالات الثلاثة: النسيج الأساسي للبنية اللغوية .

عندما نقول مثلاً أسد: الكلمة تشكل اللفظ الرمزي - في لغة أخرى ليس لها مفهوم. هذا يستدعي تصور حيوان مفترس يمتاز بقوته، وهذا التصور يستمد صورته من المخيال . وأخيراً الحيوان الأسد الذي أصبح حاضراً كواقع من سلالة الحيوانات المفترسة. أي الكلام استدعاه وأحضره معنا دون أن يكون هنالك ضرورة لحضوره جسدياً، وحتى لو لم نر في حياتنا أسداً- واقع - رمز- مخيال- إذا تشابكوا فيما بينهم لكي يعطوا معنى للكلام نتعامل من خلاله مع الآخر.

إذاً دخول الإنسان عالم اللغة هو بمثابة دخول عالم الرمز لأن العالم كله الذي يبدأ الإنسان اكتشافه منذ ولادته مبني على أسس لغوية متقاطعة بالمجاز والكناية والبلاغة والقواعد اللغوية التي تقسم الزمن إلى ماض وحاضر ومستقبل، وتفصل في الفضاء ما هو للآخر وما هو للأنا. عالم الرمز في تركيبته اللغوية، يؤسس الإنسان ويفصله عن طبيعته الحيوانية.

المجال المخيالي: يتمحور حول علاقة الذات بالآخر. علاقة في الاساس صراعية (أنظر مرحلة المرآة) يخترقها العداء منذ البداية. وتشكل هذه العلاقة المخيالية المؤسس الاول لهذا العداء مع الآخر، والتي لا تصبح سليمة إلا بفضل تدخل عامل اللغة.

لكن هذا الصراع يأخذ حده عندما يدرك الإنسان أنه لا يستطيع ان يتكون إلا عن طريق صورة الآخر. فهو ضرورة لوجوده بنفس الوقت الذي يتمنى إزالته . نجد هنا مصدر الشعور الإنساني وتحريم القتل- لولا هذا التماهي بالآخر لما حصل كما نرى نمو المشاعر الإنسانية.

الواقعي:

هو مفهوم من استنباط لاكان لكي يميزه عن الواقع. نستطيع أن نشبهه بالحدث المفاجيء الذي لم يكن له تصور مسبق. لذلك نعته لاكان باللاعقلاني، لأنه خارج المنهاج المنطقي المتبع، إن ما تحداه وزعزع أسسه.

الثورة الفرنسية حدث واقعي لاعقلاني بالنسبة للنظام الملكي. لذلك ميزه لاكان عن الواقع لأنه قد يكون سبباً لواقع جديد. ولكن بالاضافة يمكن أن يكون الواقعي

عقلانياً يشير إلى الكواكب التي تدور في فلكها ولكن تعود دائماً إلى نفس المكان فترشدنا في تنقلنا في حقل الواقع.

في مقولة أخرى يشير لاكان أن شيئاً من تكوين الذات يبقى خارجاً عنها، ولا نستطيع إدماجه إلا عن طريق اللغة. يستعمل لاكان الواقعي في التكرار الذي يميز ديناميكية النزوة (الاندفاعية)، ويجسده في "موضوع أ".

المراجع التي اعتمدها الكاتب

Adler, Alfred: - Le sens de la vie, Payot.
Bakan, David :- Freud et la tradition juive, édition Payot, 1962
Balint: - Médecin Malade et maladie.
Bergler: - Névrose de base.
Bonaparte, Marie : - Lettres à W. Fleisse (1887- 1902)
Breuer, J: - Etudes sur l'hystérie: Tr.Fr P.U.F, Paris, 1956.
Schemama, Roland: - Dictionnaire de psychanalyse. Larousse, Paris, 2000.
- Eléments Lacaniens pour une psychanalyse question.
Clavreul, Jean: - L'ordre médical, éd. Seuil, Paris.
Deutsch, Hélène. Psychologie de la femme.
De Saussure, Ferdinand: - Cours de linguistique générale, Paris, Payot.
Dor Joël: Denoël- Paris, 1986. Comprendre Lacan.
Ferenczi, Sandor: - Œuvres complètes, Payot, 1982.
Flerens, Christian: - Logique de l'inconscient chez Lacan.
Foucault. Michel: Histoire de la folie.
Freud, Anna:
- La naissance de la psychanalyse.
- Le moi et les mécanismes de défenses, PUF, Paris.
- Le normal et la pathologie chez l'enfant, Gallimard, Paris, 1968
Freud., Sigmund: Essais de psychanalyse. Payot, 1976, Paris.
-Totem et Tabou, Gallimard, Paris 2001.
- L'homme aux loups: Tr. Fr PUF, 1989.
- La vie sexuelle - PUF
- Cinq psychanalyses: PUF, Paris 1965.
- Résultats, idées et problèmes: PUF, Paris 1987.
-Trois essais sur la théorie sexuelle. Gallimard, Paris, 2001.
-Métapsychologie: Gallimard, Paris.

-Nouvelles conférences sur la psychanalyse, Gallimard, Paris.
-Ma vie et la psychologie, Gallimard, Paris.
-Cinq leçons sur la psychanalyse, Gallimard, Paris.
-Introduction à la psychanalyse, Payot, Paris.
-Etudes sur l'hystérie avec Breuer
- Correspondance 1873-1939, éd. Gallimard, Paris.
- La science des rêves, PUF, 1967
- Inhibition symptôme et Angoisse PUF, Paris, 1971.
- Névroses, psychoses et perversions, PUF, Paris, 1971.
- Pulsions et destin des pulsions «métapsychologie».

Grorichard, Alain: «La structure du sérail», Paris, Seuil.
Hegel: Phénoménologie de l'esprit.
Henri, Michel: - Généalogie de la psychanalyse. PUF, Paris, 1985.
Henrion, Jean-Louis: - La cause du désir, Point hors-ligne, Paris, 1991.
Houbballah, Adnan: - Virus de la violence, Albin Michel, Paris, 1997.
- Destin du traumatisme: Hachette, Paris, 1999.
Horney, Karen: - La psychologie de la femme, Payot, Paris.
Israel, Lucien: - L'hystérie, le sexe et le médecin, Masson, Paris, 1976.
Jones, Ernest :
- La vie et L'œuvre de Freud. 3 volumes, PUF, Paris, 1961.
- Œuvre complètes:
Théorie et pratiques de la psychanalyse, PUF, Paris.
Julien, Philippe: Le retour à Freud de Jacques Lacan, E.P.E.L.F, Paris, 1990.
Klein, Mélanie: - La psychanalyse d'enfants, Payot.
-Envie et gratitude, Gallimard..
- Œuvres complètes: Payot, Paris, 1967.
Kojev, A.: - Le concept, le temps et le discours, Paris, Gallimard, 1990.
Lacan, Jacques,
Ecrits, Seuil, Paris, 1966.
- Séminaire I: Les écrits techniques, Seuil, Paris.
- Séminaire II: Le moi, Seuil, Paris.
- Séminaire IV: Les relations d'objets.
- Séminaire V: Les formations de l'inconscience.
- Séminaire VIII: Le transfert.
- Séminaire IX: Lidentification.

- Séminaire X: L'angoisse, Seuil, Paris.
- Séminaire XI: Les 4 concepts, Seuil, Paris.
- Séminaire XIV: La logique du fantasme.
- Séminaire XVII: L'envers de la psychanalyse
- Séminaire XVIII: D'un Autre à l'autre,
- Lettres de l'école Freudienne, Paris 1974.
- Lettres de l'école Freudienne, numéro 3.
- Les écrits , Seuil
Laplanche, J. et Pontalis: -Vocabulaire de la psychanalyse, PUF, Paris 1967.
Lévi-Strauss, Claude: - Anthropologie structurale, Plon, Paris, 1958.
Nasio, J.D.: - Cinq leçons sur la théorie de Jacques Lacan, Payot, Paris.
Platon: «Le banquet».
Rifflet- Lemaire Anika: Jacques Lacan. Paris, éd. Ch. Dassart 1970.
Roustang, F.:- Lacan, de l'équivoque à l'impasse.
Schemama, R.: - Eléments lacaniens pour une psychanalyse.
Vellabregua, J.P:- La formation du psychanalyste, 1994.
Vernant, J.P.: Mythologie grecque.
Winnicott, D.:- International Journal of Psychanalyse, 1956.
- Processus de maturation chez l'enfant, Payot.
- L'enfant et sa famille.
Safouan, M.:- La sexualité féminine, Seuil, Paris, 1975.
S.Zas, Thomas: - L'éthique de la psychanalyse, Payot, Paris.
Zafiropoulos, Marcos: - Lacan et les sciences sociales, PUF, 2001.
Klein, M; Heumann, P.; Isaac.S.; Rivière. J.:
- Développement de la psychanalyse, PUF, Paris.

أبو حيان التوحيدي: الاستمتاع و المؤآنسة : دار الحياة.
ابن عربي : الفتوحات.

ثبت المصطلحات

عربي	فرنسي	إنجليزي
مصطلح	أ	
1 ـ إتحاد ـ إنفصال (النزوات)	Union-désunion (des pulsions)	Fusion-defusion (of instincts)
2 ـ إتكالي (صفة)	Anaclitique	Anaclitic, attachment
3 ـ أثر ذكروي	Trace mnésique	Mnemic trace
4 ـ اندخال	Introjection	Introjection
5 ـ إحباط	Frustration	Frustration
6 ـ إختبار الواقع	Epreuve de réalité	Reality-testing
7 ـ إختيار العصاب	Choix de la névrose	Choice de neurosis
8 ـ إختيار الموضوع	Choix d'objet	Object-choice
9 ـ إختيار الموضوع النرجسي	Choix d'objet narcissique	Narcissistic object-choice
10 ـ إدراك ـ وعي	Perception-conscience	Perception-consciousness
11 ـ إدماج	Incorporation	Incorporation
12 ـ إرتباط	Liaison	Binding
13 ـ إرتداد على الشخص نفسه	Retournement sur La personne propre	Turning round upon the subject's ownself
14 ـ تحصيل أو انضاج نفسي	Elaboration psychique	Psychical working out (over)
15 ـ تحصيل ثانوي	Elaboration secondaire	Secondary revision
16 ـ نقله	Déplacement	Displacement
17 ـ ردة فعل علاجية سلبية	Réaction thérapeutique négative	Negative therapeutic reaction
18 ـ استدخال	Intériorisation	Internalization
19 ـ إستناد	Etayage	Anaclisis
20 ـ إسقاط	Projection	Projection
22 ـ انذار القلق	Signal d'angoisse	Signal of anxiety

Reparation	Réparation	23 ـ إصلاح
Compulsion, compulsive	Compulsion, compulsionnel	24 ـ إضطرار، إضطراري، قهري
Repetition compulsion	Compulsion de répétition	25 ـ قهرية التكرار
Repudiation, forclosure	Forclusion	26 ـ انعدام
Cannibalistic	Cannibalique	27 ـ أكلة لحم البشر ـ افتراس
(Latent) dream-thoughts	Pensées (latentes) du rêve	28 ـ أفكار الحلم (الباطنة)
Economic	Economique	29 ـ إقتصادي
Conversion	Conversion	30 ـ إقلاب
Alteration of the ego	Altération du moi	31 ـ تضرر الأنا
Undoing (what has been done)	Annulation (- rétroactive)	32 ـ إلغاء مرتجع
Abstinence (rule of -)	Abstinence (règle d'-)	33 ـ إمتناع (قاعدة الـ)
Ego (the -)	Moi (le-)	34 ـ أنا (الأنا)
Superego	Surmoi	35 ـ أنا أعلى
Pleasur-ego-	Moi- plaisir -	36 ـ أنا لذة ـ
Reality-ego	moi-réalité	أنا واقع
Ideal ego	Moi idéal	37 ـ أنا مثالي
Egoism	Egoïsme	38 ـ أنانية
Attention (suspended -)	Attention (flottante)	39 ـ إنتباه (عائم)
Wish-fulfilment	Accomplissement de désir	40 ـ إنجاز الرغبة
Damming up of libido	Stade libidinal	41 ـ مرحلة لبيديه
Pressure (Instinct -)	Poussée (de la pulsion)	42 ـ إندفاع، ضغط، (النزوة)
Spliting of the ego	Clivage du moi	43 ـ إنقسام الأنا
Spliting of the object	Clivage de l'objet	44 ـ انقسام الموضوع
Introversion	Introversion	45 ـ إنطواء
Negation	(Dé) (négation)	46 ـ إنكار
Interest, ego interest	Intéret, intérêt du moi	47 ـ فائدة، إهتمام الأنا
Working-off mechanisms	Mécanismes de dégagement	48 ـ ميكانيكيات التخلص (أوالية ـ)
Defence mechanisms	Mécanismes de défense	49 ـ ميكانيكيات الدفاع، (أوالية ـ)
Eros	Eros	50 ـ إيروس

ب

Substiute	Substitut	51 ـ بديل
Differed action	Après-coup	لاحق ـ ما بعد الحاصل

Day's residues	Restes diurnes	53 ـ بقايا نهارية
Construction	Construction	54 ـ بنيان، تركيب

ت

Interpretation	Interprétation	55 ـ تأويل،
Anagogic interpretation	Interprétation anagogique	56 ـ تأويل روحاني
Over-interpretation	Surintérpretation	57 ـ تأويل مضاعف
Thanatos	Thanatos	58 ـ تاناتوس (نزعة الموت)
Rationalization	Rationalisation	59 ـ تبرير
Fixation	Fixation	60 ـ تثبيت
Ambivalence	Ambivalence	61 ـ تجاذب وجداني ـ تأرجح
Expcrience of satisfaction	Expérience de satisfaction	62 ـ تجربة الإشباع، إرضاء
Symbolic realization	Réalisation symbolique	63 ـ تحقيق رمزي
Training analysis	Analyse didactique	64 ـ تحليل تعليمي
Self-analysis	auto-analyse	65 ـ تحليل ذاتي
Direct analysis	Analyse directe	66 ـ تحليل مباشر
Supervised analysis	Psychanalyse sous Controle, ou controlée	68 ـ تحليل نفسي خاضع للإشراف
Wild analysis	Psychanalyse sauvage	69 ـ تحليل نفسي همجي
Distortion	Déformation	70 ـ تحوير، تشويه
Association	Association	71 ـ تداعي، ترابط
Frce association	Libre association (méthode ou règle de -)	72 ـ تداعي حر
Sublimation	Sublimation	73 ـ تسامي
Intricacy-disjunction	Intrication-désintrication	74 ـ تشابك ـ إنفكاك
Libido adhesiveness	Viscosité de la libido	75 ـ سيولة الليبيدو
Abreaction	Abréaction	77 ـ تفريج
Gencration of anxiety	Développment d'angoisse	77 ـ تصعيد القلق، توليد
Idea, presentation	Représentation	78 ـ تصور
Thing presentation, Word presentation	Représentation de chose, Représentation de mot	79 ـ تصور الشيء وتصور الكلمة
Purposive idea	Représentation-but	80 ـ تصور ـ هدف
Innervation	Innervation	81 ـ تعصيب
Cathartic method	Cathartique (méthode -)	82 ـ تفريج (طريقة تفريجية)
Discharge	Décharge	83 ـ تفريغ
Acting out	Acting out	84 ـ تفعيل خارجي
Active technique	Technique active	85 ـ تقنية فاعلة

Condensation	Condensation	86 ـ تكثيف
Repetition	Répétition	87 ـ تكرار
Symptom-formation	Formation de symptome	88 ـ تكوين العارض
Substitutive formation	Formation substitutive	89 ـ تكوين بديل
Compromise-formation	Formation de compromis	90 ـ تكوين تسوية
Compromise-formation	Formation de compromis	91 ـ تكوين معاكس
Identification	Identification	92 ـ تماهي، تعيين ـ توحيد
Projective Identification	Identification projective	93 ـ تماهي إسقاطي
Primary identification	Identification primaire	94 ـ تماهي أولي
Identification with the Aggressor	Identification à l'agresseur	95 ـ تماهي بالمعتدي
Facilitation	Etayage	96 ـ تمهيد عصبي
Genital love	Génital (amour -)	97 ـ تناسلي (حب ـ)
Organization of the libido	Organisation de la libido	98 ـ تنظيم الليبدو
Cathexis	Investissement	99 ـ توظيف
Anticathexis	Contre-investissement	100 ـ توظيف مضاد
Hypercathexis	Surinvestissement	101 ـ توظيف مفرط

ث

Bisexuality	Bisexualité	102 ـ ثنائية جنسية

ج

Sexuality	Sexualité	103 ـ جنسية
Psychic apparatus	Appareil psychique	104 ـ جهاز نفسي

ح

Need for punishment	Besoin de punition	105 ـ حاجة إلى العقاب
Borderline case	Cas-limite	106 ـ حالة حدودية
Hypnoid state	Etat hypnoïde	107 ـ حالة تنويمية
Over determionation	Surdétermination	108 ـ حتم مضاعف ـ محتمة
Instinctual impulse	Motion pulsionnelle	109 ـ حركة نزوية
Instinctual impulse	Motion pulsionnelle	109 ـ حركة نزوية
Judgement of condemnation	Jugement de condamnation	110 ـ حكم الإدانة
Day-dream	Rêve diurne, reverie	111 ـ حلم يقظة
Tenderness	Tendresse	112 ـ حنان
Neutrality	Neutralité	113 ـ حياد

خ

Anaclitic depression	Dépression anaclitique	114 ـ انهيار أعصاب
Imaginary	Imaginaire	115 ـ خيالي

د

Defence	Défense	116 ـ دفاع
Dynamic	Dynamique	117 ـ دينامي
Screen-memory	Souvenir-écran	118 ـ ذكرى ساترة
Masculinity-feminity	Masculinité-féminité	119 ـ ذكورة ـ أنوثة
Psychosis	Psychose	120 ـ ذهان

ر

Mothering	Maternage	121 ـ رعاية أموية
Fright	Effroi	122 ـ رعب، ذعر
Wish	Désir	123 ـ رغبة
Reality denaial	Déni (-de la réalité)	124 ـ رفض (ـ الواقع)
Censorship	Censure	125 ـ رقابة
Agency	Instance	126 ـ ركن، سلطة
Symbolic	Symbolique	127 ـ رمزي
Symbolism	Symbolisme	128 ـ رمزية
Mnemic symbol	Symbole mnésique	129 ـ رمز ذكروي
Family romance	Roman familial	130 ـ رواية أسرية

ز

Aphanisis	Aphanisis	131 ـ زوال الرغبة، إصفاء
Pair of opposites	Couple d'opposés	132 ـ زواج المضافات

س

Sadism	Sadisme	133 ـ سادية
Sado-Masochism	Sado-Masochisme	134 ـ سادو مازوشية
Dream screen	Ecran du rêve	135 ـ ستارة الحلم
Withdrawal of cathexis	Désinvestissement	136 ـ سحب التوظيف
Complemental series	Série complémentaire	137 ـ سلسلة مكملة

ش

Paranoid	Paranoïde	138 ـ شبه عظامي
Perversion	Perversion	39 ـ شذوذ

Inferiority feeling	Sentiment d'infériorité	140 ـ شعور بالدونية
Guilt feeling	Sentiment de culpabilité	141 ـ شعور بالذنب
Penis envey	Envie du pénis	142 ـ شهوة القضيب

ص

Protective shield	Pare-excitations	143 ـ صاد الإثارات
Trauma	Trauma ou traumatisme (psychique) ـ	144 ـ صدمة (نفسية)،
Psychical conflict	Conflit psychique	ـ صراع نفسي، مأزم
Imago	Imago	146 ـ صورة هوامية

ط

Cathectic energy	Energie d'investissement	147 ـ طاقة التوظيف
Free energy-	Energie libre -	148 ـ طاقة حرة ـ
Bound energy	Energie liée	طاقة مرتبطة

ظ

Functional phenamenon	Phénomène fonctionnel	149 ـ ظاهرة وظيفية

ع

Affect	Affect	150 ـ عاطفة
Helplesness	Détresse (état de -)	151 ـ عجز (حالة الـ ـ)
Aggressivity	Agressivité	152 ـ عدوانية
Isolation	Isolation	153 ـ عزل
Neurosis	Névrose	154 ـ عصاب
Family neurosis	Névrose familiale	155 ـ عصاب عائلي
Phobic neurosis	Névrose phobique	156 ـ عصاب خوافي
Actual neurosis	Névrose actuelle	157 ـ عصاب راهن
Traumatic neurosis	Névrose traumatique	158 ـ عصاب صدمي
Character neurosis	Névrose de caractère	159 ـ عصاب الطبع
Failure-neurosis	Névrose (ou syndrome)	160 ـ عصاب (أو تكوين) الفشل
Failure-neurosis	Névrose (ou syndrome) d'échec	160 ـ عصاب (أو تكوين) الفشل
Mixed neurosis	Névrose mixte	162 ـ عصاب مزيج
Narcissistic neurosis	Névrose narcissique	162 ـ عصاب المصير
Transference neurosis	Névrose de transfert	164 ـ عصاب التحويل

Obsessional neurosis	Névrose obsessionnelle	165 ـ عصاب هجاسي ـ قهري
Abandonment neurosis	Névrose d'abandon	166 ـ عصاب الهجر
Paranoïa	Paranoïa	167 ـ عظام ـ بارانويا
Complex	Complexe	168 ـ عقدة
Father complex	Complexe paternel	169 ـ عقدة الأبوة
Oedipus complex	Complexe d'oedipe	171 ـ عقدة الأوديب
Inferiority complex	Complexe d'infériorité	172 ـ عقدة الدونية
Castration complex	Complexe de castrastion	173 ـ عقدة الخصاء
Intellectualization	Intellectualisation	174 ـ عقلنة، فكرنة
Working-through	Perlaboration	175 ـ عمل الإستيعاب
Dream-work	Travail du rêve	176 ـ عمل الحداد
Secondary process	Processus secondaire	178 ـ عملية أولية،
Secondary process	Processus secondaire	عملية ثانوية
Breakthrough of the repressed	Retour du refoulé	179 ـ عودة المكبوت
Psychotherapy	Psychothérapie	180 ـ علاج نفساني
Object-relationship	Relation d'objet	181 ـ علاقة الموضوع
Neurasthenia	Neurashténie	182 ـ عياء

غ

Instinct	Instinct	183 ـ غريزة
Urethral erotism	Erotisme urétral ou urinaire	184 ـ غلمة بولية
Auto-erotism	Auto-érotisme	185 ـ شبق ذاتية
Auto-erotism	Allo-érotisme	186 ـ غلمة غيرية
Seduction (scene of theory of-)	Séduction (scène de- Thérorie de-)	187 ـ غواية (مشهد، نظرية ـ)

ف

Hospitalism	Hospitalisme	188 ـ استشفاء
Schizophrenia	Schizophrénie	189 ـ فصام
Schizophrenia	Schizophrénie	190 ـ فصام هذياني
Paraphrenia	Paraphrénie	190 ـ فصام هذياني
Actualization	Mise en acte	191 ـ فعلنة
Specific action	Action spécifique	192 ـ فعل نوعي

ق

Considerations of representability	Figurabilité, (Prise en considération de la figurabilité)	193 ـ قابلية التصوير، أخذ قابلية التصوير بعين الاعتبار
Erogeneity	Erogénéité	194 ـ قابلية توليد الشبق
Fundamental rule	Règle fondamentale	195 ـ قاعدة أساسية
Phallus	Phallus	196 ـ قضيب ـ فالوس
Phallic (woman or mother)	Phallique (femme ou mère-)	197 ـ فالوسية (إمرأة، أو أم ـ)
Reversal into the opposite	Renversement (d'une pulsion) dans le contraire)	198 ـ قلب (النزوة) إلى الضد
Realistic anxiety	Angoisse devant un danger réel	199 ـ قلق إزاء خطر واقعي
Automatic anxiety	Angoisse automatique	200 ـ خوف آلاتي
Suppression	Répression	201 ـ قمع

ك

Repression	Refoulement	202 ـ كبت
Primal repression	Refoulement orginaire	203 ـ كبت أصلي، أولي
Primary and secondary gain from illness	Bénéfice primaire et secondaire de la maladie	204 ـ كسب أولي وثانوي من المرض
Latency period	Latence (période de -)	205 ـ كمون (فترة ـ)

ل

Libido	Libido	206 ـ ليبدو
Ego-Libido-	Libido du moi -	207 ـ ليبدو الأنا ـ
Object-libido	Libido d'objet	ليبدو الموضوع
Narcissistic libido	Libido narcissique	208 ـ ليبدو نرجسي
Organ-Pleasure	Plaisir d'organe	209 ـ لذة العضوة

م

Materiel	Matériel	210 ـ مادة
Subconscious	Subconscient	211 ـ ما دون الوعي، ما دون الشعور
Masochism	Masochisme	212 ـ مازوشية
Preoedipal	Préoedipien	213 ـ ما قبل أوديبي
Preconscient	Préconscient	214 ـ ما قبل الوعي، ما قبل الشعور

Pregenital	Prégénital	215 ـ ما قبل تناسلي
Metapsychology	Métapsychologie	216 ـ ما وراء علم النفس
Principle of constancy	Principe de constance	217 ـ مبدأ الثبات
Pleasure principle	Principe de plaisir	218 ـ مبدأ اللذة
Principle of neuronic inertia	Principe d'inertie (neuronique)	219 ـ مبدأ القصور (العصبي)
Nirvana principle	Principe de nirvana	220 ـ مبدأ النرفانا
Reality principle	Principe de réalité	221 ـ مبدأ الواقع
Ambivalent	Ambivalent	222 ـ متجاذب وجدانياً،
Pre-ambivalent	Préambivalent	سابق للتجاذب
Post-ambivalent	Postambivalent	لاحق للتجاذب
Egosyntonic	Conforme au moi	223 ـ متلائم مع الأنا
Ego ideal	Idéal du moi	224 ـ مثال للأنا
Idealization	Idéalisation	225 ـ مثلنة ـ مثالية
Sum of excitation	Somme d'excitation	226 ـ مجمع الإثارة
Latent content	Contenu latent	227 ـ محتوى باطن
Mirror stage	Stade du miroir	229 ـ مرحلة المرآة
Genital stage (or organization)	Stade (organisation) génital (e)	230 ـ مرحلة تناسلية، أو تنظيم
Oral-sadistic stage	Stade sadique-oral	231 ـ مرحلة شرجية سادية
Oral stage	Stade oral	232 ـ مرحلة فمية
Oral-sadistic stage	Stade sadique-oral	233 ـ مرحلة فمية سادية
Phallic stage	Stade phallique	234 ـ مرحلة فالوسية
Plasticity of the libido	Plasticité de la libido	236 ـ مرونة الليبيدو
Somatic compliance	Complaisance somatique	237 ـ مسايرة جسدية، تواطؤ
Derivative of the unconscious	Rejeton de l'inconscient	238 ـ مشتقات اللاوعي
Primal scene	Scène originaire	239 ـ مشهد أصلي، أولي
Primal scene	Scène primitive	240 ـ مشهد بدائي-أولي
Source of instinct	Source de la pulsion	241 ـ مصدر النزوة
Aim-inhibited	Inhibé quant au but	242 ـ مكفوف الهدف
Autoplastic	Autoplastique	243 ـ مطاوعة ذاتية ـ تطويع الغير
Alloplastic	Alloplastique	تطويع الغير
Quota of affect	Quantum d'affect	244 ـ مقدار العاطفة
Resistance	Résistance	245 ـ مقاومة
Instinctual component	Composante pulsionnelle	246 ـ مكون نزوي
Ideational representative	Représentant-représentation	247 ـ ممثل المتمثَّل
Instinctual representative	Représentant de la pulsion	248 ـ ممثل النزوة

Psychical representative	Représentant psychique	249 ـ ممثل نفسي
Erotogenic zone	Zone érogène	250 ـ منطقة مولدة للغلمة
Erotogenic zone	Zone érogène	251 ـ المكان الشبقي
Object	Objet	252 ـ موضوع ـ غرض
Transitional object	Objet transitionnel	253 ـ موضوع إنتقالي
Part-object	Objet partiel	254 ـ موضوع جزئي
«good» object,	«Bon» objet.	255 ـ موضوع «طيب»،
«Bad» object	«mauvais» objet	موضوع «سيىء»
Topography, Topographical	Topique	256 ـ موقعي
Erogenic	Erogène	257 ـ مولّد للغلمة

ن

Narcissim	Narcissime	258 ـ نرجسية
Primary narcissism,	Narcissime primaire,	259 ـ نرجسية أولية،
Secondary narcissism	Narcissisme secondaire	نرجسية ثانوية
Ego instincts	Pulsions du moi	260 ـ نزوات الأنا
Life instincts	Pulsions de vie	261 ـ نزوات الحياة
Death instincts	Pulsions de mort	262 ـ نزعات الموت
Instincts of self preservation	Pulsion d'auto-conservation	362 ـ نزوات حفظ الذات
Instinct	Pulsion	264 ـ نزوة
Destructive instinct	Pulsion de destruction	265 ـ نزوة التدمير
Instinct to master	Pulsion d'emprise	266 ـ نزوة السطوة
Aggressive instinct	Pulsion d'agression	267 ـ نزوة العدوان
Parial instinct	Pulsion partielle	268 ـ نزوة جزئية
Sexual instinct	Pulsion sexuelle	269 ـ نزوة جنسية
Infantile amnesia	Amnésie infantile	270 ـ نسيان طفلي
Activity-passivity	Activité-passivité	271 ـ نشاط ـ فتور
System	Système	272 ـ نظام، منظومة
Cloacal theory	Théorie cloacale	273 ـ نظرية حُشيّة
Psychoneurosis	Psychonévrose	274 ـ نفاس ـ عصاب نفسي
Defence psychoneurosis	Psychonévrose de défense	275 ـ نفاس الدفاع عصاب دماغي
Negation	Négation	276 ـ نفي
Transference	Transfert	277 ـ تحويل
Counter-transference	Contre-transfert	278 ـ تحويل مضاد، أو تقابل
Regression	Regression	279 ـ نكوص

هـ

Aim (-instinctual)	But (-pulsionnel)	280 ـ هدف (ـ نزوي)
Flight into illness	Fuite dans la maladie	2812 ـ هروب في المرض
Hysteria	Hystérie	282 ـ هستيريا
Hypnoid hysteria	Hystérie hypnoide	283 ـ هستيريا تنويمية
Defence hysteria	Hystérie de défense	284 ـ هستيريا الدفاع
Traumatic hysteria	Hystérie traumatique	285 ـ هستيريا صدمية، هلعية
Anxiety hysteria	Hystérie d'angoisse	286 ـ هستيريا القلق
Retention hysteria	Hystérie de rétention	288 ـ هستيريا الحصر
Parapraxis	Acte manqué	289 ـ هفوة
Id	Ça (Le -)	290 ـ هو (الـ ـ)
Fantasy	Fantasme	291 ـ هوام
Phantasy	Phantasme	292 ـ هوام لا واعٍ
Primal phantasies	Fantasmes originaires	293 ـ هوامات أصلية

و

Psychical reality	Réalité psychique	294 ـ واقع نفسي
Combined parents	Parent (s) combiné (s)	295 ـ والد مزيج ـ والدين ممتزجين (صورة الـ ـ)
Perceptual identity	Identité de perception	296 ـ وحدة الإدراك ـ
Thought identity	Identité de pensée	وحدة الفكر
Depressive position	Position dépressive	297 ـ وضعية انهيارية
Paranoid position	Position paranoïde	298 ـ وضعية شبه عظامية
Beng conscious	Conscience (psychologique)	299 ـ وعي (نفساني)

لا

Unconscious	Inconscient	300 ـ لا وعي، لا وعي لا شعور

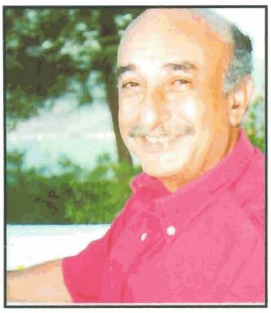

البروفسور
عدنان حب الله

كاد التحليل النفسي أن ينطفئ لولا ظهور جاك لاكان في أوائل الخمسينات. تلامذة فرويد كانوا لا يزالون تحت تأثير سلطة ونفوذ المعلم الأكبر، مما جعلهم يبتعدون عن كل قدرة في الاستنباط والإبداع، فوقعوا فريسة ما يسمى بالأنا الأعلى التحليلي، ولم يبق لهم سوى التقليد مما أفرغ العمل التحليلي من قوته الخلاقة وديناميكيته الناجعة فأصبح هيكلية نظرية.

من هذا المنطلق اعتبر لاكان أن العودة إلى فرويد هي السبيل الوحيد لتصحيح المسار التحليلي، لأن التحليل النفسي يتخطى فضيلته العلاجية، لكي يطال كل نشاط فكري في أي حقل وُجد. يبقى نموذج فرويد في مساره السبيل الوحيد لكل من اتبعه أن يكتشف الحقائق التي توصل إليها . الحقيقة ليست مطلقة إنما بالدرجة الأولى هي حقيقة ذاتية تكمن في اللاوعي بحكم المكبوت. وإن غابت عن الوعي فهي تستمر بالتحكم بتصرفات الإنسان ومسلكه، وتفرز العوارض المرضية.

موضوع التحليل النفسي يكمن في هذه الحقيقة التي اكتشفها فرويد ثم لاكان بعده، والتي تتجسد في موضوع الرغبة. والأنا خلافاً لما كان يتصور البعض تضللنا عن طريق التماهيات الآنية والمخيالية.

الجديد عند لاكان هو انفصاله عن كل ما هو علاقة الإنسان بالبيولوجيا لكي يحدد معنى وجوده في حقل اللغة التي من خلالها يعبر عن ذاته ويصبو دائماً إلى بلوغ حقيقتها وصدقيتها من خلال علاقته بالآخر الذي يسميه لاكان بالكبير للتمييز بينه وبين الصغير أي القرين. فهذا منحى فكري ديناميكي معتمد على الرغبة التي تحركه في الحياة وتضمن له المتعة، وهو منحى مغاير تماماً لما يسمى بسيكولوجية الأنا.

ولا عجب في أن يواجه التحليل النفسي مقاومة شديدة لاسيما في مجتمعنا العربي: أولاً لأن لغة الحب ممنوعة، ثانياً لأن الاعتزاز بالأنا قد تزعزع بعدما تبين أن حقيقتها تكمن في اللاوعي حيث لا سلطة عليه سوى قول الحق والحقيقة.

كل ذلك شرحه البروفسور عدنان حب الله بأسلوب مبسط : السهل الممتنع، و هو تلميذ لاكان، كي يبين تواصله مع فرويد.

البروفسور عدنان حب الله، أستاذ أمراض نفسية في الجامعة اللبنانية، إختصاصي بالأمراض النفسية والعصبية. محلل نفساني: من مؤسسي الجمعية اللبنانية للتحليل النفسي والجمعية الأوروبية للتحليل النفسي. مؤسس ورئيس المركز العربي للأبحاث النفسية والتحليلية. له العديد من المؤلفات في اللغتين العربية والفرنسية ويتمتع بمقام علمي في الأوساط الأوروبية.

ISBN 9947-21-082-0
9 789947 210826
Dépôt-Légal:85-2004

FIL-OBEIKAN
01088445
SR- 32.00